عصور

مجلة فصلية يصدرها مخبر "مصادر وتراجم"



شروط النشر بالمجلة:

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في آخر البحث.

3- تقدم الأعمال في قرص مرن على نمط وورد2000 ، محفوظة تحت نظامRTF ، ونسخة مطبوعة على وجه واحد.

4- يتراوح البحث ما بين 10 إلى 15 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس16 وتباعد 1.5 . وتكتب الهوامش بمقاس12 وتباعد فردي.

5- لا ترد الدراسات والبحوث سواء نشرت أم لم تنشر .

6- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة:

ترسل البحوث والدراسات باسم :

أ.د.بوعلام بلقاسمي

مخبر مصادر وتراجم. قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة وهران–السانية. الجزائر

هاتف/فاكس: 213-(0)41-353306

البريد الإلكتروني: oussour@yahoo.com

فهرس الموضوعات

كلمة المجلة

ظل البحث التاريخي الأكاديمي في بلادنا يعاني طيلة عقود من الإهمال والتهميش على كل المستويات، الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ولعل مصدر هذا الوضع الخوف من "*التاريخ*"، أو ما قد يكشف عنه المؤرخ من حقائق أو إفشاء "*لأسرار*" تغير من نظرة المجتمع إلى الرجال والأحداث.

ولا شك في أن محاولات التشكيك في التاريخ الوطني وبث البلبلة وتفسير الأحداث التاريخية انطلاقا من الصراعات السياسية والأيديولوجية الراهنة، قد ساهم في ترسيخ الاعتقاد ، لدى العام والخاص، أن التاريخ مادة "*سامة*" يجب التعامل معها بكل حذر، بل ينبغي التخلص منها. ولا أدل على ذلك من تلك الشعارات التي رفعت في بداية الثمانينيات عبر شوارع الجزائر: "***لا لتدريس التاريخ***" و"***التاريخ في المزبلة***".

ولا مناص اليوم من أن التاريخ اصطبغ بمفهوم الذاكرة الوطنية نتيجة قيام الدولة الوطنية، بل أصبح التاريخ الوطني من أبرز مقوماتها. فسخرت له الدولة الوطنية الهياكل والأموال والمناسبات وسنت له القوانين، وأدركت أن التاريخ لا يعنى بالماضي فقط وإنما هو الحاضر أيضا.

يتمحور عمل المؤرخ في محاولة إعادة بناء الأحداث الماضية وتفسيرها بالاعتماد على الأدوات المنهجية التي أوجدها تطور علم التاريخ. ولا فائدة من هذا العمل إلا إذا كان يهدف إلى استنباط الثوابت في مسيرات الأمم واستخراج القوانين التي تتحكم في نشأتها وتطورها أو تقهقرها.

وبسبب أن التاريخ هو صياغة لموروث وذاكرة الأمم، فإنه يشكل عنصر ترابط اجتماعي وسياسي وحضاري؛ يقع على المؤرخ عبء التكفل به وحسن توظيفه.

ولا شك في أن حقل الكتابة التاريخية سيزدان بصدور أول عدد من مجلة "**عصور**"، لما يحتويه من دراسات وأبحاث علمية جادة تعنى بمصادر تاريخ الجزائر وأعلامه. وجاء هذا المولود العلمي الجديد ثمرة مجهودات متواصلة لأعضاء مخبر البحث "**مصادر وتراجم**" بجامعة وهران، الذي أنشئ بموجب قرار وزاري مؤرخ في 22 ماي 2000، في إطار السياسة الوطنية الجديدة التي تهدف إلى تطوير البحث العلمي والتكنولوجي في الجزائر والتي أقرها قانون البحث الصادر في عام 1998.

يضم مخبر البحث "**مصادر وتراجم**" أربع فرق بحث تهتم بمصادر تاريخ الجزائر وأعلامه عبر العصور، وسيعمل على إصدار عددين لمجلة "**عصور**" كل سنة (جوان وديسمبر).

إن رسالة مخبر البحث "**مصادر وتراجم**" لن تكتمل بإصدار مجلة "**عصور**" ولن تتحقق بإقامة الأيام الدراسية والندوات فقط، وإنما يتوجب عليها إثراء المكتبة التاريخية الجزائرية بسلسلة من الكتب والبحوث الجادة التي يعتزم باحثو المخبر البدء في إصدارها في نهاية سنة 2002.

إن هدفنا هو أن تصبح مجلة "عصور" منبرا علميا متميزا ووسيلة معرفية تساهم في ترقية المعرفة التاريخية في إطار موضوعي، أكاديمي ووطني.

والله الموفق لما فيه الخير والصلاح

مدير المجلة

أ.د. بوعلام بلقاسمي

خصائص ومميزات ثورة أولاد سيدي الشيخ

أ.د / بوعلام بلقاسمي (*)

مقدمة :

بعد تمكنها من احتلال الجزء الكبير من الشمال الجزائري والتخلص عسكريا من مقاومات الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانتفاضات شعبية أخرى، راحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تخطط لغزو مناطق الهضاب العليا والصحراء الكبرى وإخضاع سكانها عن طريق السلاح والسياسات التعسفية الجائرة.

وقد ظنت الآلة العسكرية الفرنسية بأن مهمتها في الجنوب ستكون أهون، معتقدة بأن الأساليب التي اعتمدها " جيش إفريقيا "، من تقتيل جماعي للجزائريين والتنكيل بهم وزرع للدمار والحرق والتخريب، قد قضت على روح الكفاح والجهاد والمقاومة الكامنة في الشعب الجزائري وأرغمته على الرضوخ للواقع الاستعماري.

ولما قامت القبائل الصحراوية بالجنوب الغربي بقيادة أولاد سيدي الشيخ بإعلان الجهاد ضد الجيش الغازي في 1864 ، اعتبر الساسة والقادة العسكريين الفرنسيين ذلك مفاجأة وحدثا بالغا في الأهمية من شأنه تغيير المعطيات العسكرية بشكل جذري. وقد عبر الكولونيل تروملي Trumelet - أحد كبار ضباط الحملات العسكرية الفرنسية بالجنوب الغربي، عاصر ثورة أولاد سيدي الشيخ وكتب عن أحداثها ومجرياتها - عن هذا الانقلاب

(*) أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر، ومدير مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

في الإستراتيجيات الاستعمارية بأن " انتفاضة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الجزائري هي أخطر مقاومة تواجه الوجود الفرنسي في الجزائر منذ بداية الحملة الاستعمارية "[1] .

ولعل الأمر الذي عجل باندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ هو اعتقال سيدي حمزة بن بوبكر خليفة الصحراء، وأب الثوار المتهم بتحضير الكفاح المسلح سرا ضد المستعمر الفرنسي. وادعت فرنسا أنها قد اكتشفت قافلة محملة بالسلاح والذخيرة كانت متجهة نحو الجنوب الغربي الجزائري، وبالتحديد إلى مضارب أولاد سيدي الشيخ. وجدير بالذكر أن سي حمزة بن بوكر قد استغل صلات المصاهرة التي كانت تربطه بسلطان المغرب — حيث أنه زف أخته لالة الياقوت عروسا للسلطان- لطلب المساعدة بالعتاد الحربي والمؤونة والبارود.

وكان لاعتقاله من طرف الفرنسيين اثر عميق في نفوس كل القبائل الصحراوية بالجنوب الغربي الجزائري، التي أظهرت تخوفها من المصير الذي ينتظره بين أيدي الجيش الفرنسي. كما أن خبر مقتله مسموما في بداية أوت 1861 نزل كالصاعقة عليهم، فتيقن سكان هذه المناطق أنه لابد من طرد المستعمر الفرنسي، وأدرك القادة الفرنسيون أن الوضع خطير للغاية لأن أولاد سيدي الشيخ سينهضون كرجل واحد في ثورة عارمة شاملة للانتقام من فرنسا على مقتل زعيمهم وإنهاء وجودها في الجزائر.

في 29 جانفي 1864، بلغ التوتر حده عندما تشاجر عدد من أفراد عائلة سيدي الشيخ وقبائل أخرى في ساحة البيض مع مجموعة من الصبايحية التابعين للمكتب العربي يقودهم الملازم بوران BORIN بسبب اعتقالهم لسي الفضيل كاتب الباشاغا سي سليمان. ولما علم سي سليمان بالحادث، أسرع إلى المكتب العربي لإطلاق سراح كاتبه. وقد اعتبر الحادثة إهانة كبيرة له ولعائلته، فأخذ يستعد للرد على الفرنسيين بقوة السلاح واجتمع بمجلس الجماعة وتشاور معهم في أمر إعلان الجهاد ضد الكفار. و لم تمض إلا أيام قليلة حتى أعلن الجهاد المقدس واستجابت له القبائل الصحراوية بغرب ووسط وجنوب شرق الجزائر بدون تردد، واضعة ثقلها في المعركة الحاسمة ضد الجيوش الفرنسية. فاشتعلت بذلك كل الجبهة الجنوبية، مما دفع بالفرنسيين على نعتها بأكبر خطر يهدد الوجود الفرنسي في الجزائر.

فما هي الخصائص التي تميزت بها هذه المقاومة حتى اعتبرها القادة العسكريين الفرنسيين أكبر امتحان لحملتهم الاستعمارية في الجزائر ؟ وبماذا تنفرد ثورة أولاد سيدي الشيخ عن شبيهاتها من المقاومات الشعبية والوطنية خلال القرن التاسع عشر ؟

بعد الدراسة المتأنية لتاريخ ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى، يمكننا إبراز خمسة خصائص رئيسة تتميز بها، وهي :

1- *الخاصية الأولى : طبيعة الثورة*

تمثل ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة الأولى لعام 1864 وبعدها ثورة أولاد سيدي الشيخ الغرابة الثانية لسنة 1881، انطلاقا من منطقة البيض بالجنوب الغربي الجزائري، أوج مقاومة القبائل الصحراوية وسكان الهضاب العليا ضد التوغل الاستعماري في الصحراء الكبرى[2].

لقد شاركت القبائل الصحراوية في التصدي للغزو الفرنسي منذ 1830 إلى جانب الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وسكان التيتري والزعاطشة وغيرهم من الثوار. إلى أن جاءت سنة 1864 حيث تصدرت هذه القبائل الكفاح ضد المستعمر، موحدة تحت لواء أولاد سيدي الشيخ وعازمة على منع توغل جيش المحتل الغازي.

وكان للنفوذ والاحترام الذي كانت تتمتع به زاوية سيدي الشيخ وشيوخها في الصحراء الكبرى وعلى مستوى كل الغرب الجزائري، دورا إيجابيا وحاسما في تجنيد عدد كبير من القبائل وتلبية نداء الجهاد الذي أعلن عنه شيخ القبيلة سي سليمان في 07 أبريل 1864، على الرغم من الكارثة البشرية والاقتصادية التي حلت بالشعب الجزائري من جراء مجاعات سنوات 1865-1869 التي راح ضحيتها المئات من الآلاف من الجزائريين، وتسببت في تشريد وتفقير وتهجير الملايين من الرجال والنساء والأطفال. وقد كان لسياسات فرنسا الهادفة إلى مصادرة أراضي القبائل وتسليط العقوبات الجماعية وفرض ضرائب باهضة على الجزائريين، نتائج اجتماعية وإنسانية مأساوية بلغت ذروتها في مجاعات الستينيات من القرن التاسع عشر.

وبذلك انتقلت المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي من الشمال إلى الجنوب الجزائري، واستمرت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

2- *الخاصية الثانية :اتساع النطاق الجغرافي للثورة*

مما لا شك فيه أن الإدارة الاستعمارية قد أدركت منذ 1840، بفضل التقارير التي كانت تصلها من المكاتب العربية العسكرية Bureaux Arabes في المناطق الغربية الداخلية تحت الحكم العسكري المباشر، المكانة التي كانت تحتلها قبيلة أولاد سيدي الشيخ بفرعيها الشرقي والغربي واتساع نفوذها السياسي والديني إلى كل الصحراء الجزائرية والجنوب المغربي، وكذا الاحترام الذي كانت تحظى به زاويتها في كل الشمال الإفريقي. ولذا عمدت على اتباع سياسة ترمي إلى إضعاف هذه القبيلة بتشتيتها وضرب مواردها الاقتصادية[3].

وتجسد تنفيذ السلطات الفرنسية لهذه الخطة من خلال إبرام معاهدة لالة مغنية عام 1845 مع المغرب والتي اعترف الطرفان من خلالها بالحدود التي كانت قائمة بين البلدين قبيل احتلال فرنسا للجزائر في 1830 وحددا القبائل التي تخضع لكل جانب .

وكان من نتائج هذه المعاهدة أن أصبحت قبيلة سيدي الشيخ مجزأة على النحو التالي:

- الفرع الغربي- أولاد سيدي الشيخ الغرابة- بقيادة سيدي الشيخ بن الطيب تحت حكم سلطان المغرب.
- الفرع الشرقي- أولاد سيدي الشيخ الشراقة- بقيادة سي بوبكر الصغير وابنه حمزة يهدده التوغل الاستعماري في الجنوب.

إضافة إلى ذلك، سعت السلطات الفرنسية إلى الحد من النفوذ السياسي والديني لفرع أولاد سيدي الشيخ الشراقة باستعمال وسائل مختلفة: منها قتل شيوخ القبيلة (وهنا نشير إلى ما قامت به ضد الخليفة سي حمزة الذي مات مسموما بالجزائر العاصمة وهو تحت مسؤولية وحماية الفرنسيين)، واعتماد أسلوب الإذلال والإهانة تجاه زعماء القبيلة (كما وقع لسي بوبكر بن حمزة الذي منحته السلطات الفرنسية لقب باشاغا بدلا من لقب

خليفة الذي كان يحمله والده قبل وفاته، وكذلك سي سليمان بن بوبكر الذي لم يمنح إلا لقب آغا.

لم يكن القادة العسكريون الفرنسيون يتوقعون بأن رفض أولاد سيدي الشيخ لسياسة فرنسا وأساليبها في التعامل معهم سيتبلور في وقت قصير لينجب ثورة كبري ستنتشر بسرعة البرق في كل أرجاء الجزائر، وتتولد عنها ثورات شعبية أخرى هنا وهناك.

لقد كان الهجوم على معسكر الضابط الفرنسي بوبراتر Colonel Beauprêtre في عوينة سيدي بوبكر في 08 أبريل 1864 بمثابة " الشرارة التي أشعلت مخزن البارود " كما عبرت عنه المؤرخة الفرنسية Goldzeiguer Annie-Rey في كتابها Le Arabe Royaume . وتعني بذلك أن الانتصار العسكري الذي حققه ثوار أولاد سيدي الشيخ في هذه المعركة كانت له انعكاسات سلبية جدا على الأوضاع العامة للنظام الاستعماري في الجزائر، بحيث أنه فجر الوضع في كل أنحاء الجزائر بالتحاق معظم المناطق بهذه الثورة[4].

بعد المعركة الأولى، انضمت إلى الثورة قبائل جبل كسال بالبيض وبريزينة وجبل عمور والأغواط والقليعة ومتليلي وبوغار وبوسعادة وقبائل فليتة بقيادة سي لزرق بمنطقة غليزان، وكذا قبائل الدهرة ومستغانم وبلعباس وفرندة وتلمسان ومعسكر. وامتدت الثورة في صيف 1864 إلى منطقة القبائل الشرقية وإلى الميلية؛ وفي ربيع 1865 بلغت بجاية وجيجل وصولا إلى منطقة الشمال القسنطيني والأوراس.

والجدير بالملاحظة أن ثورة أولاد سيدي الشيخ قد ساهمت، باندلاعها، في إحياء مقاومات شعبية محلية كانت قد اختفت منذ مدة[5] ، كمقاومة سي لزرق بن الحاج (غليزان)، وناصر بن شهرة، وبومعزة في الدهرة (حاول أحد أقربائه إحياءها عام 1864)، ومقاومة الشريف محمد بن عبد الله.

كما أن المكانة التي كانت تحتلها قبيلة أولاد سيدي الشيخ والشهرة والاحترام الكبيرين الذين كانت تحظى بهما زاو يتهم، شجعت العديد من الطرق الصوفية المؤثرة وذات النفوذ في الجزائر والمغرب العربي إلى الانضمام إلى الاستجابة لنداء الجهاد. وتشير كل المصادر

والوثائق الرسمية الفرنسية إلى أن زوايا القادرية والسنوسية والرحمانية والدرقاوية قد شاركت فعليا في الثورة، بينما لا نجد ذكرا للطريقة لتيجانية [6] .

انطلاقا مما سبق، يمكننا القول أن شمولية هذه الثورة واتساع رقعتها والتفاف العديد من القبائل والأعراش والطرق الصوفية حولها، يجعلها أكبر وأوسعها مقاومة شعبية خاضها الشعب الجزائري في القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الفرنسي. وتلك خاصية تنفرد بها ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى والثانية.

3-الخاصية الثالثة : المدة الزمنية للثورة

يتفق اليوم أغلب المؤرخين لجزائريين على اعتبار ثورة الشيخ بوعمامة 1881-1908 امتداد ومواصلة لثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى 1864-1869 .

بعد المرحلة الأولى 1864-1867 التي شهدت وقوع عدة معارك بمنطقة البيض، بعضها لصالح الثوار وأخرى تفوقت فيها الآلة العسكرية الفرنسية، خفت نوعا ما شدة الحرب لتندلع من جديد في 1869 في معركة عين ماضي. وبقيت الأوضاع بين هدوء وحرب في كل منطقة الجنوب الغربي وعبر الحدود الغربية إلى أن قامت الثورة الثانية على يد أولاد سيدي الشيخ الشراقة في 1881، المعروفة بثورة الشيخ بوعمامة.

فمن الناحية المدة الزمنية، يمكننا القول أن ثورة أولاد سيدي الشيخ –الأولى والثانية- هي أطول مقاومة شعبية ضد الغزو الفرنسي بالجزائر، دامت43 سنة ولا تضاهيها في ذلك إلا مقاومة الشيخ آمود بالهقار والطاسيلي.

4- الخاصية الرابعة : التنظيم القيادي للثورة

تختلف ثورة أولاد سيدي الشيخ عن المقاومات الشعبية التي شهدها القرن التاسع عشر في عنصرين أساسين:

4-1 . العنصر الأول: زعامة الثورة

تظهر الدراسات التاريخية للمقاومات الشعبية للغزو الفرنسي خلال القرن 19م أن الزعامة والقيادة انحصرت في أفراد تجمعت حولهم، وحاربت تحت لوائهم، قبائل أو مناطق

إما استجابة لإعلان الجهاد أو مرغمة على ذلك بالقوة. وغالبا ما تنتهي هذه المقاومات باستشهاد أو بأسر القائد-الفرد، مثلما حل بجهاد الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي والشيخ بوزيان وبوبغلة ولالة سومر وغيرهم.

فكانت إذا تقوم عندما تجد زعيما فردا يقودها ويدفع الناس إلى الالتحاق بها، وتنتهي وتزول بزواله.

والاختلاف بين هذه المقاومات وثورة أولاد سيدي الشيخ هو أن الزعيم لم يكن فردا وإنما كان عائلة، أو بالأحرى قبيلة من أشرف وأعرق قبائل الجزائر[7] . فالثورة قامت بإعلان شيخها سي سليمان عن دخول القبيلة في الجهاد ضد المستعمر يوم 7 أبريل 1864، ولم تتوقف عندما استشهد في اليوم الموالي للإعلان. بل حملت الراية القبيلة كلها وخلفه أخوه سي محمد وهو شاب صاحب الـــ16 سنة من العمر فقط.

ولا يمكننا التصديق بانضمام قبائل كبيرة وزوايا معروفة ومناطق شاسعة إلى صفوف ثورة يقودها شاب غير معروف لا تجربة لديه في أمور الحرب، لو لم تكن تلك القبائل والزوايا والمناطق تدرك جيدا أن قيادة الثورة تعود إلى القبيلة والزاوية بأكملها وليس إلى شخص سي محمد وحده.

ومما يؤكد ذلك أن استشهاد سي محمد زعيم الثورة الثاني في 22 فبراير 1865، متأثرا بجراحه بعد معركة قارة سيدي الشيخ (04-02-1865)، لم يؤدي إلى توقف أو زوال المقاومة؛ بل تم تعويضه بأخيه سي أحمد بن حمزة الذي لقب سلطانا على القبيلة.

واستمرت المقاومة تواجه الجيوش الفرنسية المتدفقة على الجنوب الغربي دون تردد ولا هوادة على الرغم من فقدانها لثلاث زعماء في ظرف زمني قصير.

2-4 . العنصر الثاني : التنظيم السياسي والعسكري للثورة.

تتميز ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى عن بقية المقاومات الشعبية وعن ثورة الشيخ بوعمامة (باستثناء ثورة المقراني التي تشبهها في هذا المجال) في كونها لم تحصر القيادة السياسية-الدينية والقيادة العسكرية في فرد واحد، بل أوجدت قيادتين:

- ❖ قيادة سياسية – دينية انتقلت بين أولاد سي حمزة بن بوبكر الصغير كما ذكرنا في العنصر الأول،

❖ وقيادة عسكرية تمثلت في رجل يمتلك كل شروط " الجنرال " الحربي، من شخصية قوية ونسب شريف وشجاعة وذكاء وحنكة، تؤهله لقيادة القبائل ضد الجيوش الفرنسية المتفوقة عددا وعدة. وقد توفرت هذه المواصفات في سي لعلى، أخ سي حمزة، وعم سي سليمان وسي محمد وسي أحمد. وقد لعب سي لعلى دور قائد الأركان ومستشار القيادة السياسية-الدينية. وعلى الرغم من صغر سن أبناء أخيه، فإن سي لعلى لم يحاول أن يستحوذ على زعامة الثورة أو القبيلة، لأن أمر تسيير الجهاد كان يقع على عاتق القبيلة كلها ولا ينفرد بها أحد.

وفي الفصل بين القيادة السياسية-الدينية والقيادة العسكرية تكمن قوة هذه الثورة وسر بقائها على الرغم من استشهاد زعمائها الوائل.

5- ***الخاصية الخامسة : الميزات العسكرية***

جندت فرنسا جيوشا ضخمة لمواجهة مقاومة القبائل الصحراوية الثائرة تحت لواء أولاد سيدي الشيخ، فاقت الـــ200.000 عسكري مؤطرين من طرف عدد كبير من كبار الضباط الفرنسيين (ماريشالين، وعشر جنرالات، وأكثر من 25 كلونيل)، المدربين على كل الخطط الحربية والمجهزين بأحدث الأسلحة الحديثة[8].

كما أن ثوار أولاد سيدي الشيخ عدوا فتاكا آخر، يتمثل في استخدام القوات الفرنسية لبندقية حديثة الصنع وهي Chassepot ذات الطلقات النارية المتعددة، في وقت كانوا يجاهدون بالبنادق القديمة والسيوف وغيرها من الأسلحة العتيقة.

إلى جانب ذلك، فإن إنشاء شبكة السكة الحديدية بالجزائر وتوغلها في مناطق الثورة بين 1872 و1886 قد ساهمت بشكل كبير في الحد من تحركات الثوار ومكنت الجيش الفرنسي من الوصول إلى أماكن العمليات في وقت وجيز، وكذا نقل لعدد كبير من الجنود وكل العدة التي تحتاجها حملاتها ضد القبائل الصحراوية[9] . وبذلك تغير شكل الإستراتيجية الحربية والصراع بدخول "الحصان الحديدي" ميدان المعركة. وقد أنجز الجيش الفرنسي، مستعملا الأسرى الجزائريين والقبائل المسخرة عنوة، الخط الرابط بين مصباح والخيثر (في اتجاه المشرية) البالغ 52 كلم في مدة قياسية لا تتعدى 100 يوم قصد التصدي لقوات الشيخ بوعمامة والحد من انتشار ثورته[10] .

وفي الخلاصة، لم يكن بوسع أولاد سيدي الشيخ والقبائل التي ثارت على جانبهم الوقوف والتصدي طويلا للزحف الاستعماري بعد نهاية القرن التاسع عشر، فانتهت ثورتهم الثانية بوفاة الشيخ بوعمامة عام 1908.

فرانز فانون والبحث عن الخلاص النفسي في الثورة الجزائرية

أ / رابح لونيسي (*)

يختلف المؤرخون والباحثون في فرانز فانون وعلاقة إنتاجه الفكري بالثورة الجزائرية، فيذهب البعض إلى القول أن أفكاره ونظرياته مستوحاة من تجربته ومشاركته في الثورة الجزائرية [1]. إلا أن الرأي الغالب يقول أن فرانز فانون منظرا للثورة الجزائرية، وينتشر هذا الطرح في الكتابات الغربية خاصة الماركسية منها، وتختفي وراءه في نظرنا عدة عوامل ومنها الدعاية الماركسية التي تحاول إعطاء الثورة الجزائرية صبغة ماركسية بحكم أن فانون ماركسي حتى ولو أن ماركسيته تعتمد على طبقة الفلاحين وحثالة البروليتاريا وتوجه نقدا لاذعا للماركسية التقليدية التي تستند على طبقة البروليتاريا، كما أن هذا الطرح هو محاولة من المثقفين الماركسيين الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة لمساعدة رفاقهم الجزائريين للتخلص من العقدة التي تشكلت لديهم بحكم موقفهم السلبي من الثورة الجزائرية، كما يمكن أن يدخل هذا الطرح في إطار الدعاية الاستعمارية الفرنسية التي ما فتئت تحمّل أطرافا خارجية مسؤولية أي حركة مناهضة للاستعمار الفرنسي في الجزائر، فالثورة الجزائرية حسب هذه الدعاية هي من صنع مصر الناصرية تارة والشيوعية العالمية تارة أخرى، ولهذا فتضخيم دور فانون في الثورة يدخل ضمن عملية الدعم لهذه الدعاية الاستعمارية ولكي يتبين لنا بوضوح مدى تأثير فرانز فانون في الثورة الجزائرية وإيديولوجيتها من جهة ومدى تأثره بهذه الثورة التحاقه بالثورة وبعدها.

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران.

وتجربته فيها يجب علينا أن نتبع مسيرة فانون وإنتاجه الفكري عبر محطتين أساسيتين: قبل

I- نشأة فرانز فانون وحياته قبل الالتحاق بالثورة الجزائرية :

ولد فرانز فانون عام 1925 بـ"فور دو فرانس" عاصمة جزيرة المارتنيك في أرخيل الأنتيل [2]، وتعتبر هذه الجزيرة مستعمرة فرنسية منذ عام 1635، ويعتقد أغلب سكانها الزنوج أنهم فرنسيين بفعل المسح والتشويه الثقافي الذي تعرضوا له[3] وينحدر فانون من أسرة مارتينكية زنجية بورجوازية تطمح للانتماء إلى طبقة المعمرين البيض هناك وتشاركهم عملية استغلال باقي السكان .

تلقى فانون تعليمه في فورد فرانس أين تشبع بتاريخ فرنسا وثقافتها مثل باقي المارتنكيين الذين يهبون للدفاع عن ما يعتبرونه وطنهم فرنسا كلما ألم بها خطر، فقد التحق فانون مثل الكثيرين من المارتنكيين بقوات فرنسا الحرة الموالية لديغول للقتال ضد ألمانيا النازية بعد سقوط باريس عام 1941، ويعرف عن فانون بسالته وتحديه للأميرال روبار حاكم المستعمرة والموالي لحكومة فيشي. انتقل فانون بعد الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا لمواصلة دراسته في الطب النفسي فاحتك هناك بالأفكار والتيارات الشيوعية التي لم تكن جديدة عليه في حقيقة الأمر لأن بلده الأصلي كان يعج بهذه التنظيمات كالحزب الشيوعي المارتينيكي والفيدرالية الاشتراكية، لكن ما يهمنا في هذا الاحتكاك هي الصدمة التي وقعت لـفانون ذو البشرة السوداء، وشعوره بعقدة نقص اتجاه الأبيض الأوروبي بفعل سلوك الإنسان الأبيض اتجاه الزنجي مثله رغم حدة ذكائه وتفوقه العالية، ويتجلى لنا هذا الشعور لدى فانون من خلال كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" الذي نشر بباريس عام 1951، ويبرز فيه بوضوح ما يعانيه الزنوج من عقدة اتجاه البيض، ومحاولتهم التخلص منها بـ"ارتداء اللباس الأوروبي وآخر الموضات واستعمال الأشياء التي يستخدمها الأوروبي ومماثلته في الأشكال الخارجية للتحضر...واستعمال لغة الأوروبي...وكل هذا محاولة منه لكي يشعر بأنه متساوي بالأوربي وهو نموذج وجوده" [4] ويرى فانون في هذا السلوك أنه أحد الأساليب لتخليص الزنجي من عقدته ويشبه إتقان لغة الأبيض بـ"المفتاح الذي يفتح له الأبواب المغلقة في وجهه" ويورد كيف وصف بـ"الأبيض في العمق لأنه ألقى محاضرة بلغة فرنسية سليمة جدا حول الشعر الزنجي والأوروبي" [5]. ويتحسر فانون لأن هذا

الأسلوب غير كاف بالنسبة للزنجي عكس الآخرين فمثلا بإمكان اليهودي أو المسلم الأبيض أن يعرف بنفسه وينزع الأفكار السيئة المنتشرة حوله لكن الزنجي "ليس له أي حظ في ذلك لأني قد حددت من الخارج لست عبدا لفكرة موجودة عند الآخرين عني لكن عبدا لمظهري (أي زنوجته)" [6].

لم يتخلص فانون من عقدته وشعوره باحتقار الأوروبي الأبيض له رغم انخراطه في الحركات اليسارية واحتكاكه بمحرري مجلتي Esprit وPrésence Africaine. ورغم ثقافته العالية ونضالاته من أجل انتصار الفكرة الشيوعية التي يؤمن بها، ولعل تتآخى الطبقة العاملة دون أي تميز في اللون أو العرق. ويبدو أن فانون قد وصل إلى درجة اليأس لتخليص الزنجي من عقدته مادام من المستحيل عليه تغيير بشرته السوداء.

وندما انتقل فانون للعمل كطبيب نفسي في مستشفى البليدة للأمراض العقلية عام 1953 اكتشف أن نفس العقدة التي كان يعاني منها الزنجي موجودة أيضا لدى المستعمَّر تجاه المستعمر في الجزائر.

ونعتقد أن فانون المتابع لنفسية المستعمر الجزائري قد لاحظ تغيرا في تلك النفسية بعد اندلاع الثورة المسلحة في نوفمبر من عام 1954، وأن الجزائري كان يتخلص تدريجيا من العقدة التي يعاني منها كلما انخرط أكثر في العمل الثوري المسلح ضد المستعمر، فهل كانت هذه الملاحظة أحد العوامل التي دفعت فانون للالتحاق بالثورة الجزائرية كي يتخلص من عقدته تجاه الأبيض أم هناك عوامل أخرى؟

II- *فرانز فانون في قلب الثورة الجزائرية:*

يورد محمد الميلي ثلاث عوامل وراء انضمام فرانز فانون إلى الثورة الجزائرية في عام 1956 ويمكن تلخيصها في:

- تأثره بالفلسفة الإنسانية الغربية Humanisme فكان من الطبيعي أن يتعاطف مع قضية الإنسان الجزائري.
- انتقامه من الاستعمار الذي احتل بلاده جزر الأنتيل.
- تكوينه الفكري المناهض للاستعمار وإظهار تفوق إفريقيا على أوروبا[7].

وقد غابت عن الميلي عومل أخرى أكثر أهمية في نظرنا بالنسبة لحالة فانون الذي كان يعاني من عقدة بداخله، ويبرز لنا ذلك من خلال رسالة الاستقالة من منصبه كرئيس لمصلحة الأمراض العقلية بالبليدة والموجهة إلى الوزير المقيم في الجزائر حيث يشير فيها إلى هذه المعاناة بشكل لا شعوري عندما يقول "...إن ضميري يعيش منذ شهور طويلة مداولات قاسية، خلاصتها هي التصميم على عدم اليأس من نفسي، وقررت أن لا أتحمل مسؤولية موقف سلبي بدعوى أن ذلك هو المخرج الوحيد من المأزق..."، فنجد أن فانون يحاول أن يربط بين رغبته في التخلص من عقدته اتجاه الأبيض بالتعاطف مع مأساة الشعب الجزائري، ونعتقد أن القراءة المتأنية في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" تكشف لنا بعض دوافع التحاقه بالثورة حيث كتب في أواخر صفحات الكتاب "لا يكون الإنسان إنسانا إلا بدرجة ما يريد أن يفرض نفسه على إنسان آخر كي يعترف به. وطالما لم يعترف به الإنسان الآخر سيبقى هذا الآخر (أي الأبيض) موضوع حركته، وتحدد قيمة وحقيقة إنسانية هذا الإنسان حسب موقف الآخر منه واعترافه به، ففي هذا الآخر تكون معنى لحياته" ولهذا فإن فانون يدعو إلى "النضال والتضحية" إذا أراد الإنسان الزنجي أن يعترف به الأبيض [8]. فكانت الثورة الجزائرية فرصة لا تعوض لــفانون لتحقيق هذا الاعتراف ويفرض نفسه على الأبيض الذي يعاني اتجاهه بعقدة نقص. كما لا يجب أن يغيب عن ذهننا عامل آخر أشار إليه الميلي هو إيمان فانون بالإنسانية ورغبته في عالم يغيب فيه الاستعباد والاستغلال، وأن انضمامه إلى الثورة الجزائرية هو تجسيد عملي لما كتبه في نفس الصفحات "كلما قال إنسان لا لمحاولة استغلاله واستعباده من طرف إنسان آخر، أشعر بأني متضامن، متعاطف مع حركته" [9]. ويمكن للباحث أن يتساءل هل فكر فانون فيما يمكن أن يقدمه للثورة الجزائرية بعد التحاقه بها وهل استشار قادة الثورة قبل تقديم استقالته من مستشفى البليدة؟ وهل طلب منهم أداء مهمات محددة أم أنه وضع نفسه رهن إشارتهم دون أي اختيار؟ وهل طمح فانون في أن يكون له دور في صناعة بعض قرارات قيادة الثورة بحكم ثقافته العالية ومعرفته الواسعة بالاستعمار؟

1- توظيف الثورة لفانون:

لا نعلم إن كان فانون يدرك أن قيادة الثورة الجزائرية كانت تنظر إلى المثقف الجزائري نظرة شك وريبة بحكم ماضي بعض المثقفين الجزائريين اتجاه الاستعمار والذين كانوا يسخرون من فكرة الاستقلال التي كانت تدعوا إليه "نجم شمال إفريقيا" ثم "حزب الشعب" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" التي انحدرت منها قيادات الثورة، وكان هؤلاء المثقفين يرون استحالة تحقيق فكرة الاستقلال[10].

ورغم التحاق الكثير من المثقفين بالثورة خاصة بعد إضراب الطلبة عام 1956، وتضحية الكثير منهم بحياتهم في سبيل الجزائر إلا أن ذلك لم يمح نظرة الشك تلك لدى قيادة الثورة اتجاههم. وبحكم ذلك فإن المثقف الجزائري كان مجرد موظف تحدد القيادة مهامه و لم يكن له أي دور في صناعة القرارات.

وغرابة الأمر أن فرانز فانون له نفس موقف هذه القيادة اتجاه المثقف الجزائري أثناء الثورة حيث كتب في كتابه "المعذبون في الأرض" يقول "أن المثقفين الذين التحقوا بجبهة التحرير الوطني عشية الاستقلال أكدوا لاحقا أن ليس لهم هدف آخر سوى أخذ قطعة من الكعكة بعد الاستقلال" [11]. و لم نتأكد إن كان ما قاله فانون جاء تحت تأثير قيادات الثورة أم نابعا من وحي ملاحظاته على الكثير من المثقفين الذين تعامل معهم خاصة في تحرير صحيفة المجاهد -لسان حال جبهة التحرير الوطني.

إلا أن ما يمكن التأكد منه هو أن فانون لم يكن دوره أكثر من دور المثقفين الذين وظفتهم الثورة في إطار إستراتيجية عامة لم يشاركوا في وضعها ولو بالاستشارة. ويبدو أن القيادة قبلت فانون في صفوفها كي تكسب به عالم الزنوج في إفريقيا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية من جهة رغم تأثيرهم الضعيف في السياسة العالمية، لكنه كان أداة الثورة الفعالة في اكتساب المثقفين الفرنسيين إلى جانب الثورة بحكم ثقلهم في صناعة الرأي العام الفرنسي من جهة وتشكيلهم جماعة ضغط مؤثرة على صناعة قرارات الحكومة الفرنسية من جهة أخرى، ولهذا استعملت قلمه للكتابة في المجاهد — لسان حال FLN- بطبعته الفرنسية الموجهة إلى العالم الغربي عامة وفرنسا خاصة. ويلاحظ المتتبع لمقالات فانون في المجاهد أن أغلبها كان موجها للمثقفين الفرنسيين ومحاولة التأثير فيهم واكتسابهم للدفاع

عن القضية الجزائرية. ومن أهم كتابات فانون في الصحيفة مقالته "المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية" والتي جاءت في ثلاث أعداد من الصحيفة، ويقول فيها أن "مساندة المطالب الوطنية للشعوب المستعمرة دون تحفظ هو واجب يقع على كاهل المثقفين والعناصر الديمقراطية في البلاد الاستعمارية"، ويؤاخذ المثقفين اليساريين بعدم القيام بدورهم الكامل تجاه الرأي العام الفرنسي خوفا من اتهام اليسار بأنه متواطئ مع الثوار.

وبعد أن يدحض فانون كل ذرائع هؤلاء المثقفين اليساريين يختم مقاله الطويلة بالقول أنه "يجب على اليسار الفرنسي —دون أن يتنكر لأمته- أن يكافح من أجل تحترم حكومة بلده القيم المعروفة باسم حق الشعوب في تقرير مصيرها والاعتراف بالإرادة الوطنية وتصفية الاستعمار وإيجاد روابط مخصبة بين شعوب حرة" ويطلب منهم أن يشرحوا "للجماهير الفرنسية خصائص النضال الجزائري والمبادئ التي تحركه وأهداف ثورته" [12] وفي إحدى مقالاته الموجهة دائما للمثقف الفرنسي يركز على التعذيب الذي يتعرض له الجزائريون، ويحذر هؤلاء المثقفين من خطورة الاكتفاء بتنديدهم بالتعذيب فقط وإغفالهم مدى ارتباطه بالنظام الاستعماري ذاته فيقول أن "الاستعمار يقتضي ويستلزم وجود التعذيب والتقتيل وكل أنواع الوحشية" ولهذا لا فائدة من ثورة وتنديد المثقف الفرنسي بالتعذيب لأنه "إذا أراد أن يكون منطقيا ومعقولا فيجب عليه أن يثور ضد الجهاز الاستعماري بأكمله"[13].
هذه نماذج من المقالات العديدة التي كتبها فانون بتوجيه من القيادة في صحيفة المجاهد والموجهة في أغلبها لاكتساب المثقفين واليسار الفرنسي، خاصة وأن هذا اليسار منقسم إلى ثلاث اتجاهات في موقفه تجاه الثورة الجزائرية فالبعض منهم أيد جبهة التحرير الوطني قلبا وقالبا مثل فرنسيس جونسون وما يطلق عليهم بـ"حملة الحقائب" كما أن مجموعة أخرى خاصة التروتسكين كانت تقف إلى جانب المصاليين خصوم FLN المحليين كجاك سيمون، وهناك طرف ثالث متردد إن لم يكن في عمقه مؤمن كما اتهمهم فانون بـ"خرافة الجزائر الفرنسية" [14]. وكانت كتابات فانون موجهة في نظرنا إلى الطرفين الأخيرين خاصة التروتسيكيين لأن "فانون" كان ضد الستالينية — حسب ما يبدو-.

وبحكم هذه الوظيفة لفانون فإننا لا نستبعد تأثيره على مواقف الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر بحكم العلاقة الوطيدة بينهما، ولا ننسى أن سارتر هو الذي وضع مقدمة كتابه

"بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" في طبعته الأولى، وتقول سيمون دي بوفار صديقة سارتر أن فانون كان يطلب منه "أن يقوم بعمل أكبر لفائدة الجزائر، ووصل إلى حد أن طرح عليه فكرة الموت في سبيل قضيتها... وكان فانون يتصور أنه بإمكان سارتر أن يقلب الرأي العام العالمي رأسا على عقب لو أعلن مثلا توقفه عن الكتابة حتى تنتهي حرب الجزائر"[15].

يلاحظ المتتبع لكتابات فانون في المجاهد من أنه لم يكن إلا مجرد بيدق في إطار إستراتيجية عامة للثورة، فكيف يكون بذلك منظرا لها كما يذهب الكثير خاصة وأنه يبدو لنا أن فانون يجهل الكثير من خصوصيات المجتمع الجزائري خاصة طبيعته الإسلامية، وما يدفعنا إلى هذا القول هو أن الثورة خلصت فانون من عقدته تجاه الأبيض الأوروبي لأنه بانخراطه في الثورة استطاع أن ينسى بشرته السوداء التي خلقت لديه عقدة تجاه هذا الأوروبي الأبيض، ويعود هذا النسيان إلى أنه لم يجد ضمن الجزائريين من يذكره ببشرته رغم أن أغلبهم ذو بشرة بيضاء، و لم يستطع فانون أن يدرك سر ذلك حيث أعتقد أنهم يشتركون معه في صفة الشعوب المضطهدة، وغابت عنه أن ذلك من طبيعة المجتمعات الإسلامية التي تقل إن لم نقل تنعدم فيها النظرة العنصرية متأثرين بتربيتهم الإسلامية داخل الأسرة، وكان بإمكان فانون أن يحدث له نفس ما وقع للزنجي الأمريكي مالكوم أكس بعد ذهابه إلى الحج، فسمح له ذلك باكتشاف مبدأ مساواة البشر أمام الله مهما كان لونهم أو لغتهم أو جنسهم فانتقل من عنصرية زنجية ضد البيض في الولايات المتحدة الأمريكية كما كان يدعو إليها إليجيا محمد زعيم أمة الإسلام في أمريكا، وأصبح مالكوم داعية الأخوة بين البشر بما فيهم البيض والزنوج.

ويمكن أن يتساءل البعض لماذا لم ينبه المجاهدون فانون إلى دور الإسلام في ذلك؟. إن طرح السؤال ذاته هو عدم معرفة طبيعة الإنسان الجزائري المسلم الذي لم ينتبه أصلا إلى تلك الزنوجة ولو انتبه فإنه لا داعي لتذكير صاحبها بها، ولو قاموا بذلك لبقي فانون بعقدته التي كان سببها تذكير الأوروبي الأبيض بها يوميا بسلوكاته وأحاديثه وممارساته ولو لا شعوريا كما يقول هو ذاته في كتابه "بشرة سوداء،أقنعة بيضاء"[16].

ويمكن لنا القول أن فانون أخذ من الثورة الجزائرية أكثر من أعطى لها ويظهر ذلك أيضا حتى في إنتاجه الفكري والنظريات التي وضعها كما يتبين لنا من خلال تتبع هذا الإنتاج أثناء الثورة.

2- *الثورة وإنتاجه الفكري:*

أنتج فانون بعد التحاقه بالثورة عملين فكريين كبيرين أولهما "الثورة في عامها الخامس أو سوسيولوجية ثورة" نشره عام 1959 حلل فيه التغيرات الجذرية التي أحدثتها الثورة الجزائرية في الإنسان والمجتمع الجزائري، فتناول قضايا الأسرة والمرأة والحجاب الذي دافع عنه واعتبر التخلي عنه هو تعرية للمجتمع الجزائري نفسه أمام المستعمر، ومما يبرز مدى تأثير الثورة في فانون هو دفاعه المستميت عن ضرورة الحفاظ على ثقافة الأمة وقيمها ويحذر المرأة الجزائرية من مغبة الوقوع في أحابيل الاستعمار فتتبنى قيمه لأن "كل امرأة تنزع حجابها معناه لدى الاستعمار أن نظام دفاع المجتمع الجزائري في طريقه إلى التفكك...وبأن الجزائر بدأت تتنكر لنفسها"[17]. ونلاحظ كيف اكتشف فانون أن الحفاظ على الثقافة الوطنية وقيمها هو سلاح مغال في وجه الاستعمار، وكان قبل سنوات فقط يدعو الشعوب المستعمرة إلى التخلي نهائيا عن ثقافتها وقيمها والاندماج كليا في ثقافة أوروبا إذا أرادت التخلص من عقدها بدل " اللجوء إلى تاريخها وماضيها وثقافتها وأساطيرها لإثبات قوتها وعظمتها اتجاه الأبيض المستعمر " [18].

ويذهب فانون إلى نفس الطرح في كتابه "المعذبون في الأرض" الذي نشره عام 1961 والذي يعتبر أهم إنتاج فكري له على الإطلاق، وقد ألفه عندما كان سفيرا للثورة الجزائرية في كونا كري بغينيا، وقد حاول أن يضع نظريات شاملة للعنف الثوري ضد الاستعمار ثم يكون بموجبه إنجيلا للشعوب المستعمرة كما أطلق عليه البعض، كما يلاحظ الدارس للكتاب أنه مجرد محاولة لتعميم التجربة التحررية الجزائرية التي درسها على كل الحركات التحررية في العالم دون أن يأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل مجتمع، فنجده يتحدث عن دور الريف في الحركات الثورية مركزا على الفلاحين الذين هم "وحدهم الثوريون في البلاد المستعمرة إذ ليس لديهم ما يخسرونه، وأن الفلاح الجائع هو أول من يكتشف أن العنف وحده هو المجدي" [19].

ويتفق فانون مع المنظر الثوري الماركسي هربرت ماركيوز الذي اعتبر طبقة البروليتاريا في أوربا قد أصبحت برجوازية أو ما أسماها بـــ"ذوي الياقات البيضاء" وبالتالي فمن غير المجدي الاعتماد عليها في العمل الثوري[20]. إلا أن فانون عمم ملاحظة ماركيوز إلى الشعوب المستعمرة متجاهلا أن لا وجود لطبقة عاملة في هذه البلدان عموما، ولاحظ أن هناك شريحة أخرى في المدن يمكن الاعتماد عليها وأطلق عليها حثالة البروليتاريا وهم المهمشون في المدينة ذوي الأصول الريفية، ويرى أن "الثورة ستجد رأس رمحها في المدينة لأن حثالة البروليتاريا هؤلاء الجائعين الذين نزلت جذورهم من قبيلتهم وعشيرتهم يشكلون واحدة من القوى أكثر عفوية والأشد ثورية ضد الاستعمار"[21].

ويظهر من أول وهلة للعارف بالثورة الجزائرية أن فانون كان يردد ما لاحظه في التركيبة الاجتماعية للثوار في الجبال والأرياف والمدن، وحاول البعض إبعاد تأثير الثورة الجزائرية على فانون عند تركيزه على الريف والفلاحين وقولهم أنه تأثر في طروحاته بالكاتب الأنتيلي إيمي سيزر الذي حاول البحث عن قيم زنجية لدى الفلاحين في جزر الأنتيل، ويتجاهل هؤلاء أن فانون ذاته قبل التحاقه بالثورة الجزائرية ضد فكرة العودة إلى الماضي وقيمه وثقافته كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك. أما المفكر الماركسي جاك ووديس فإنه حاول الإيحاء أن ماركس قد أشار إلى فكرة حثالة البروليتاريا دون أن يستعمل نفس المصطلح وقد سبق أن حذر منها حيث كتب في كتابه " صراع الطبقات في فرنسا 1848-1850" و"البيان الشيوعي" أين قال أنه بإمكان أن "تكتسحها (أي حثالة البروليتاريا) الثورة البروليتارية هنا وهناك إلى داخل الحركة، إلا أن ظروف حياتها تعدها بدرجة أكبر لدور التآمر الرجعي" وقد أشار ماركس إلى دورهم في ضرب الثورة من داخلها حيث يرفعون شعارات ثورية متطرفة بهدف تحطيم "حزب الطبقة العاملة والحركة العمالية والحركة الثورية عموما" وينفي ماركس عنها البطولة ويرى أنهم قادرون على"أحط لصوصية وأقذرفسادا"[22].

ونشير إلى أن فانون قد حذر من ذلك، ولعله متأثرا بماركس فعلا عندما كتب "إذا لم تقم قوى الثورة على الفور بتنظيم هذا الاحتياطي (أي حثالة البرليتاريا) فسيجد نفسه يقاتل كمرتزقة إلى جانب الاستعمار" [23]، ولعله تأثر بماركس في ذلك .

إن حديثنا عن تأثير الثورة على أفكار فانون ليس معناه أنها المصدر الوحيد لأفكاره بل إن مختلف دراساته ومطالعاته سمحت له بالتأمل في عمق الظواهر التي لاحظنها في الثورة الجزائرية. ولا نكتفي بذلك بل استفاد حتى من تجارب البلدان الإفريقية التي استقلت في أواخر الخمسينات، وذلك عندما حذر من بعض المثقفين ووصفهم بــ"الأطفال المدللون لاستعمار الأمس وحكومات اليوم الوطنية. فيستغلون الأزمة الوطنية كأداة للصعود عن طريق الحيل والسرقة القانونية وألاعيب التصدير والاستيراد " [24]. ونعتقد أيضا أن نفس هذه التجارب الإفريقية كانت وراء تحذيره من الدور الانقلابي للجيش وبروز البيروقراطية وانحراف الحزب الحاكم وتحالف العمال مع البرجوازية ضد الفلاحين وحثالة البروليتاريا[25].

ويبدو لنا أن تفكير فانون لما بعد الاستقلال هو الذي يمكن أن يكون قد ترك أثرا بشكل أو بآخر على بعض قيادات الثورة التي استلمت الحكم بعد الاستقلال مما يدفعنا إلى تناول مختلف هذه التأثيرات.

III- *تأثيراته الفكرية على النخب الحاكمة في الجزائر بعد الاستقلال:*

وقعت النخبة الحاكمة في الجزائر بعد الاستقلال في مأزق إيديولوجي، فمن جهة اعتمدت على الاشتراكية كنظام اقتصادي واجتماعي للبلاد، ويتطلب هذا الاختيار الإيديولوجي على حل معضلة وقعت فيه أغلب الأنظمة الاشتراكية في العالم الإسلامي وتتمثل في فصل الجانب الاقتصادي والاجتماعي للشيوعية عن جانبها العقائدي المتناقض تماما مع العقيدة الإسلامية، فاندفعت هذه الأنظمة إلى استخدام مصطلحات الاشتراكية الإسلامية تارة والاشتراكية العربية تارة أخرى.

وقد وجدت الجزائر الحل في تبني طروحات الفانونية دون الإعلان الرسمي عن ذلك ويتطلب ذلك إعطاء شرعية لطروحات فانون بالقول أنها وليدة خصوصيات الجزائر وثورتها. إن الدارس المتمعن لبرنامج طرابلس عام 1962 يلاحظ فيه بصمات طروحات فانون واضحة كل الوضوح خاصة في طروحاته حول الفلاح والريف الذي يجب أن تعود إليه مكاسب الثورة، ونفس الملاحظة لقضايا الحزب والدولة والتحذير من البيروقراطية والدعوة إلى التمييز

بين الجانب التقدمي للثقافة الوطنية وتصفيتها من الجانب المنحط فيها والتي يستخدمها الاستعمار والرجعية لإبقاء الشعب تحت نير الاستغلال .

ولا يستغرب الباحث من هذا التوافق إذا عرف أن أبرز الذين صاغوا هذه الوثيقة كانوا في احتكاك دائم بفانون عندما كان يعمل إلى جانبهم في الطبعة الفرنسية للمجاهد مثل رضا مالك ومصطفى لشرف، وقد حاول هذا الأخير توجيه انتقادات لفانون وانبهاره بالفلاح والريف[26]. ولا يمكن لنا أن نفصل نقد لشرف لفانون عام 1963 عن ظروف الجزائر آنذاك أين عرفت صراعا حادا بين دعاة الثقافة العربية الإسلامية ودعاة التغريب ومنهم لشرف الذي خشي –حسب ما يبدو– من سيطرة القيم المحافظة التي يمثلها الفلاح عادة، فلهذا السبب نلاحظ تخلي تدريجي لدعاة التغريب عن فانون في الوقت الذي نلاحظ فيه إشادة دعاة الثقافة العربية الإسلامية به ومنهم الميلي ابن أحد قادة العلماء "مبارك الميلي"[27].وذهب بعض هؤلاء الأخيرين إلى حد القول "إذا كان فرانز فانون قد مات مبكرا، فإن فكره الذي هو فكر جبهة التحرير الوطني مازال حيا" [28]. فهذا ليس معناه أنه المنظر الإيديولوجي للثورة في اعتقادنا بل فقط مبالغة في الإشادة بهذا الرجل الذي توفي عشية الاستقلال بمرض السرطان ودفن على الحدود الجزائرية التونسية في جنازة رسمية، وأعطت له ولزوجته الجنسية الجزائرية، واعتبرته الجزائر أحد رموز ثورتها ومثقفيها.

الهوامش:

1- محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

2- يحد أرخبيل الأنتيل بحر الكرايب غربا والمحيط الأطلسي شرقا، وتبعد عن فرنسا 7 آلاف كيلومتر.

3- من الصعب جدا اقناع الكثير من المارتنيكين أنهم غير فرنسيين، وعندما التحق فانون بالثورة الجزائرية اعتبرته أغلبيتهم خائنا للوطن فنبذوه.

Frantz Fanon, Peaux noires, masques blancs, ENAG édition Alger 1993, P20. -4

Ibid, P33-5

Ibid, P117 -6

Ibid, P121.-7

8- الميلي، المرجع السابق، ص 131-132.

Frantz Fanon, Peaux noires, masques blancs, op-cit, P232. -9

10- أنظر في الموضوع على الكثر، معطيات لتحليل الانتلجانيسا في الجزائر، مجلة المستقبل العربي، عدد104.

أكتوبر 1987، ص 61-77.

Frantz Fanon, Les damnés de la terre, ENAG et Alger 1994, P18.-11

El-Moudjahid, N° 1 et 15 et 30 décembre 1957. -12

EL-Moudjahid N° Septembre 1957.-13

EL-Moudjahid N° 15/12/1957.-14

Temps modernes, N° Février 1965, P77.-15

Frantz Fanon, Peaux noires, masques blancs, op-cit, P29. -16

Frantz Fanon, Sociologie d'une révolution (L'an V de la révolution Algérienne), -17
ed. maspéro, Paris 1982, P24.

Frantz Fanon, Peaux noires, masques blancs, op-cit, P123-124. -18

Frantz Fanon, Les damnés de la terre, Op-cit, P31. -19

20- أنظر جاك ووديس، نظريات حديثة حول الثورة : ماركيوز والعالم الغربي، ج 4، تعريب محمد متستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت 1978.

Frantz Fanon, Les damnés de la terre, op-cit P41-42.-21

22- جاك ووديس، نظريات حديثة حول الثورة، ج2، قانون والثورة في إفريقيا، تعريب محمد متستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت 1978 ص 92-95.

Frantz Fanon, Les damnés de la terre, op-cit P109. -23

Ibid, P143. -24

Ibid, P195. -25

Révolution Africaine N° 46(14-12-1963) -26

27-الميلي، المرجع السابق.

28- أنظر محمد العربي الزبيري، المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995، ص 157.

الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام بين عامي 1889 و 1899 من خلال التقارير الرسمية الفرنسية:: تقرير محافظ المدية وتقرير لوسياني

أ/ نادية طرشون (*)

مقدمة :

شهدت نهاية القرن التاسع عشر، هجرة جزائرية جماعية كثيفة كان منطلقها من الجزائر وتونس. وقد أعلمت وزارة الخارجية الفرنسية عنها عن طريق المقيمية العامة الفرنسية بتونس؛ ففي رسالة بعث بها السيد M . MILLET إلى السيدDELCASSE ، وزير الخارجية الفرنسية، يخبره أنه غادر الإيالة خفية يوم 12 أكتوبر 1898 مائتان وسبع وثلاثون جزائريا كانوا قد هاجروا في السابق إلى تونس ، على متن باخرة إنجليزية تدعى LA PRINCE LINE ، وأن الشرطة تمكنت من إيقاف فوج ثاني من مائتي جزائري كانوا يتأهبون لمغادرة الإيالة، وذلك تلبية لتعليمات من السلطات العليا وأضاف السيد MILLET أن المقيمية العامة ستبذل جهدها للحيلولة دون هذه الهجرة ، دون أن يخفي صعوبة المراقبة والتصدي لهذا الإبحار الخفي .

ويلاحظ صاحب الرسالة أنه بسبب ما يتمتع به الجزائريون من امتيازات في تونس، فإن

خاصة وأنهم باعوا كل ما يملكون استعدادا للسفر بما في ذلك الأرض والحيوانات وآلات الحرث وغيرها وإذا أبقينا عليهم في تونس فإنه سرعان ما تنضب مواردهم ويتحولون إلى البؤس الشقاء . كما يمكنني تحويلهم إلى داخل البلاد لانعدام الوسيلة لدي لإجبارهم على ذلك، ولذلك أقترح إما تسريحهم إلى بلاد الشام مثلما يرغبون أو تحويلهم إلى الحدود الجزائرية لتنظر السلطات في أمرهم [1] . وتبعت هذه الأفواج أفواجا أخرى لم تخبر عنها المقيمية العامة في تونس وزارة الخارجية الفرنسية إلى درجة أنه في شهر ديسمبر 1898 كان قد وصل إلى الشام ألفا ومائتا جزائري وتونسي قائلين أنهم خرجوا من بلادهم هروبا من تسلط المستعمر الفرنسي ومن الخدمة العسكرية التي فرضت على التونسيين في هذه الفترة [2] .

وشهدت من جهة أخرى العديد من المدن و القرى الجزائرية كذلك استعدادات للهجرة إلى بلاد الشام . ففي مدينة المدية الواقعة إلى الجنوب من الجزائر العاصمة انهالت طلبات جوازات السفر على مكتب محافظ المدينة ، فرأى ضرورة إجراء تحقيق هذه الحالة من الاضطراب التي سادت المدينة ، والوقوف على الأسباب والدوافع الكامنة وراء هذا الهيجان

تقرير محافظ منطقة المدية 1899 :

وفي تحقيقه الذي وجهه إلى الحاكم العام [3] . قال : " إن أول سبب يدفع الأهالي إلى التخلي عن بلادهم والبحث عن لهم في بلاد أخرى إنما هو تلك الوعود الماكرة التي تتضمنها الرسائل المرسلة من المهاجرين في بلاد الشام إلى أهلهم وأقاربهم إضافة إلى حملات الدعاية والتحريض التي تملأ بها الصحف العثمانية صفحاتها، والتي تدخل إلى الجزائر رغم المنع الصادر بحقها ، وأرى أنه من المستحسن منع هذه الصحف من دخول البلاد ومراقبة المشتركين فيها من الأهالي مراقبة صارمة من طرف شرطة المدينة".

ويورد المحافظ في تحقيقه أسماء بعض الشخصيات من مدينة المدية كانت تصلها الصحف العثمانية مثل المعلومات—البيروتية—ثمرات الفنون—جريدة سالم (كانت تصدر بالإسكندرية) — جريدة الحاضرة (كانت تصدر بتونس). ويلاحظ المحافظ أن كل ما يصدر في هذه الجرائد من معلومات وأخبار ودعاية يصير محل اهتمام الأهالي ومثار لمناقشتهم حتى شاع القول : " أنه بمقتضى الاتفاق المبرم بين الدول الكبرى فإن الحكومة الفرنسية لا يمكنها

التصدي لهجرة الأهالي إلى بلاد الشام. وبالتالي يجب علينا أن نمنع الأهالي من معرفة ما يجري في بلاد المشرق. وقد اعتبر المحافظ أن الأسباب الرئيسية وراء هجرة الأهالي تكمن في الدعاية القادمة من الخرج [4] . أما الأسباب الثانوية، فقد حصرها السيد المحافظ في جملة من الشكاوى تقدم بها الأهالي ومنها المبالغة في الضرائب ، إذ أن الأهالي ليسوا في حقيقة الأمر ملزمين فقط بتسديد الضرائب التي عليهم بل كذلك تسديد الضرائب المفروضة على الخماسين الذين يستخدموهم في مواسم الحصاد. ويحتجون أيضا على أن الإسرائيليون هم دوما أحسن حالا من المسلمين ومثالا على ذلك حصولهم بسهولة على رخص شراء البارود لحماية أنفسهم والذود عن أملاكهم، وهم يقولون من جهة أخرى أن الجزائريين المهاجرين في بلاد الشام يدفعون ضرائب أقل فكثيرا مما كانوا يدفعونه في الجزائر. والحكومة العثمانية تمنح الأراضي مجانا للمهاجرين ، ويضيف المحافظ إلى الأسباب تأسف الكثير من الأهالي لمشروع تهديم الجامع الكبير بالعاصمة ويحتجون على ذلك فيما بينهم ، ويتأسف البعض الآخر من تباطؤ القضاء الفرنسي واستبدال القاضي المسلم بقاضي الصلح. وأكثر شكوى أهالي المدن المختلطة والذين طلبوا جوازات سفر إنما هو خوفهم من الخطر اليهودي في الجزائر ومن المشتكين من جرد بحكم الضرورة من أملاكه من طرف اليهود [5] . وكتب المحافظ أنه علم في آخر لحظة كتابة هذا التقرير ، أن غالبية سكان المدينة والذين تقدموا بطلبات جوازات سفر قد طرحوا للبيع أثاثهم وبيوتهم وأملاكهم و لم يكفوا عن الإعلان أنه سواء سمحت لهم الإدارة بالخروج أم لم تسمح، فإنهم لا محالة سيتركون الأرض الجزائرية من غير رجعة [6] .

يتضح لنا من خلال هذا التقرير كيف أن محافظ مدينة المدية لم يقترح على الإدارة الفرنسية ضرورة إجراء تخفيض في الضرائب المفروضة على الأهالي خاصة الفقراء منهم، ولا التخفيف من حدة قانون الأهالي، وقد اعتبر هذه الأسباب ثانوية وليست هي الأصل وراء هجرة الأهالي. بل اقترح منع الجرائد القادمة من المشرق[7]. وتشديد المراقبة على المهتمين والتفتيش عن المشتركين فيها، كما ألح على الحكومة العامة في الجزائر بالمبادرة إلى تكذيب ادعاءات المهاجرين والصحف العثمانية عن الامتيازات التي تمنح للمهاجرين في البلاد العثمانية وطلب بنشر نداء في الصحف المحلية الرسمية الناطقة باللغة العربية (المبشر).

تقرير لوسياني LUCIANI 1899: [8]

على أثر تكاثر طلب الهجرة على مكاتب الهجرة الفرنسية في منطقة الأصنام في القطاع الغربي للجزائر، تقدم الحاكم العام للجزائر بتكليف السيد لوسياني الموظف في الحكومة العامة لإجراء تحقيق لمعرفة الظروف التي أدت إلى هذا الوضع والوقوف على الشخصيات التي حرضت أو كانت سببا في حالة الهيجان التي تعرفها البلاد، ثم اقتراح الإجراءات الممكن إتباعها عند اللزوم، فكان تقرير لوسياني بذلك من أهم التقارير التي وضعت عن أسباب الهجرة الجزائرية إلى المشرق في نهاية القرن التاسع عشر وعن ظروفها وأهميتها، شمل التحقيق معظم مدن وقرى الوسط ومنطقة الأصنام.

وحسب ما ورد في هذا التقرير فإن نسبة الذين هاجروا إلى بلاد الشام بين عامي 1898و1899 هو نسبة محدودة لا تتعدى الثلاثين شخصا، وهم ينتمون إلى مدينة المدية. وظهر أن الطلبات الأولى للهجرة منذ الأشهر الأولى للسنة تقدم بها بعض الحرفيين والملاكين من مدينة المدية، وتضاعف عدد الطلبات خاصة في شهري جويلية وآب خاصة في بلديات: البرواقية وسور الغزلان وتابلاط. ولكن أواخر أكتوبر وبداية نوفمبر شهد جنونا حقيقيا في رغبة الأهالي للهجرة خاصة من منطقة الأصنام وتنس وتبسة وقسنطينة ومنطقة الجزائر العاصمة. وحسب إحصاء قمت به لمعرفة عدد الطلبات تبين لي أنه لو أجيزت كلها لبلغ عدد المهاجرين سبعة آلاف شخص، وغالبية الذين طلبوا مغادرة البلاد هم بدون موارد تذكر، القليل منهم لهم ملكية أرضهم أما الباقي فهم مستأجرون أو خماسون أو عمال وسارع الكثير من هؤلاء وتنافسوا في بيع ما يملكون من أراضي وآلات وحيوانات ومخزون حبوب وبأبخس الأثمان [9] .

وراح السيد لوسياني يطمئن الحكومة على أن هذه الظاهرة لم تأذ أحدا من المستوطنين ولامست الأمن العام، ولكن رغم ذلك يجب أخذ الأمور بحذر تام نتيجة الهيجان الذي يعم البلاد.والملاحظ أن دور الزوايا كان قليلا إن لم نقل منعدما في هذه المرة على عكس الفترات السابقة والتي لعبت فيها بعض الطرق وخاصة الطريقة الرحمانية دورا هاما في تحريض الناس على الهجرة، أما في هذه الفترة فقد حلت الدعاية الصحفية القادمة من الخارج محل النشاط الطرقي. ومن الأسباب والأماكن العامة والتي تخص التعليمات التي أعطاها

محافظ مدينة الأصنام إلى موظفي الأقاليم حسب أوامر وصلت إليه من الحاكم العام لإخبار الناس أن من يريد الهجرة عليه أن يتوفر فيه الشرطان التاليان :

-أن يكن مستدعا إلى سوريا لسبب عائلي أو القيام بتجارة .

-أن يكوم في حوزته ألف فرنك فرنسي.

وإذ بالمنادين في الأسواق يكتفون بالقول، أن الحكومة وافقت وتوافق على الهجرة وهذا ما يفسر ازدياد الطلبات. ويورد لوسياني بعض شكاوى الأهالي، وثقل الضرائب وغيرها ... إلا أنه يلاحظ، أنه من غير الممكن أن تكون هذه الأوضاع السبب الحقيقي والمباشر للهجرة بل يقرر أن السبب خارجي و ليس داخلي وهو ديني و سياسي في آن واحد" فالمسلمون في الجزائر و كغيرهم من المسلمين ينظرون إلى سلطان اسطانبول نظرهم إلى قائد روحي وقائد سياسي. وكثرت الإشاعات الكاذبة بين الأهالي، فقيل أن باشا تركيا وصل إلى الجزائر لأخذ المهاجرين وأشيع في جهات أخرى أن اتفاقا حصل بين الحكومة الفرنسية واسطانبول لتسهيل هجرة الجزائريين إلى بلاد الشام، وأن سفينتان رستا بميناء الجزائر لأخذ المهاجرين، وأن الإبحار سيكون يوم السادس عشر من نوفمبر[10].

ويعارض لوسياني في تقريره نداءات بعض الفرنسيين الذين يطالبون السلطة الفرنسية برفع حاجز الهجرة والسماح لهم بمغادرة البلاد، بحجة أن هؤلاء المهاجرين سيضطرون إلى العودة إلى بلادهم لأنهم سيتعرفون على حياة البأس والشقاء التي يعيش فيها من سبقوهم. ويطالب لوسياني الحاكم العام بضرورة الإبقاء على رفض منح أي جواز سفر، لأن تجربة التسامح قد طبقت في فترات سابقة وفي عدة مناطق منها وادي الزناتي وأم البواقي سنة 1888 وآزفون في منطقة القبائل سنة 1896 لم ينفع هذا التساهل في شيء، ويعلق لوسياني على ذلك قائلا : " أنه ليس من المؤكد أن كل المهاجرين يفشلون في حياتهم لأننا نعرف أن الحكومة التركية تحسن استقبال المهاجرين وتهتم بتوطينهم، إضافة إلى ما يمكن أن يشيعه هؤلاء المهاجرين عن معاناتهم في بلادهم وبالتالي يكون المهاجر الجزائري عنصرا خطيرا هناك أكثر مما يكونه هنا تحت سيطرتنا".

ومن اقتراحات لوسياني الإيجابية دعوته الحكومة العامة بالجزائر إلى الاهتمام بالثقافة العربية ففي معرض تحليله للوضعية الثقافية مقارنة مع باقي البلاد العربية، توصل إلى أن

الاهتمام بالثقافة العربية في الجزاء ونشر الوعي بين الأهالي قد يحول المسلم الجزائري عن التطلع دوما إلى أخيه المسلم التونسي أو المصري.

وما قالهً: ... إن الجزائر تفتقد إلى المنشورات العربية في الجزائر التي يمكنها التصدي للتحديات الآتية من المشرق. والجزائريون مثلهم مثل أي شعب متعطشون للمعرفة واستطلاع الأخبار وما يجري في باقي البلاد الإسلامية، وبالتالي يلجئون للصحف العربية الصادرة بالمشرق ويتهافتون عليها، وتصلهم كتب حتى من كال كوتا وبومباي، ومنهم توفرت فيه موهبة التأليف فتراه يلجأ إلى دور النشر في مصر وغيرها لطبع مؤلفاته ...ً ومن ملاحظات لوسياني، أن جريدة المبشر الرسمية المكتوبة باللغة العربية قليلة الاهتمام بالمسائل السياسية، أو بأخبار المشرق العربي، والأهالي لا يرضون عن الصحف الفرنسية الأخرى لأنها تهدف إلى خدمة مصالح المعمرين لا غير، لذلك من المفيد والنافع أن نوجد بالجزائر صحيفة عربية لا علاقة لها بصحيفة المبشر وعلى أن يكون للحكومة تدخلا نسبيا فيها مثلما هو جاري مع جريدة الحاضرة التونسية، كما يجب تشجيع الطباعة و النشر لتوفير الكتب العربية داخل البلاد فلا يضطر المسلم الجزائري إلى جلبها من الخارج .

وتقدم السيد لوسياني باقتراحات أخرى تخص إدارة الأهالي انطلاقا من الشكاوي التي

وإذا كنا قد ارتكبنا خطأ كبيرا بمنحنا لرؤساء البلديات الصلاحيات لإدارة مناطق أهلية واسعة وعديدة، فإننا أخطأنا كذلك في التقليل من صلاحيات القضاة المسلمين وتقليصها منذ سنة 1886، وكانت نتيجة ذلك، أن ازدادت شكاوى الأهالي من مصاريف القضاء واللجوء إلى الوسطاء، والكتاب والمحامين والمترجمين، وكل هذه الأمور كانوا في غنى عنها عندما كانت مسؤولية القضاء بيد المسلمين . وقد اعترفت محكمة الجزائر نفسها بهذه السلبية و طالبت بضرورة إجراء تغيير في القانونين الصادرين بتاريخ 17 أبريل عام 1886 وقانون أبريل 1892 .

وقد جرت العادة من جهة أخرى على طلب تسديد الضرائب نقدا رغم التعليمات المتكررة للحاكم العام، وسنخفف على الأهالي كثيرا لو قررنا أن تكون الجباية عينية و أن تؤدى باسم جماعة من دون النظر إلى الأفراد ، وأن تنجز داخل الدوار الذي ينتمي إليه هؤلاء الممولون .ولاحظت من خلال شكاوي الأهالي الذين قابلتهم عن العقوبات التي بهم ، إن موظفي الإدارة يمنحون ثقة عمياء لأقوال بعض النواب والحراس و غالبا ما يعزفون عن سؤال المتهمين والتحقيق معهم ، وبالتالي أرى ضرورة إعطاء تعليمات صارمة لهؤلاء الموظفين ومطالبتهم للتحقيق مع المتهمين ومنح هؤلاء الحق في الدفاع عن أنفسهم، واشتكى الأهالي من عمليات الاعتقال و الحجز التي يتعرضون لها ولأتفه الأسباب [11] . وعلى كل حال فالحجز ليس بالأمر السهل و لا يجب اللجوء إليه إلا في الحالات التي تستدعي حقا ذلك، و من الأمور الأخرى ، أنه جرت العادة بين الأهالي أنهم عندما يحتفل أحدهم بمناسبة زفاف أو ختان أن يدعو أهله و أقاربه ويدفع هؤلاء تبرعات لصاحب الحفلة مساعدة له. تدخلنا نحن في هذه المناسبات بأن فرضنا حقوقا عليها تتراوح بين الخمسة فرنكات والعشرة فرنكات ، و نذهب أحيانا للمطالبة بحق الحارس الذي يقوم بمهمة حراسة الحفلة [12]. وأنا أرى أن هذه الحفلات الشعبية هي نوع من التعاون و التضامن الشعبي بين الأهالي ، و علينا تشجيعه عوض معارضته بفرض الضرائب عليها، وبالتالي يجب إلغاء جباية هذه الحقوق، وكذلك إلغاء واجب التزود بتصاريح لهذه الحفلات[13] .

ومن هنا يمكن القول، أن تحقيق لوسياني كان وافيا، جمع بين أسباب الهجرة وظروفها وعرض بالتفصيل لشكاوى الأهالي المسلمين وتقدم بجملة من الاقتراحات لتحسين وضعية

هؤلاء و حسن إدارتهم ، ولكنها ستبقى كلها حبرا على ورق و دليل ذلك أن الهجرة بعد أن تشهد توقفا مؤقتا ستعود للظهور وبكثافة كبيرة سنة 1910-1911 .

ونلاحظ من جهة أخرى أن أشد ما كان يزعج الإدارة الفرنسية في الجزائر من أمر الهجرة هو رفض هؤلاء المهاجرين لأية صلة أو مصلحة تربطهم بفرنسا وممثليها في بلاد المشرق. فبمجرد وصولهم كانوا يطلبون الحصول على الهوية العثمانية ، خاصة أن السلطات العثمانية كانت تضع استثناءات للمهاجرين فتعفيهم من الخدمة العسكرية ومن أداء الضرائب لمدد معينة حتى يسهل عليهم بناء حياتهم الجديدة . وقد أبدى الفرنسيون قلقهم من الأخبار التي يروجها الأهالي بالمشرق ، عن المظالم التي يعانونها في بلادهم والضغوط الممارسة عليهم إلى درجة منعهم من أداء فريضة الحج لسنوات متتالية .

أمام هذا الوضع ، لم يعد للفرنسيين من حل لإيقاف الهجرة ، سوى التوقف عن منح جوازات السفر وتشديد الرقابة على الحدود من تونس وليبيا والمغرب، ولكنها رغم ذلك اعترفت بعجزها للتصدي للهجرة الخفية التي تحدث يوميا ، وما كان منها إلا الإعلان أن كل من يغادر الجزائر عليه أن يقطع صلته نهائيا بها ولا يفكر في العودة إليها .

وقامت بحملة دعائية في الصحافة الفرنسية لدعوة الأهالي للبقاء في بلادهم ونشرت في صحيفة المبشر، نداء لتوضيح الأمور أمام الناس ، اعترف فيه الحاكم العام LAFERRIERE أن ثمانمائة جزائري غادروا البلاد مع عائلاتهم إلى دمشق راجين أن يكون عيشهم هناك أرغد منه في بلادهم ، وإذا بهم أصبحوا ثمة في أسوء حال وأشد جوع ، بحيث صاروا يطالبون من الحكومة الفرنسية بإلحاح أن تردهم إلى مسقط رؤوسهم في الجزائر ، وقد أحزنني جدا أحوالهم السيئة ورأيت من النافع أن أطلع عليها سائر إخوانهم المسلمين هذا ولكون دولة فرنسا لم تزل محافظة على إبقاء جميع رعاياها تحت جناحها مع اعتناءها بمصالحهم واهتمامها بأمورهم ، فإنني أحث ذوي العقول السليمة من مسلمي الجزائر والممتازين منهم بالصدق .. حثا أكيدا على الاعتبار بما داهم إخوانهم المهاجرين ، وعلى التأمل فيما أتضح للعيان من سوء حالتهم حتى يحترزوا من الهلاك الذي يسعى إلى جرهم إليه رجال من أهل الفساد، دأبهم تشويش الأفكار وإيقاد نيران الاضطراب وكذلك الأخبار الكاذبة الواردة من بعض المصادر من الجزائر . بالجملة يجب على مسلمي القطر الجزائري

على أن لا يصدقوا ما يخدعون به من الوعود الباطلة كي لا يبيعوا أراضيهم ومواشيهم بثمن بخس لأجل الهجرة إلى الديار الشامية ، وإلا فإنهم سيقعون في ذل كبير وفقر خطير ، وإنني على يقين بأن تحذيري هذا يصادف أذانا صاغية من أهالي الجزائر ، لأن ما يقاسيه إخوانهم في الشام كفى به واعظا لهم حتى لا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة وإنما يبقون في وطنهم آمنين شاكرين فضل الجمهورية الفرنسية التي منعتهم من الوقوع في الأخطار والمهالك بإطلاعهم على خبر صحيح مناقض لما وصل إليهم من الأنباء المفترية ..." [14].

وجاءت نهاية القرن التاسع عشر من دون أن تتمكن الإدارة الفرنسية في الجزائر من وضع حد لهجرة الأهالي ، هذه الهجرة التي ظهرت منذ السنوات الأولى للاحتلال وما أنفكت تشتد حتى سنة 1899 ، وقد حاول القناصلة الفرنسيون في بلاد الشام إعطاء أرقام تقريبية لعدد الجزائريين المتواجدين فيها ، فقدر القنصل روسو ROUSSEAU العدد في دمشق وضواحيها إلى سنة 1867 بين (1000-1200) . في حين قرر القنصل GILBERT أن عدد الجزائريين بلغ إلى سنة 1883حوالي 4000 رجل [15] . وبالتالي يكون الرقم قد فاق الأربعة آلاف بكثير إلى سنة 1899 مع اشتداد موجات الهجرة في التسعينيات من القرن التاسع عشر.

الهوامش :

1 - A.O.M. 9 H 102. Emigration au Proche-Orient 1880-1898
Lettre de Millet à Delcasse. Tunis 24 Oct. 1898.

ووافق الحاكم العام بالجزائر على اقتراح المقيم بتونس لإخلاء سبيل أولئك الجزائريين و السماح لهم بالإبحار إلى سورية . و ابلغ الخارجية الفرنسية ببرقية بتاريخ 8 نوفمبر 1898 .

2- A.O.M. 9H 103. RAPPORT LUCIANI.

لن يخضع المسلمون في الجزائر إلى الخدمة الإلزامية إلا سنة 1909 وما بعدها عندما تضطر الظروف الدولية فرنسا إلى تجنيد الشباب المسلمين من الجزائريين ، وسيحمل هذا الإجراء المئات من أهالي المدن و القرى إلى الهجرة إلى بلاد الشام سنة 1910-1911.

3- يقول المحافظ في مقدمة تقريره أنه اعتمد على في كتابته على معلومات جمعها من بعض شخصيات المدينة والذين اجتمع بهم وطلب منهم ممارسة ضغوط على الذين يرغبون في الهجرة .

4- يقول المحافظ أن صحفا مثل المعلومات والحاضرة كانت قد منعت أثناء الحرب التركية اليونانية وقد رفع عنها قرار المنع منذ أن توقفت الحرب .

5- ويذهب في تقريره إلى التأكيد أن أهم دافع للأهالي للهجرة إنما هو طمعهم في تكوين ثروة في الخارج.

A.O.M / 9H 102 . RAPPORT EMIGRATION EN SYRIE DU SOUS – PREFET -6 DE MEDEA A..M LE PREFET D' ALGER. MEDEA 22-07-99.

7- جاء في ملاحظة كتبت على هامش التقرير، وقد يكون كاتبها محافظ الجزائر، الذي وجه إليه التقرير . أنه كيف يمكن لمحافظ المدية أن يجهز أن الحاضرة التي يطلب منعها يتم تحريرها ونشرها برعاية المقيمة العامة الفرنسية في تونس .

A.O.M. 9H 103. RAPPORT LUCIANI. ALGER 4 / 12/ 1899 -8 A .M LE GOUVERNEUR GENERAL.

9- ويذكر أن ثمن رأس الماعز وصل إلى واحد ونصف فرنك وبيع رأس الغنم بثلاث فرنكات و لم يكن التهافت على السفر هو السبب الوحيد وراء هذا الرفض بل أدت إليه كذلك الظروف الطبيعية الصعبة مثل الجفاف الذي يعم مناطق الغرب و انعدام المراعي إضافة إلى الوباء الذي ألحق أضرارا بالغة بقطعان الماشية .

10- وأرفق لوسياني تقريره بقائمة لأسماء بعض الكتاب العموميين الذين لعبوا دورا في التحريض على الهجرة و دعوة الناس إلى بيع ممتلكاتهم و الالتحاق بإخوانهم في بلاد الشام.
وقد استفاد هؤلاء الكتاب كثيرا من خلال كتابة طلبات الهجرة الموجهة إلى السلطات المحلية وكانوا يتقاضون أجورا تصل إلى خمس فرنكات للفرد الواحد .

11- من القوانين التي عرفت تطبيقا تعسفيا وجائرا تجاه الأهالي نجد قانون الأهالي وقانون الغابات والكثير من الفرنسيين يقولون أن هذه التطبيقات التعسفية لا ترجع إلى القانون في حد ذاته وإنما مردها إلى الموظفين والنواب الذين منحتهم هذه القوانين صلاحيات واسعة .

12- في حالة الزواج مثلا يدفع للقاضي ستة فرنكات خمسة للعقد وفرنك للترجمة ثم يدفعون عشرة فرنكات لصندوق البلدية إضافة \إلى خمسة فرنكات للحارس .

RAPPORT LUCIANI -13 وطالب لوسياني في خاتمة تقريره بضرورة تقديم المساعدة العاجلة للأهالي خاصة في منطقة الشلف التي يبدو أنها ستشهد جفافا هذا العام .

A.O.M. EL MOUBACHER./ nov.1899 -14
كتب النداء في الجريدة باللغة الفرنسية وطبعت نسخا مكبرة باللغة العربية لنشرها بين الأهالي . وجاء في رأس المنشور كلمة إعلام مهم وختم بعبارة الوالي العام على الجزائر .LAFERRIERE

P.BARDIN. ALGERIENS ET TUNISIENS DANS L EMPIRE OTTOMAN- 15 1848 -1914. CNRS.PARIS 1979 .P .8.

تاريخ الجزائر الثقافي من خلال المخطوطات :
زاوية الهامل نموذجا

أ / محمد صاحبي (*)

إنه لمن نافلة القول اليوم بأن ما خلّفه التراث العربي الإسلامي من إنتاج علمي وفكري وديني يعد أعظم ما خلفته البشرية، ولا تكمن عــظمته في قضاياه و إشكالياته فحسب ، بل أيضا فيما هو مخزن منه من مخطوطات في مكتبات العالم الغربي والإسلامي على حد سواء . وإنّ ما يعرف منه لحد الساعة ، لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من مجموع ما أنتج خلال أربعة عشر قرنا من الزمن .

فيكفي اليوم إلقاء نظرة متأنية فيما سجّلته الفهارس والبيبليوغرافيا القديمة منها والحديثة : كالفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، ومفتاح السعادة لطاش كبري زادة، أو "عنوان الدراية " للغبريني أو ما أنجزه المستشرقون في هذا الصدد من أمثال بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، أو فيكتور شوفين chauvin [1] للخروج بفكرة واضحة عن التقصير الذي لا يلام عليه غير الباحثين المسلمين والعرب منهم على وجه الخصوص. أما إذا كان الأمر يتعلق بما أنجزه علماء المغرب الإسلامي و إفريقية ، إلى غاية اجتياح جيوش الاحتلال الأجنبية ، فالخسارة أفدح وأنكر، لأن الظلم الذي وقع على هذا التراث المخطوط مضاعف: غياب شبه كلي وتجاهل عربي عام، ثم عدم الحرص من طرف الباحثين المحليين على التنقيب عنه وتحقيق ما يمكن أن يلقي الضوء على جوانب هامة من الحياة الثقافية والعقلية للمنطقة

(*) أستاذ التراث العربي الإسلامي بقسم علم المكتبات والعلوم الوثائقية وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

بأسرها. فما هو مسجّل في " نيل الابتهاج " لأحمد بابا التنبكتي أو "عنوان الدارية" للغبريني وغيرهما، لا يؤكد وحسب على العدد الضخم مما خطّ في شتى مجالات العلوم والفنون بل أيضا على عدم الاهتمام واللامبالاة، وكأن بالأمر شيئا معيبا.

لقد عرفت الجزائر مثلها في ذلك مثل بقية الأقطار الإسلامية الأخرى، حيوية كبيرة في مجال الكتب والمكتبات، وهذا بشهادة ضباط الاحتلال الفرنسي أنفسهم، حينما ذُهلوا أمام العدد الكبير للمكتبات المنتشرة في أرجاء كل القطر، وذلك على الرغم مما اتسم به الحكم

الأبد، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانيا، خلا مؤلفاتهم، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد ..."[5]

وتروى المصادر العربية ما تكبّدته الثقافة العربية الإسلامية من خسائر نتيجة لهذا الدمار الذي لحق بالكتاب العربي حكايات لا يصدقها عقل و لا يستسيغها ضمير. فقد روى " التمغروطي " في " النفحة المسكية " في أواخر القرن العاشر الهجري (16م) عن تأثير هذه الهجرة في انتشار الكتب و المكتبات بالجزائر " إن مدينة الجزائر كانت كثيرة الكتب و أن لا يضاهيها بلد في ذلك من بلدان إفريقيا ، و لا سيما كتب الأندلس ..."[6]

مصادر الكتب بالجزائر قبل الإحتلال الفرنسي :

تشير بعض المصادر التاريخية الفرنسية، عن وثائق حررها كتّاب جيش الاحتلال، ومقالات مبثوثة بالدوريات التاريخية –الجغرافية مثل " المجلة الإفريقية " و"ليبيكا " ،إن ما تمّ جمعه من مخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية و زواياها وشوارعها، غداة الاحتلال، لا يعدّ ولا يحصى، وليس ذلك وحسب، بل اندهش هؤلاء الكتّاب أمام تنوّعها وجمال تجليدها ؛ فقد اعترف البارون دي سلان الذي كتب تقريرا عن المكتبات بقسنطينة أن بعض المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة، وأن في هذه المخطوطات نوادر تعتبر فذّة في موضوعها، وضرب على ذلك مثالا بمكتبة " عائلة الفكّون" الذي قال عنها أيضا شارل فيرو : أنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط بل حتى بالكتب المتعقلة بالبلاد الإسلامية المجاورة [7] .

أما عن مصادرها إجمالا، فيمكن تلخيصها في النقاط التالية :

– وتمثل عنصرا مُهمّا – سبق الإشارة إليه – وهو هجرة أهالي الأندلس نحو المغرب الإسلامي وخاصة بعد سقوط غرناطة .

– الإنتاج المحلي ، مادة و علما ،حيث اشتهر العديد في ذلك ...

– انتقالها عبر الحجيج والعلماء ، من مصر والحجاز ، فقد روى الجبرتي في "عجائب الآثار " أن والده قد ذكر له أنه ورد عليهم في مصر سنة 1196، بعض الحجاج الجزائريين وسألوه عن كتب يشترونها، من بينها " زيج الراصد " للسّمرقندي الذي كانت لديه نسخة منه "

وحاول الحاج الجزائري إغراء الشيخ الجبرتي بشراء نسخة منه، ولكن الجبرتي أبى أن يسمح في نسخته العزيزة عليه. و بعد أن أدّى الرجل الجزائري فريضة الحج عاد إلى مصر وحضر لدى الشيخ الجبرتي رزمة كبيرة من الكتب من بينها نسخة من الزيج المذكور (...) إن مثل هذه الكتب لا توجد حتى في "خزائن الملوك ..."[8] .

– أما تركيا واستانبول تحديدا ،فقد كانت من المدن التي كان علماء الجزائر يقتنون منها كتبهم، وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى مصر ، وذلك بحكم العلاقة الخاصة التي كانت تربط الجزائر بهذين البلدين ..

– الاستنساخ: وكان هذا الأمر من الشيوع بمكان في الجزائر و غيرها من البلدان الإسلامية بحيث كان الحريصون على جمع الكتب ، ينسخون الكتب بأنفسهم ، أو يستنسخون غيرهم إما لندرتها بالنسبة للميسورين أو لعدم توفر الطاقة للحصول عليها بالنسبة للعلماء ..

ولقد شاعت هذه الحركة ، حتى أنه كانت لها أسواق رائجة ، واختصاصيون مشهورون : كان من بينهم: أبو عبد الله القطار الذي نسخ عددا من المخطوطات المتواجدة الآن بباريس، أو بمكتبة الجزائر العاصمة.

– وقف عدد مهمّ من المخطوطات على الجوامع و المساجد و الزوايا ، سواء من طرف العلماء (وكانت هذه المسألة من العادات التي درج عليها علماء و أمراء الإسلام) أو من طرف العوام من الناس الذين كانوا يقومون بشراء الكتب ووقفها ، معتبرين ذلك من الصدقات أو تقربا من الأولياء الصالحين الذين كانوا يُدفنون في بعض المساجد..

مصير هذه المخطوطات .

تتجه غالبية المصادر بشأن مصير هذه المخطوطات إلى الإقرار بأن أغلبها تلف أو أحرق أو هُرّب، سواء خلال الحروب و الصراعات في فترة القلاقل و الثورات التي شهدتها الجزائر والمغرب الإسلامي عامة ، أو فترة النّهب المنظّم إبّان وغداة الاحتلال الفرنسي للجزائر. وما تبقى منه تمّ "تهريبه" للمحافظة عليه نحو الزوايا والمقامات بالجنوب الجزائري، أو عند الأشخاص المنتمين إلى الزوايا(الطرق الصوفية) في الشمال.

فعندما تعرضت مدينة الجزائر مثلا ،إلى القصف من قبل أسطول إحدى الدول الأوروبية، اضطر بعضهم إلى نقل مكتبة الجامع الكبير إلى قلعة مولاي حسن، وكان النقل يتم بواسطة الجمال لمدة ثلاثة أيام، وكانت الكتب تُنقل في الغراير. ولاشك أن نقلها على هذا النحو-أبو القاسم قد أضرّ بالكتب ، كما أنه أدّى إلى تفريقها بين الأيدي أيضا.

كما أوصى بعض أصحاب هذه المخطوطات بحمل مكتباتهم بعد وفاتهم إلى خارج الجزائر كالمدينة المنورة. فقد حكى العيّاشي في رحلته : إن الشيخ محمد بن اسماعيل بتكوران بأعماق الصحراء، قد أوصى أن تُحمل مكتبته إلى الرّوضة النبوية مع جثمانه وأوصى كذلك بثلاثمائة دينار إلى من يُنفذ ذلك ، ولكن المكتبة قد عانت في الطريق قبل أن تصل إلى المدينة المنوّرة. فلم يصل من مجموع ألف وخمسمائة مجلد سوى مائة و سبعين كتابا[9].

كما أوصى الثعالبي تلامذته بضرورة تهريب كتبه نحو الجنوب مخافة أن تقع في أيدي الكفّار.

لقد عرفت الجزائر برُمتها أحداثا مماثلة طيلة تلك الفترة، الأمر الذي أدّى إلى انتقال كتب نادرة بأعداد ضخمة نحو مصر والمغرب وسوريا على سبيل المثال، ولا تزال بعض هذه المجلدات لحد الآن تحمل أختام أصحابها أو أسمائهم أو أسماء نسّاخيها الجزائريين، كما هو الشأن بالنسبة لعدد لا بأس به من مقتنَيات زاوية الهامل (بوسعادة) في مكتبة " فاس " المغربية ، أو كتب المفتي ابن العنابي التي نُفيت معه من العاصمة نحو القاهرة ، والتي لا تزال هي الأخرى تحمل ختمه .

- مخطوطات زوايا الجنوب : الهامل نموذجا :

لا شك أن علاقة الجزائري بالمخطوطات- شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين الذين تعرّضوا إلى محن التشريد والاحتلال - علاقة تاريخية و عاطفية أيضا . لذلك اعتمد بعضهم للحفاظ عليها طريق مواراتها عن الأعين، سواء في مكتباتهم الخاصة " العائلية " أو التابعة للزوايا.وقد كان هذا الأمر على "سلبيته " سببا جوهريا في استمرار وجود البعض من هذه المخطوطات إلى حدّ اليوم.

ويمكن رصد هذه الأماكن – البعيدة عن الغارات و التهريب المنظّم– في كل المناطق الداخلية من الجزائر ، مثل تمنطيط ، والأغواط وأدرار و بني عباس وورقلة والهامل ببوسعادة؛ إذ لم يستطع الاستعمار الفرنسي مثلا من بسط نفوذه على كل التراب الجزائري أو معظمه إلا مع مشارف القرن العشرين .

أما بالنسبة إلى زاوية "الهامل" – موضوع حديثنا– فهي متواجدة بقرية الهامل ذاتها والّتي لا تبعد عن مدينة بوسعادة إلا ببضع كيلومترات، و يعتبرها الكُتّاب والرحّالة والفنانون من أمثال " إزابيل إيبهارت" و" نصر الدين ديني " [10] بوّابة الصحراء الساحرة، التي أشعلت في مخيال المغامرين والشعراء الغربيين جذوة التحليق في سحر الشرق لاكتشاف خباياه. هذا السحر الذي لم يستطع الغرب الاستعماري حجبه عن الأنظار والنفوس .

تقع قرية الهامل على قمة جبل عمران الشامخة ،المتشكّل من سلسلة جبلية ، لها تاريخ مع الثورة التحريرية، وتعرف بالمنطقة باسم جبل امساعد.

لقد اشتهرت هذه القرية الصغيرة وذاع صيتها مع تأسيس " مقام الهامل "الديني ، الصوفي "خلال القرن السادس الهجري، حوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، على يد " سيدي عبد الرحمن بن أيوب، وعمه سيدي أحمد بن عبدءالرحيم بن عبد الله بن سيدي بوزيد، دفين جبل راشد قرب آفلو بالأغواط، وكان الغرض من تأسيس هذا المقام هو نشر تعاليم الدين الإسلامي وسط أهالي المنطقة التي كانت فيما يبدو بعيدة عن المراكز العلمية والثقافية.

أما تأسيس الزواية التعليمية ، فكان على يد الشيخ محمد بن بلقاسم ، سليل سيدي بوزيد خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

يقول عنه الشيخ الحفناوي صاحب كتاب" تعريف الخلف برجال السلف "، الذي يُعتبره هو ذاته أحد تلامذة زاويته، وابن المنطقة "هو مالكي المذهب ، أشعري الاعتقاد، رحماني الطريقة ، هاملي المسكن ، جزائري الإقليم ..."[11] بدايته بالتدريس والاهتمام " بعلميّ الشريعة و الحقيقة " كانت في سنة 1265 هـــ 1844 م و كان " يحضُر درسه في الفقه نحو ثمانين تلميذا أو أكثر " من مختلف مناطق الجزائر، وكان الوحيد ضمن مشايخ الزوايا ، الذي أشرك شيوخا آخرين في تدريس علوم الفقه ، والحديث و ما إلى ذلك من علوم تقليدية.

وابتكر طريقة في التدريس عرفت ب"الطبقات "، حيث يتشكّل التلامذة من طبقات ، كل طبقة تعلّم ما دونها من طبقات في العلم .

اشتهر من هؤلاء : الشيخ محمد بن عبد الرحمن الدّيسي، والشيخ محمد المازاري الدّيسي الفقيه المعروف، والشيخ أبو القاسم الدّيسي المعروف بابن عروسة والشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي صاحب" تعريف الخلف"[12].

أما عن جهاد الشيخ محمد بن بلقاسم الهاملي ، ومن ثمة تأسيسه للزاوية – المعهد، فتقول روايات تداولتها الألسنة في زاوية الهامل وغيرها، و سجّلها بعض مؤرخي المنطقة أن الشيخ لما سمع بقدوم الأمير عبد القادر إلى المنطقة تاقت نفسه إلى الجهاد ، فسرحّ تلامذته و عزم على الالتحاق بصفوف المجاهدين، غير أن الأمير عبد القادر أرجعه إلى حيث كان، معتبرا تلقين الناس تعاليم الدين الحنيف و نشر العربية جهادا ما بعده جهاد. وكانت هذه الإلتفاتة بمثابة إذن لتوسيع نطاق التعليم بالزاوية ، وميقاتا لتأسيس الزاوية –المعهد فعليا.

لقد عاصر مؤسس الزواية أحداث الجزائر ، بكل تفاصيلها، بحيث تعرّف على شخصياتها. وساهمت دروسه في إشراك أهالي المنطقة في الثورة على الاحتلال، سواء بخوض المعارك في جيش الأمير أو بالجهاد جنبا إلى جنب مع ثوّار الزعاطشة. كما تربط شيخ الزواية بمنطقة القبائل وشائج المصاهرة بآل المقراني، والتي تتضح الآن من خلال مواسم زيارة الوفود " القبائلية " كل عام ،احتفاء بالزاوية من جهة و إجلالا لكرامته و ضيافته لآل المقراني وآل الحداد بعد ثورة 1871.

ومع اتساع عدد الوافدين إلى الزاوية، من طلبة و شيوخ ، اتسعت رقعة الاهتمام بالكتاب المخطوط فتكوّنت مع مرور الأيام مكتبة مرجعية ، من الجزائر و تونس والمغرب والمشرق العربي عموما .

تقع الآن ، مكتبة الزواية في الطابق العلوي من المبنى المخصّص للضيوف والمريدين، الذي يطلّ على قرية الهامل ببساتينها، وكأنه منارة تضيء بقناديلها ظلمة عابري السبيل وطلاب العلم. و كانت قاعة المكتبة في السابق تشغل وظيفة أخرى، تتمثل في قاعة استقبال الزائرين ورؤساء الوفود القادمين من خارج المنطقة ،ثم تحوّلت مع مرور الأيام إلى قاعة عرض لما تركه مشايخ الزواية من آثار وأثاث، بالإضافة إلى بعض مقتنيات بعض الشخصيات التاريخية

المهمّة من أمثال الأمير عبد القادر، الذي أهدى للشيخ بعض الأسلحة، ومنها بندقيته الفارعة الطول .

غير أنه وبعد ارتسام ملامح مشروع إعادة إحياء الزواية –المعهد ، بادر مسيّرو الزاوية في تهيئة هذه القاعة لتصبح مكتبة تحوي ما استطاع مشايخ الزواية ،المتعاقبين على إدارتها، جمعه واقتناءه على مرّ الزمن .

ومن محاسن الصّدف، أن تكون كنوز هذه المكتبة لا تتضمن المخطوطات والمطبوعات النادرة وحسب، بل تتضمن أيضا وثائق تاريخية سياسية و إدارية باللّغتين، العربية والفرنسية، تعود بعضها إلى عصور مضت، يعي المسؤولون عنها ، بأهميتها الثقافية و العلمية والسياسية و بما يُمكن أن تكشف عنه من حقائق حول تاريخ المنطقة الثقافي و السياسي .

ويمكن في هذا الصدد حصر هذه الوثائق في الاتجاهات التالية :

– مراسلات مع الأمير عبد القادر من دمشق .

– رسائل الشيخ مكّي بن عزوز مفتي الأستانة بتركيا ، ومجموعة من الوثائق الأخرى تصل إلى حدود ستين وثيقة ، هي عبارة عن رسائل من آل أبي داوود وزاويته " بأقبو " بمنطقة زواوة بالقبائل، وعدد مماثل من هذه الوثائق من زوايا الرحمانية الأخرى في القطر الجزائري .

– رسائل من القيادة والسلطات و الشخصيات الفرنسية ، وهي في أغلبها إدارية .

– رسائل تقارب المائة من تركيا – تونس – الحجاز و الجزائر و هي في أغلبها إخوانية .

– ثم تأتي الرسائل ذات الطابع الرسمي ، و الخاصة بالإجازات و الفتاوى و ما إلى ذلك..

و لم يجد مشايخ الزواية مكانا تُحفظ فيه هذه الوثائق ، أفضل من المخطوطات المجلدة ذاتها : إذ من خلال هذا العمل – ربما غير المقصود –تمكّنت من مقارعة صروف الدّهور والضياع والسرقة، ولولا ذلك لتفرّقت بين الأيدي واختفت إلى الأبد . و ما دامت هذه الوثائق غير مفهرسة شأنها في ذلك شأن المخطوطات – أو في الطريق إلى ذلك– فلا حاجة للقول بأنه لا يمكن الاستفادة منها كلّيا الآن.

- *المخطوطات[4]: رؤية تقنية .*

تدخل المخطوطات ضمن النمط العام للوثائق النصية المخطوطة ، التي تتكون من الوثائق المذكورة سابقا و المخطوطات .. فهي كغيرها من الوثائق الأخرى وعاء للمعلومات لكنها غير قابلة للتلف بالمفهوم الأرشيفي للكلمة ، بحيث كلّما أوغلت في القدم زادت قيمتها المعنوية و المادية .و لعلّ هذا الأمر هو الّذي سبّب تهافت جمّاعي المخطوطات إلى اقتنائها و الظفر بها.و هو الأمر أيضا الذي حدا بالمشرفين على مكتبة الزواية إلى الاحتراز والخوف عليها من الطمع والسرقة .

إن ما يسترعي انتباه من تقع عيناه على مخطوطات هذه الزواية المقدرة بحوالي ألف وخمسمائة، هو أنها تتّسم في مجملها بحالة جيّدة ، على الرّغم من قدم بعضها، الذي يصل تاريخ نسخها إلى خمسة قرون ، كما هو الشأن بالنسبة إلى أحد المصاحف، كبير الحجم ، المُتقن النّسخ بخط مغربي و المزين بزخرفة زاهية الألوان ..أما ورقه فهو من النوع الصقيل ، الراقي ، الذي لا يستخدمه إلا من كان ميسور الحال أو على " رأسه تاج " .و في ذلك إشارة واضحة لما استطاع مشايخ الزواية أن يبذلوه من مجهود معتبر لاقتناء بعض مخطوطاتهم. بل إن المجهود في عملية الاقتناء والنّسخ وتجشّم الصّعاب من أجل ذلك، لمثير الدهشة والإعجاب حقا ،وخاصة عند ما ندرك أن الوضع المادي للمشرفين على الزاوية من مشايخ ومريدين،متوسط الحال ، وما تتميّز به المنطقة من تضاريس ومناخ لا يسهم كثيرا في جلب المساهمات والإعانات .

لقد تخصّصت زاوية الهامل على ما يبدو دون الزوايا الأخرى ، في ابتكار تقنية فريدة من نوعها، للحفاظ على المخطوطات من التلف ، بصنع عُلب جلدية للحفاظ على المجلدات ذاتها: مصنوعة من أجود الجلود وبحجم المجلد أو أكثر؛ وكان يقوم بتصنيعها مجموعة من الحرفيين المَهرَة - بالإضافة إلى تجليد المخطوطات ذاتها - ينتسبون إلى عرش من عروش المنطقة، ذائع الصيت في هذه الحرفة هو عرش "السوامع" .غير أن ما حصل من تطوّر في عالم المطبوعات حال دون انتشار حرفة التجليد والتعليب هذه، والتي لا تزال تدر على أصحابها في المشرق العربي خيرا كثيرا ؛ فاتجهوا إلى صناعة أخرى لا تخرج عن مادة الجلود، هي صناعة السروج وما إلى ذلك من أصناف تدخل في عالم الخيل والخيالة .

مصادرها :

يكاد مصدر المخطوطات المتواجدة بمكتبة الزاوية ، ينحصر فيما هو معروف في هذا المجال في عملية الاقتناء والاستنساخ .فأما الاقتناء أو الشراء فكان يتمّ من خلال تكليف الحجّاج إلى البقاع المقدسة بالحجاز بهذه المهمة؛ أو بإرسال بعضهم إلى الشام أو مصر، إما لشراء ما تجود به أسواق العلم بهما أو للقيام باستنساخ ما يصعب الحصول عليه شراء .وقد كانت هذه الوسيلة ضمن التقاليد المعروفة والراسخة عند العلماء والمثقفين الجزائريين بشكل عام.

و لم يختلف مشايخ الزاوية في هذا الأمر عن سابقيهم من علماء ومحبّي الكتب في الحضارة الإسلامية بحيث كانوا مثلهم مثل غيرهم، يقومون بإرسال الناسخين نحو مراكز تواجد المخطوطات بالمشرق كما بالمغرب من أجل استنساخ عدد من المخطوطات. وبهاتين الوسيلتين ووسائل أخرى، مثل تبادل الهدايا والوقف، تجمّع لدى مكتبة المشايخ عدد هائل منها، منه ما هو مطبوع ومنه ما هو منسوخ أو مخطوط ينتظر من ينفض عنه غبار النسيان.

ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية ، أي وضع هذا الكتر في متناول الباحثين والمهتمين، بادر الشيخ "دحية بولنوار "[13] إلى طريقة عمل أقل ما يقال عنها أنها تتسم بالمنهجية العلمية، والطموح ،وهو الأمر الذي تسير وفقه أيضا الإستراتيجية المخطط لها، والتي من أهدافها بناء مكتبة حديثة، تشمل بالإضافة إلى المخطوطات والوثائق كل ما هو مطبوع في مجالات الفقه، والسيرة والحديث والفنون الإسلامية الأخرى، لتكون رافدا مُهمّا للمشروع الكبير، المتمثل في إعادة إحياء دور الزاوية التعليمي ، وذلك بتأسيس مركز إسلامي علمي يشع بنوره على المنطقة بأكملها.

وتتضمن طريقة العمل المتبعة، من أجل إرساء لبنات المكتبة الحديثة، في عملية الفرز والتصنيف و الترتيب ،خطوتين اثنتين هما :

1- محاولة الوصول إلى وضع بطاقة مخطوط شاملة (بطاقة فهرسية) يُراعى فيها مجال التعرّف على كل بيانات المخطوط من حجم و مسطرة (عدد الأسطر) و نوعية الورق و الجلد اللذين يصنعان المخطوط و ما إلى ذلك .

2- فهرسة المخطوطات والوثائق انطلاقا من المعايير العلمية المعروفة في ميدان المخطوطات والوثائق. ولا يخفى على مسيّري هذه المؤسسة الإعلامية (باعتبار أن كل مكتبة هي مؤسسة ذات وظيفة إعلامية) أنه لا يمكن للمشـــتغل في حقل المخطوطات القيام بعمله على أكمل وجه إلا إذا تظافرت شروط علمية وتقنية و ثقافية هامة. و من أجل ذلك عمدوا إلى البحث والتنقيب عن الوسائل المنهجية الكفيلة بحل هذا الإشكال .

ومن هذه الشروط مثلا ، الرجوع إلى الفهارس العامة والخاصة للمخطوطات المنجزة في كل من المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة أو فهارس مكتبات المغرب الأقصى، وتونس؛ بالإضافة إلى البيبليوغرافيات العربية و الأجنبية المهتمة بالتاريخ الثقافي عند المسلمين ، سواء بالمشرق العربي أو مغربه ، مثل " كشف الظنون " لحاجي خليفة أو " تاريخ الأدب العربي " لكارل بروكلمان أو غيرهما. غير أن أهم تلك الفهارس و البيبليوغرافيات بالنسبة لطبيعة المخطوطات المتواجدة بالجزائر والمغرب العربي عامة، هي تلك الموضوعة من طرف بعض المستشرقين والمهتمين بالمخطوط الإسلامي بالجزائر مثل العمل المنجز من طرف المستشرق الفرنسي " أدمون فانيان " وهو العمل الذي ينم على معرفة و دراية واسعة بالتراث العربي الإسلامي. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن المستشرق الفرنسي الآخر " رونيه باصي" الذي وضع كتابا عن " المخطوطات العربية " بالمنطقة ، خصّ فيه مخطوطات زاوية الهامل بعناية فائقة ؛ وقد كان ذلك خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشرة.

ومن الشروط التي لا بد من توافرها لدى المهتمين بالمخطوطات ، يمكن ذكر ما يلي :

__أ- الشروط التقنية :__

* - المعرفة الكاملة بعالم المخطوطات من الناحية المادية أولا، لأن هذه المسألة جوهرية في التحقّق من المادة الأصلية دون غيرها .

*- المعرفة الواسعة بميدان التجليد (الجلد وأنواعه) .

*- الدّارية الواسعة بالورق و أنواعه : خصائصه و تاريخه .

*- إلمام ومعرفة بأنواع المداد (الحبر) المستخدم في كتابة المخطوطات أو في عملية الاستنساخ..

* - معرفة لا بأس بها في مجال الخطوط و الأقلام: تاريخه، فنونه، مدارسه .

ب- الشروط العلمية :

وهي ضرورية أيضا إذ لا تكفي الشروط التقنية وحدها، لسبر أغوار المخطوط، ذلك لأن المخطوط يختزن بين طيا ته مادة علمية وثقافية هي الأصل في وجود المخطوط ذاته .

وتدخل ضمنها النقطة الأخيرة من الشروط التقنية لأنها وسيطة بين المجال المادي للوثيقة والمجال العلمي – الفني :

* – الإحاطة بتاريخ الحضارة الإسلامية ، بعصورها المختلفة .

*– الإلمام بالتاريخ الثقافي و العلمي للجزائر و الأقطار المجاورة لها منذ بداية دخول الحرف العربي (هذا الأمر ينطبق على المخطوط العربي أما إذا كان أجنبيا :عثمانيا أو إسبانيا أو فرنسيا فذلك شأن آخر).

*– التعرّف على العلوم والفنون الإسلامية :مجالاتها، حدودها وتصانيفها، أي الإلمام الواسع بالنشاط العقلي والديني بصفة عامة واهتمامات علماء ومثقفي المنطقة خاصة.

وبالرغم من كل هذه الإشكاليات وهذه الشروط التي هي بمثابة حجر عثرة أمام أي تقدم في ترجمة الآمال إلى حقائق ؛ فإن مسيّري مكتبة الزاوية – وعلى رأسهم الشيخ أبو الأنوار – يحاولون التغلب عليها، وذلك بالقليل من الوسائل ، ولكن " بالكثير "من الشجاعة والجرأة والعلم؛ فكان أن عمدوا إلى الإطلاع على كل ما من شأنه تسهيل المهمة، من جمع للدراسات والمصادر والبيبليوغرافيات والفهارس الخاصة بالمخطوطات مثل تلك التي ذكرها المستشرقون الفرنسيون" رونيه باصي "و" إدمون فانيان " أو الفهرس الذي وضعه الشيخ عبد الحي الكتّاني الموسوم بـــ" فهرس الفهارس والأثبات و معجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات". و لم تكن الشروط السابقة الذكر ، التقنية و العلمية من وحي الاطلاع أو من المنهجية التي يجب الإلمام بها قبل البدء في العمل بميدان المخطوطات بقدر ما كانت من نتائج العمل التطبيقي اليومي في ترتيب و تصنيف المخطوطات ، وقراءة أجزاء مهمة منه؛ وذلك بقصد الوصول إلى المعرفة الشاملة لمخزون المخطوطات.

إن من أهم الصعوبات التقنية-المادية (المخطوط من حيث كونه مادة) والعلمية والثقافية ، في عملية الفرز والترتيب و التصنيف التي قام بها مسيّرو مكتبة الزاوية في هذا الشأن ، تكمن

في أن عددا ليس باليسير من المخطوطات تفتقد إلى الصفحة الأولى أو الصفحتين الأوليتين ، واللتين من المفترض أن نجد بهما اسم صاحب المخطوط وعنوانه .

وليس هذا الأمر وحسب، بل إن صعوبات أخرى في هذا المجال بالذات ، تستدعي القيام بعملية مسح شامل للفهارس الموضوعة في المكتبات العامة و الخاصة ، مثل تلك التي ذكرت سابقا، للتغلب على هذه المعضلة ، وإجمالا يمكن حصر هذه الصعوبات فيما يلي :

*- النقص في صفحات بعض الكراريس (أو الملزمات) سواء مع بداية النص أو وسطه أو آخره أو الثلاثة معا. و بذلك لا يمكن في بعض الحالات التعرف على عنوان أو ناسخ أو تاريخ النسخة، مع العلم أن مادته وموضوعاته توحي بأننا أمام مخطوط مهم، علميا وثقافيا.

*- الاضطراب في الأوراق ، وهو الأمر الذي يشكّل هاجسا كبيرا لدى مسيري المكتبة وخاصة إذا ما علمنا بأن المخطوط لا يعتمد الترقيم المتعارف عليه (Pagination) بل على تقنية خاصة بالمخطوط الإسلامي.

*- الصعوبة في إدراج بعض الكراريس التي لا يعرف مكانها الصحيح ، ذلك لأننا يمكن أن نجد بالمخطوط الواحد (أو المجلدة الواحدة) مخطوطات عديدة و لأسماء متعددة.

*- وصعوبات أخرى من هذا القبيل لا يمكن التغلب عليها، لو لم يتسلّح المهتمون بما جاء في الشروط التي يتوجب أن يلّم بها المشتغل بهذا العلم الفذ وهذا العالم الواسع ، وهي الدراية الواسعة بالخطوط والورق والفنون من تاريخ وسيرة وفقه وما إلى ذلك.

- عيّنة من البطاقة الفهرسية للمخطوط.

وفي هذا الشأن ، قد تمّ اختيار ثلاثة علوم أو فنون متباينة و هي : التصوّف ، الفقه ثم التاريخ. أما اختيار التصوّف فتمليه خاصية اهتمام الزاوية بهذا العلم ؛أما الثاني أي الفقه فهو من صميم ما يُدرّس بهذا "المعهد" التعليمي ، أما بالنسبة للتاريخ أو السيرة فهو بالإضافة إلى كونه من أهم روافد العلمين السابقين علم شائع في كل الزوايا التعليمية بالجزائر و الجنوب على وجه الخصوص .

في التصوّف [14]

مكتبة زاوية الهامل – بوسعادة

العنوان : *تنبيه الأنام في علوم سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام* .

المؤلف : عبد الجليل محمد بن أحمد المرادي القيرواني .كامل غير ناقص .

تاريخ النسخ : غير معروف

الناسخ : غير معروف

عدد الأوراق : 200 . المسطرة : 18 . عدد كلمات الأسطر : 11

مزخرف : نعم

نوع الخط : مغربي فني .

نوع الورق : صقيل

ملاحظة عامة : به رسوم فاخرة ، بعض أوراقه مأروضة معالجة في الجزئين .

في الفقه

مكتبة زاوية الهامل –بوسعادة

العنوان : *حاشية الدسوقي على الدردير* .

المؤلف : ابن عرفة الدسوقي. كامل غير ناقص

تاريخ النسخ : 18 رجب 1278 هـ

الناسخ : محمد بن علي العوّاني .

عدد الأوراق: 690. المسطرة : 23. عدد كلمات السطر: 10.

نوع الخط : مغربي – غير مزخرف

نوع الورق : عادي

ملاحظة عامة : حالة جيدة ، غير مأروض .

مكتبة زاوية الهامل – بوسعادة

العنوان : *فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربّي و نعمته* كامل

المؤلف : محمد بوراس الناصري.

تاريخ النسخ : 16 ذو القعدة 1310 هـ

الناسخ : أحمد بن أبي الأخضر بن العربي.

عدد الأوراق : 65 المسطرة : 18 عدد كلمات السطر : 18

غير مزخرف نوع الخط : مغربي

نوع الورق : عادي

ملاحظة عامة : حالة جيدة ، غير مأروض .

خلاصة :

ومما يلاحظ في هذه العينة التي لا تمثل إلا جزءا يسيرا من العمل الدؤوب الذي تقوم به مكتبة الزاوية : بعد عملية الجرد الأولية و الترتيب و التصنيف (و إن كان العمل لا يزال مستمرا) أن الشيخ " أبو الأنوار " حاول بقدر الإمكان الاستفادة من البطاقات الفهرسية الشائعة؛لكنه أضفى عليها طابعا خاصا أملته ظروف المخطوط في المنطقة ودرجة انغماسه في ثقافة المخطوط وتقنياته ...

غير أنه ولظروف عدم التمكن بعدُ من الانتهاء من عملية الجرد والترتيب المشار إليها وكذا الإطلاع عل عدد أكبر من البطاقات الفهرسية للمخطوطات في العالم؛ يظهر أن هذه البطاقة الفهرسية لم تغط بعد كل البيانات التي من شأنها أن تعطي للبطاقة الفهرسية البعد التقني والعلمي المخطوط، باعتبارها من أوعية المعلومات التقليدية مثل: مكان النسخ أو رقم المخطوط بالمكتبة، العلم أو الفن المطروق (تصوف – سيرة)، افتتاحية المخطوط وختامه ثم اسم المُفهرس وإمضاؤه [15]. وما إلى ذلك من بيانات ، تسهم في إعطاء صورة حقيقية عن المخطوط قبل تناوله لقراءته أو تفحصه. ومرد هذا النقص في نظري بالمقارنة مع ما هو معمول به في مؤسسات حكومية، لها مشرفون ومتخصصون كثيرون ودعم مالي؛ لا يرجع إلى عدم إلمام بالعناصر الضرورية التي يجب توافرها في بطاقة المخطوط، بقدر ما أن العمل ذاته من تصنيف لمواد المخطوطات والاحتكاك بها لا يزال في بدايته. وأن القائمين على المكتبة يدركون صعوبة المهمة ونبل الغاية، لذلك يتوجب على السلطات الثقافية المحلية و المركزية و(الدولية) في هذا المقام مد يد العون المادية والأكاديمية للخروج بهذا المخطوط إلى نور الحياة الثقافية .

وإذا كان لابد من تصوير هذا التراث العلمي المخطوط، فيحبذ أن يتم هذا الأمر في عين المكان وفي أقرب الأوقات ؛على أن يبقى الأصل في "داره" حفاظا عليه من التفرّق بين الأيدي كما حصل ذلك في التاريخ: (تاريخ المخطوط الجزائري)، إذ قُدّمت مخطوطات نفيسة– حسب ما ترويه بعض الحكايات–في شكل هدايا لبعض الزوار الأجانب....

وفي الختام، يمكن القول بأن هذه المكتبة الناشئة ، ذات الرّصيد الهام من المخطوطات، الّذي يقارب الألف والخمسمائة، هي من الأهمية بمكان بالنسبة إلى البحّاثة و الدّارسين في مجال التاريخ الثقافي و السياسي للجزائر؛ وتشكّل مصدرا مُهمًا من مصادر معلوماتنا ، ليس فقط عن المنطقة التي توجد بها هذه المخطوطات ، بل أيضا عن المناطق الأخرى من القطر الجزائري. ولو كُتب أن جُمّعت كل هذه الروافد لتصُبّ في قناة واحدة ، لأمكن الاطلاع بالإضافة إلى البُعد السياسي و الاجتماعي ، على مجمل النشاط الثقافي و العلمي و التأليف الذي تميّز به أسلافنا طيلة القرون الماضية ..

الهوامش:

- 1 -VICTOR CHAUVIN. Bibliographie des ouvrages relatifs aux arabes publiés en Europe chrétienne de 1810 à 1885.
in Encyclopédie de l'Islam, Paris,T3; p1233.

- 2 -JACQUES BERQUE.Les Arabes. Paris, Sindbad, 1979; p54.

3. - تتحدث المصادر الفرنسية التاريخية والبيبليوغرافية عن هذه الفترة التي كانت تتسم بحالة شبيهة بتلك عرفتها الولايات المتحدة في القرن الماضي و التي أُطلق عليها إسم حمى التنقيب عن الذهب ؛و لكن الأمر بالنسبة إلى الفرنسيين كان شيئا آخر هو حمى التنقيب عن المخطوطات. ولقد كان من نتائج ذلك تشييد أكبر المكتبات، حيث جُمّع و رُتّب بها كل ما استطاعوا سرقته

راجع في ذلك ما كتبه " هنري جان مارتن " في : موسوعة البيبليولوجية .

-H.J .MARTIN in Encyclopédie des sciences de l'écrit ,AIB, Paris, 1993, p289.

4 - غوستان لوبون ، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر، القاهرة :مطبعة عيسى البابي الحلبي ،1969.ص272 .

5 - المصدر نفسه ، صـــ 274.

6 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ،بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1998، صــــ286.

7 - المصدر نفسه ، صــــ287 .(عائلة الفكون من العائلات المتميزة في نظر العثمانيين وكانت لها خطوة إذ مكّنتها من وظيفة شيخ الإسلام .و لقد تنافست مع عائلة ابن باديس وقتذاك علميا و سياسيا و أيضا في الريادة الروحية ...للمزيد من المعلومات انظر المصدر نفسه ص 394 و ص 416).

8 - المصدر نفسه ، ص 288.

9 - المصدر نفسه ، ص 290

10 - ايزابيل إيبهارت Isabelle Eberhardt كاتبة و مغامرة فرنسية من أصل بولندي وقعت في حب الصحراء و حياة الصحراء .عشقت أحد الجزائريين، فيقال أنها أسلمت من أجله و كانت تحب ارتداء لباس الرجال .لها علاقة حميمة بمدينتي: عين الصفراء و بوسعادة . أما نصر الدين ديني و اسمه الحقيقي " إيتيان ديني Etienne Dinet "فهو رسّام فرنسي مشهور جاء إلى منطقة بوسعادة في القرن التاسع عشرة فوقع في أسرها ؛و من ثم أسلم و دفن بها ...

11 - الحفناوي ،(أبو القاسم محمد) تعريف الخلف برجال السلف . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1991 ،ج 2 ص 171.

12 - و هم مجموعة من العلماء و الفقهاء و الكتّاب ، ينتسبون إلى قرية " الديس "الواقعة على بعد عشرة كيلومترات عن مدينة بوسعادة

13 - أستاذ و مدير مؤسسة تربوية من خريجي هذه الزاوية التعليمية و مدرّس بها. يعمل متطوعا في أثناء أوقات فراغه لتحقيق المكتبة المنشودة. و من أجل ذلك عمد إلى تجميع المصادر و المراجع و الفهارس العامة والخاصة لاتخاذها وسيلة عمل في مشروعه الضخم ...

14 - يرجع تاريخ أقدم مخطوط بزاوية الهامل إلى القرن التاسع الهجري ، و بالضبط إلى 813هـــ ،لصاحبه ابن هشام الأنصاري ،و هو معنون كالتالي : المغني اللبيب عن كتب الأعاريب. و قد يكون مما هو متواجد من مخطوطات ما هو أقدم تاريخا مما ذكر .ذلك لأن عددا هائلا منها لا يزال قيد الحصر و ربما " الاكتشاف " .

15 - الواقع أن البطاقة الفهرسية للمخطوط ، المقدمة كعينة ،من ابتكار الشيخ بو لنوار دحية ، المسؤول عن المكتبة وأمين مخطوطاتها .. و ما الطريقة المتّبعة في رصد بيانات البطاقة إلا تجربة أوّلية ، ينوي الشيخ توسيعها على بقية المخطوطات، في حالة ما إذا بلغت مبلغ الاستحسان. أما أن يكون المدخل بالعنوان بدل المدخل باسم المؤلف ، كما هو متفق عليه في هذا المجال ، فذلك بغية التعرف على الموضوع ذاته ، لعدم شهرة صاحب المخطوط ..

سياسة التعذيب الفرنسية في الجزائر وأهدافها: دراسة تحليلية من خلال بعض المصادر والشهادات

أ / ابراهيم لونيسي (*)

قصة التعذيب الفرنسي في الجزائر بين الحقيقة والخيال :

".. إن ما سيكتب عن هذا القمع بعد الثورة سيكون أشبه بالخرافات التي لا يصدقها العقل ، ومع ذلك فهي حقائق عاشها أفراد الشعب الجزائري بنسائه ورجاله وأطفاله وحتى بحيواناته وأرضه ." بهذه الكلمات استهل المجاهد علي كافي قائد الولاية الثانية مقالته المنشورة في جريدة المجاهد الصادرة بتاريخ 01 ماي 1958 بعنوان " أعمال توحش رهيبة في المدن الجزائرية".

ويقول في موضوع آخر من المقالة نفسها " .... لا يصدق العقل أنه في القرن العشرين يوجد إنسان يتوجه إلى أخيه الإنسان فيوثق يديه ورجليه ويسمرهما بالمسامير إلى ألواح ثابتة ولا يتصور العقل البشري قلع الأظافر والأسنان بالكلاليب .."

ويبدو للوهلة الأولى أن صاحب المقالة هذه كان محقا كل الحق في ما ذهب إليه في إصداره لهذا الحكم ودليله في ذلك هو فظاعة وبشاعة أعمال التعذيب الممارسة من الجيش الفرنسي ضد عشرات الآلاف من الجزائريين والتي من الصعب على الإنسان الذي لم يعش تلك اللحظات أو في تلك الظروف أن يصدقها ، وإن صدقها فإن تصديقه لها سيكون نسبيا إلى حد ما . إلا أن الحقيقة التاريخية لن تتحول أبدا إلى خرافة طال الزمن أو قصر فهذه هي حقيقة التعذيب الممارس على الشعب الجزائري من الجيش الفرنسي ، وكان من الممكن أن يتحول كل ذلك إلى مجرد خرافات صعبة التصديق لولا تلك الأدلة الساطعة المادية منها

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة سيدي بلعباس وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

أو المكتوبة التي ما تزال شاهدة على فظاعة جرائم التعذيب التي مارسها الجيش الفرنسي على عشرات الآلاف من الجزائريين ، وهذا التعذيب الذي مورس أيضا على العشرات من الفرنسيين في الجزائر، والذين قاموا بتسجيل شهاداتهم الحية على أساليب التعذيب المختلف التي مورست عليهم وهي نفسها التي مورست على الجزائريين. ولقد حركت عمليات التعذيب الممارسة ضد الجزائرية شريحة واسعة من المثقفين الفرنسيين وغيرهم الذين استنكروا هذه العمليات في العديد من كتاباتهم وتصريحاتهم ، فلقد قام مثلا الفنان الإسباني المشهور بابلو بيكاسو بالتعبير عن تعاطفه مع الثورة الجزائرية برسمه للوحة فنية تمثل جميلة بوباشا التي تعرضت رفقة والديها لشتى أنواع التعذيب[1]، وظهرت هذه اللوحة على غلاف مجلة "جون أفريك" Jeune Afrique في عددها الصادر في الفترة ما بين 6 و12 فيفري 1962 .

كما وجه رينيه كابيتن أستاذ القانون في باريس ، والذي كان وزيرا للتربية الوطنية رسالة إلى وزير التربية الوطنية على إثر سماعه خبر " انتحار " المناضل الجزائري على بومنجل يوم 25 مارس 1957 والذي كان أحد تلمذته في كلية الحقوق في الجزائر ، وفيها عبر عن أسفه لوفاة تلميذه مستنكرا وسائل الإرهاب والتعذيب التي تمارسها السلطات الفرنسية في الجزائر، وقرر رينيه كابيتن التوقف عن إلقاء دروسه احتجاجات على ذلك[2].

واستنكر الأديب والكاتب جول روا Jules Roy المولود في الجزائر سنة 1907 أعمال التعذيب الوحشية الممارسة ضد الجزائريين في العديد من كتاباته خاصة وانه كان على دراية واسعة بالممارسات الوحشية التي ارتكبها الجيش الفرنسي في الهند الصينية حيث كان ضابطا في الجـــيش الفرنسي برتبة عقيـــد، إلا أنه استقال مستنكرا أهداف الحرب وأساليبها وقد أشار إلى ذلك في كتابه " إني اتهم الجنرال ماسو "j'accuse le général Massu" ، إذ يقول في إحدى صفحاته " ... بسبب التعذيب الذي مورس في الهند الصينية ، تركت الجيش الفرنسي ... لم يبق عندنا غير الجزارين ...انتم ألا كذوبة وما زلتم تصفعون ضحاياكم بدلاء الدم .." [3]

وظهرت على الساحة الثقافية العديد من الكتب التي استنكر أصحابها أعمال التعذيب والإرهاب الممارسة من الجيش الفرنسي ضد الآلاف من الجزائريين منها كتاب هنري اليغ "

السؤال la question الصادر في باريس عام 1958 يصور لنا فيه أعمال التعذيب التي تعرض لها في إحدى السجون الجزائرية التي كان معتقلا فيها خلال منتصف سنة 1957 .

يقول في إحدى صفحات الكتاب " التعذيب ؟ لقد ألفنا هذه الكلمة منذ زمن طويل ، وقليلون جدا هم أولئك الذين قد افلتوا منه ، فالأسئلة التي تطرح على الداخلين الذين يمكن توجيه الكلام إليهم هي على الترتيب ، هل أنت معتقل منذ وقت طويل ؟ هل عذبت ؟ وهل معذبوك مظليون أم ضباط ؟ ".. وطوال شهر ، سمعت صراخ رجال كانوا يعذبون وستظل صيحاتهم تتردد في ذاكرتي إلى الأبد و قد رأيت معتقلين يضربون بالمطارق ثم يلقي بهم من طابق إلى آخر ، فيصيبهم من التعذيب والضرب الخبل ...." [4]

وقد قام جان بول سارتر بنشر مقالة حول الكتاب في مجلة (الأكسبريس) فصودرت المجلة بسبب ذلك ، وأعاد نشر المقال في كتابه " عارنا ... في الجزائر " حيث يصف جان بول سارتر في هذه المقالة حالة الحرب العالمية الثانية عندما كان رجال المقاومة الفرنسية ضحايا للتعذيب من النازيين ويستغرب كيف يتحول هذا الذي كان في بداية الأربعينات ضحية ، إلى جلاد في الخمسينات ، ويقول " أن الاستجواب ليس لا إنسانيا ، أنه بكل بساطة جريمة دنيئة ،و حمقاء ، يرتكبها بشر ضد بشر آخرين .." [5]

ويقول في موضع آخر من المقالة نفسها :" سعداء هم أولئك الذين ماتوا من غير أن يضطروا أبدا إلى التساؤل : أتراني أتكلم ، إذا هم نزعوا لي أظافري ؟ ، وأكثر سعادة منهم أولئك الذين لم يجبروا وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على أن يتساءلوا هذا السؤال الآخر : ماذا تراني افعل ، إذا اعمد أصدقائي أو إخواني في السلاح أو رؤسائي إلى انتزاع أظافر عدو أمام عيني ؟[6]

ومن أبرز الكتب التي أثارت الرأي العام الفرنسي والعالمي كتاب la gangrène الصادر سنة 1959 وهو يضم خمس شهادات لخمس جزائريين تعرضوا لأبشع صور التعذيب في فرنسا، إضافة إلى شهادتين تؤكدان الشهادات الخمس ، وقد منع الكتاب مباشرة بعد 3 أيام من صدوره – صدر في 16 جوان وصودر في 19 جوان – قامت جريدة لو منذ في عددها ليوم 20 جوان بنشر مقالة عن الكتاب في صفحتها الأولى أهم ما جاء فيها:

" ... والواقع أننا حين قراءتنا لهذه الصفحات الدموية التي نتمنى مخلصين أن يكون ما ورد فيها من صنع الخيال والأوهام ، والواقع أننا نحار معها في إدراك ما هو أشد هولا من الآخر: أهو بشاعة القسوة في التعذيب وفظاعتها ، أم هو حقارة نفسية أولئك الذين أضافوا الإهانة إلى عملية التعذيب الجسدي القاسية "

وقد قامت جريدة المجاهد بنشر بعض أجزاء هذا الكتاب تحت عنوان " مقتطفات من كتاب الجرح المتعفن " ابتداء من عددها الصادر في 13 جويلية 1959 ، وفي تقديمها لذلك كتبت تقول : " ... والكـــتاب عبارة عن شهادات سجلها طلاب جزائريون وقعوا تحت التعذيب الذي لا ينجو منه جزائري وقع فـــــي قبضة البوليس الفرنسي سواء في الجزائر أو في فرنسا، ولكن مصادرة الكتاب لم تمنع الرأي العام العالمي من أن يكون — مرة أخرى — فكرة واضحة عن مبلغ التوحش الذي بلغته فرنسا وخاصة في عهد ديغول الذي يتبجح بالشرف الفرنسي وينادي باحترام حياة الإنسان واخوة الشعوب وعلى بضع ميترات من مقر رئاسة الجمهورية الفرنسية — حيث يعيش ديغول — تجري هذه المنكرات الذي يتولى الدفاع عنها بإخفائها عن العالم ..."

ولكن رغم كل هذه الشهادات والأمثلة الحية المؤكدة لعمليات التعذيب الممارسة على الشعب الجزائري فإنه هناك بعض الأطراف السياسية والعسكرية الفرنسية حاولت أن

الغيستابو القديمة ، هناك من يزعم من السفاحين أنه منحدر من أصل ألزاسي ، لكن الواقع يؤكد أنهم من قدماء الـ أ س- أ س الحقيقيين ..." [7] .

وهذه الأوساط بادعائها هذا بدلا من أن تبرئ الجيش الفرنسي فإنها حملته تهمة ثانية لا تقل خطورة عن التهمة الأولى ، إلا وهي التعامل مع بعض العناصر النازية ، فكيف يعقل أن يتم استقبال عناصر من الجيش النازي الذي مارس عمليات التعذيب في حق الفرنسيين خلال الحرب العالمية الثانية ، ويتم ضمهم إلى الجيش الفرنسي ويبدو أن جان بول سارتر عندما كتب مسرحيته " سجناء الطونا " التي أصدرها سنة 1959، استوحى فكرتها من هذا التزاوج الذي وقع بين الجيش الفرنسي وبعض العناصر من الجيش النازي الذي تمت محاكمة معظم قادته في محكمة نورمبورغ على أنهم من مجرمي الحرب .

فسارتر في هذه المسرحية يتحدث عن نوايا الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومقارنتها بنوايا النازية في أوربا ، وهي تعالج أساليب التعذيب المفروضة على الشعب الجزائر حتى وإن لم يذكر هذا الشعب بالاسم في هذه المسرحية .

أهداف سياسة التعذيب الفرنسية في الجزائر :

إن سياسة التعذيب الفرنسية الممارسة على عشرات الآلاف من الجزائريين لم تكن إطلاقا أعمالا فردية كما أنها لم تكن نتيجة للخوف الذي سيطر على الكثير من عناصر الجيش الفرنسي والمستوطنين الذين بدأوا في رؤية امتيازاتهم المحصل عليها خلال أكثر من قرن وربع قرن على حافة الضياع بسبب تضاعد حدة الثورة التحريرية بل هي في حقيقتها تعد جزء لا يتجزأ من السياسة العامة المتبعة من الإدارة الفرنسية في الجزائر ، وكانت هذه السياسة تمارس بوعي وبتخطيط مسبق، ومما يؤكد لنا ما ذهبنا إليه ما صرح به الجنرال ماسو في تبريره لعمليات التدمير والتعذيب إذ يقول : " الظروف الموضوعية تحتم على جيشنا في الجزائر اعتماد هذه الأساليب الضرورية والتي يجدها ضميرنا مقبولة معنويا "[8]

ولتوضيح هذه الأساليب : الضرورية معنويا " يحصل الجنود الفرنسيون المنقولون إلى الجزائر على هذه النصيحة الثمينة من زملائهم القدماء ، حـــال هبوطهم على التراب الجزائري :" إذا شئتم البقاء على قيد الحياة ، عذبوا دمروا ، لا يجب أن يبقى فلاقا واحدا على قيد الحياة ، حتى وإن حصل هذا سهوا " [9].

ومن هنا يمكن لنا القول أن الجيش الفرنسي لم يكن يمارس عملية التعذيب من أجل الممارسة فقط بل كان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق جملة من الأهداف الأساسية وأبرزها خلق قوة ثالثة في أوساط الشعب الجزائري بهدف تعزيز جانب الحركة والقومية حتى تحول الأنظار عن جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني ، فبواسطة عمليات التعذيب نجحت الإدارة الاستعمارية في تحويل بعض الذين كانوا يعملون في ظل جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير إلى عيون للإدارة الاستعمارية يخدمون مصالحها وأهدافها بعد أن كانوا يعملون من أجل تحرير الجزائر ، ومن أفظع أساليب التعذيب المنتهجة من الجيش الفرنسي لتحقيق هذا الهدف أسلوب غسل الأمخاخ والتي يقول عنها المجاهد عبد الحفيظ أمقران أنه: " قاسينا كثيرا من هذه المحنة ، محنة غسل الأمخاخ وإرسال بعض الناس من هذه الفئة إلى الأرياف والمناطق المجاورة للعاصمة حيث وقعت بلبلة في الأفكار ودخل نوع من الشك حتى أصبح بعض المسؤولين على مستوى جيش التحرير وجبهة التحرير يشكون في هؤلاء الناس الذين خرجوا من العاصمة ويطالبون بالتجنيد والدخول في صفوف جيش التحرير الوطني ، حقيقة وقع شك كبير لماذا لأن معلومات جاءتنا عن هذه العملية الجهنمية التي وقعت في العاصمة أي غسل الأمخاخ وتحويل هؤلاء المناضلين فيما مضى إلى أناس كأنهم عيون للاستعمار ... وعلى كل فإن العملية لم تدم مدة طويلة بحيث استطعنا أن نحاصرها في مدة معينة وفي أماكن معينة ، وتفطنا بعد ذلك إلى أنها عملية جهنمية قصد بها المستعمر التشكيك حتى في الحركة الثورية برمتها " [10] ولكن لا يجب أن يفهم من هذا أن كل الذين تعرضوا للتعذيب قد أصبحوا خونة بل بالعكس نجد أن هذا التعذيب قد كون عند بعض الأفراد عزيمة قوية " فالمؤمنون بالثورة نجدهم ماتوا تحت التعذيب و لم يبوحوا بسر من الأسرار [11].

ومن الأدلة المؤكدة لنا أن الإدارة الإستعمارية اتبعت شتى أنواع وأساليب التعذيب لتحقيق هذا الهدف هو ما قاله الجنرال ديغول عندما طلب منه سنة 1957 أن يصدر تصريحا يدين فيه التعذيب إلا أنه رفض وبرر رفضه بقوله: " التعذيب جزء من النظام القائم "[12]. أي يعتبره أحد المساوئ العديدة التي يسجلها على النظام القائم أنذاك ويقصد به الجمهورية الرابعة ، والجنرال ديغول بإعترافه هذا كأنه يريد القول أن التعذيب يعد أحد الركائز الأساسية التي كانت تقوم عليها الجمهورية الرابعة ، مع العلم أن الجنرال ديغول لم يستعمل

مصطلح الجمهورية الرابعة إنما استعمل مصطلح النظام القائم ، ونحن في المدرسة التاريخية الجزائرية لا يمكن لنا أن نفرق بين سياسة الجمهورية الرابعة والثالثة ولا الخامسة إلا في عملية تحديد الفترات والأشخاص فقط لأن بين كل هذه الجمهوريات قاسم مشترك وهو النظام الإستعماري، وهو النظام الذي كان قائما .

ولقد أثارت جريدة المجاهد في عددها الصادر في 5 سبتمبر 1957هذه القضية عندما كتبت تقول بأنه عندما ندقق في الجهاز الإستعماري نجد أن الفرنسي الذي يثور ضد التعذيب فقط يندد به فحسب ليس نطقيا مع نفسه لأنه يجب عليه إذا أراد أن يكون منطقيا معقولا حقيقة أن يثور ضد الجهاز الإستعماري بأكمله لا أن يؤيد بقاء الإستعمار بالجزائر من ناحية ويثور ضد التعذيب من ناحية أخرى لأن بقاء الإستعمار بالجزائر معناه إبقاء التعذيب بها حسب جريدة المجاهد دائما ليس خط إستعماريا يمكن أن يوجد ويمكن أن لا يوجد داخل النظام الإستعماري كلا ، فالإستعمار يقتضي ويستلزم وجود التعذيب والتقتيل وكل أنواع الوحشية ، وهذا ما أكدته زوجة موريس أودان عندما قالت :" أن التعذيب لن ينته إلا بإنتهاء النظام الإستعماري " [13] ومن هنا يمكن لنا القول أن الجنرال ديغول قد اعترف اعترافا ضمنيا بأن التعذيب هو الركيزة الأساسية التي كان يقوم عليها النظام الاستعماري في الجزائر.

ومن الأهداف الأخرى التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى تحقيقها عن طريق التعذيب هو التعرف على أدق خصوصيات النظام المتبع من جبهة التحرير الوطني وجيشها حتى يتسنى لها وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على الثورة والدليل على ذلك هو تصاعد حمى التعذيب وشراستها مع توسع وتطورها ، إذ المعروف أن عمليات التعذيب وصلت إلى أعلى مراحلها أثناء عهد الجنرال ديغول حتى أصبحت هذه المرحلة تعرف لدى جل الباحثين بإسم مرحلة حرب الإبادة.

وكان أصحاب هذا الهدف يعمدون إلى اتباع عدة أساليب لتحقيق غرضهم إلا أن أبرز هذه الاساليب أسلوبين وهما : [14]

الأول : العمل على تحطيم معنويات المراد استنطاقه وبالتالي تدمير مقاومته وذلك بتعذيب مجموعة من المشبوهين أمامه يؤخذون عشوائيا من الشوارع أو القرى المجاورة ثم يشرع في

تعذيبهم حتى الموت وبعد أن يموت خمسة أو ستة أمام المقصود بالإستنطاق ، يشرع الجلادون في إلقاء الأسئلة .

الثاني : القيام بتعذيب المراد استنطاقه مباشرة قبل أن يلقي عليه أي سؤال ويتكرر التعذيب خمسة أو ستة مرات قبل أن يوجه إليه أي سؤال ثم يقال له أننا نصغي إليك .

وهناك هدف ثالث كان الجيش الفرنسي ومن ورائه السلطات الاستعمارية يسعيان إلى تحقيقه وهو الاحتفاظ بالجزائر الفرنسية فمثلا جاك سوستيل أمر بالقتل والتعذيب انطلاقا من إيمانه الراسخ بالجزائر الفرنسية وهو ما أكده ذات مرة بقوله : " التخلي عن الجزائر سيعتبر جريمة وهذه الجريمة لا نستطيع دفع ثمنها " [15].

ونشير هنا إلى أن جاك سوستيل رغم ضخامة وفضاعة الجرائم التي ارتكبها في الجزائر بشتى الوسائل نجده يلصق هذه التهمة بجبهة التحرير الوطني عندما تعرض في 15 سبتمبر 1958 إلى محاولة اغتيال إذ صرح في ندوة صحفية :" هذه المحاولة تبرهن مرة أخرى بأن جبهة التحرير الوطني يائسة من نجاحها في قواعد اللعبة لقد إلتجأت إلى أكبر درجات الجريمة[16] . فكأن جاك سوستيل بتصريحه هذا يريد إخفاء الحقيقة الناصعة عن أعين الرأي العام الجزائري والفرنسي والعالمي على حد سواء .

ولقد أصبحت عمليات التعذيب والتقتيل تستعمل بشكل روتيني لدى الجيش الفرنسي، بل وكانت في بعض الأحيان تتحول إلى وسيلة للتسلية والمتعة والترفيه عن النفس ، إذ أصبح الجندي الفرنسي الممارس لعمليات التعذيب يأكل ويشرب ويقرأ الكتب المختلفة أثناء جلسات التعذيب المختلفة ، بل والأكثر من ذلك كان يستمع إلى الموسيقى التي. كان البعض يظن بأن هذه الموسيقى كانت تستعمل لتغطية أصوات المعذبين – لأنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى ذلك – بل كانت تستعمل ليقوم الجندي برفع نشوة التلذذ لديه عندما يختلط صوت الموسيقى بأصوات المعذبين وآهاتهم وكان الجندي الفرنسي يقوم بكل هذا أثناء جلسات التعذيب .

وهناك الكثير من الشهادات لجنود فرنسيين تؤكد لنا هذه القضية إذ يقول أحدهم " إن يعذب الرجل كي يجبروه على الكلام هذه ضرورة قد أفهمها، ولكن أن يتمتعوا بذلك ليقيموا للشباب الفرنسي ترويحا ساديا عن النفس يسقمني ويجعلني أتألم ..."[17] .

وكشهادة أخرى على ذلك نذكر ما أوردته جريدة المجاهد في عددها 9 مارس 1962 نقلا من كتاب (سان ميشال والحيوان الأسطوري) الذي سبق ذكره : "لقد وجد جنود المظلات أنواعا أخرى للتسلية من ذلك أن أحد الضباط أخذ سيارة شحن وشرع يجوب بها الشوارع ويلقي القبض على كل جزائري يلبس البدلة الأفرنجية الأنيقة يأخذهم إلى السيارة دون أن يهتم حتى بطلب أوراق التعريف ، فلما ملأ السيارة دخل بها إلى المركز ثم حشد صيده في الفناء الذي كان يغص بالوحل والطين تصور الضابط قبل كل شيء بعض ألعاب الجذب والدفع كعقاب للمقبوض عليهم في نظره .... انتقل الضابط إلى نوع آخر من التمارين ففرض عليهم التمرغ والإستلقاء على الأرض الملطخة بالوحل وأمرهم بمد أرجلهم وأيديهم وبتحريك رؤوسهم الملقاة على الأرض ...كنا نتفرج من نوافذ العمارة على هذا الفيلم فيدفع بعضنا البعض ونضحك بشدة ما أعظمها تسلية ....."

بين إنسانية المجاهد الجزائري ووحشية الجندي الفرنسي :

لقد كان المجاهد الجزائري يحترم أسراه إحتراما كبيرا جدا وهذا الاحترام نابع أساسا من عقيدته السمحاء وأخلاقه السامية التي كان يتحلى بها وهو ما جعل الكثير من الأسرى يندهشون لذلك إذ أنهم لم يجدوا من المجاهدين سوى المعاملة الإنسانية ، وهي صورة معاكسة تماما لما كانت تقدمه السلطات الفرنسية لجنودها عن هؤلاء المجاهدين الذين صورتهم كمجرمين وقتله وسفاكين للدماء .

وكان المجاهد الجزائري يحترم إحتراما شديدا القوانين المختلفة الصادرة إليه من قيادته وكان يسعى إلى التقيد بها وهو ما اعترف بها أحد الصحفيين الفرنسيين "... ومما لاحظته أثناء مقامي في المناطق التي زرتها أن جنود جيش التحرير يحترمون بكل دقة قوانين الحرب ، وقد شاهدت بعيني أسيرين فرنسيين يعيشان بين المجاهدين ويأكلان مما يأكلون ويطالعون الصحف[18].

الخـــاتـــمة :

وفي الأخير يمكن لنا القول أن سياسة التعذيب الفرنسية في الجزائر كانت تشكل حيزا هاما من السياسة العامة التي انتهجها النظام الاستعماري في الجزائر .

ومن المفارقات العجيبة والغريبة أنهم قاموا بممارسة هذه السياسة تحت شراع نشر الحضارة والتمدن وأود أن أشير أيضا إلى أنه لا يمكن لنا أن نعطي لهذا الموضوع الحساس جدا حقه مهما كتبنا عنه بسبب محتواه البشع الذي تقشعر من هوله الأبدان .

الهوامش :

1-قام برسم هذه اللوحة بتاريخ 1961/12/08 ، كما نشرت أيضا في كتاب "جميلة بوباشا " لسيمون دي بوفوار، وجيزيل حليمي.

2- أحمد الشقيري: قصة الثورة الجزائرية، دار العودة، بيروت، ص.23 .

Roy: j'accuse le général Massu (paris 1972 Editions du seuil) ، P. 32. -3

4- هنري اليغ: الجلادون أو الإستجواب، ترجمة عايدة وسهيل إدريس (دار الأداب، بيروت، طI ، أفريل 1958)، ص8-9

5- جان بول سارتر: عارنا ...في الجزائر ترجمة عايدة وسهيل إدريس (دار الأداب، بيروت، طII ، أفريل 1958)، ص52 .

6- المصدر نفسه، ص.47-48

7- جريدة المجاهد : 9 مارس 1962، " التعذيب...وسيلة هو عندهم بقلم أحدهم، ص.9-11 ، أنظر أيضا العدد الصادر في 5 سبتمبر 1957، ص.5

8- إيفه بريستير: في الجزائر يتكلم السلاح، نضال شعب من أجل التحرير، ترجمة عبد الله ف. كحيل.الجزائر 1989،ص.296

9- المصدر نفسه،296 .

10- حوار حول الثورة، (المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام)، ج1، ص.394 .

11- المصدر نفسه، ص.400

12- عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، (دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1991)، الجزء الثالث، ص45

13- سيمون دي بوفوار، جيزيل حليمي: جميلة بوباشا، قصة تعذيب بطلة عربية في الجزائر، تعريب محمد النقاش (دار العلم للملايين بيروت 1962 ، طI)، ص243 .

14- جريدة المجاهد:5 سبتمبر 1957 ، ص.15

Jacques Soustelle: le drame algérien et la décadence française, réponse à Raymond Aron .(Paris 1957), p.26 -15

Le Monde: 20/09/1958. -16

17- إيفه بريستير: ص.309-310

18- جريدة المجاهد: 20 أوت 1957 ، ص3

الدور النضالي للحركة الطلابية الجزائرية
إبان ثورة التحرير

أ / الغالي غربي (*)

مقدمة:

إن مساهمة الحركة الطلابية الجزائرية في المسيرة النضالية للشعب الجزائري مازالت من المواضيع التي لم تعط الاهتمام والعناية الكافية من قبل المؤرخين والباحثين الجزائريين. وقد آن الأوان لاستجلاء حقيقة هذه المساهمة، ليعط الموضوع حقه من البحث والتنقيب ومن ثم استكمال عملية البناء التاريخي لحقبة من تاريخنا الوطني الحديث. وفي هذه الدراسة حاولنا الوقوف على الدور النضالي للحركة الطلابية إبان الثورة التحريرية من خلال نشاط الطلبة الخارجي في المحافل الدولية لتعريف العالم بثورة الجزائر وكشف حقيقة الاستعمار الفرنسي وممارساته ضد الشعب الجزائري.

1 - ظهور الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين:

إن ظهور التنظيم الطلابي ليس وليد العدم، بل تعود أصوله وجذوره إلى العشرينيات من هذا القرن، بفضل جهود الطلبة الأوائل الذين ترعرعوا في أحضان الحركة من حزب نجم شمال إفريقية وجمعية العلماء المسلمين، الذين غرسوا في الرعيل الأول الوطنية وتشبعوا بأفكارها وآمنوا بمبادئها. وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الذي لعبه كل من الطلبة في غرس الروح الوطنية والانتماء الحضاري من خلال التمسك باللغة العربية والإسلام والمطالبة بالاستقلال. وتذكر التقارير الفرنسية الدور الريادي الذي لعبه نجم شمال إفريقية في توعية الشباب المسلمين من الجزائريين والتوانسة والمغاربة الذين يقدمون إلى فرنسا للدراسة[1] .

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الجزائر وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

ورغم الضغوطات التي أفرزها الواقع الاستعماري، لم تمنع الطالب الجزائري، من التفكير والتطلع لتغيير وضعيته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، ومحاولة فرض وجوده، من خلال تأسيس جمعيات وتنظيمات تمكنه من إظهار إمكانياته وطاقاته. وكانت أولى التنظيمات النقابية الطلابية التي ظهرت على الساحة السياسية بعد الحرب العالمية الأولى ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين عام 1920،والتي ترأسها فيما بعد فرحات عباس وتحولت فيما بعد إلى جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين .

وكانت جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقية من أولى التنظيمات التي بدأ فيها الطالب الجزائري يعبر من خلالها على طموحاته السياسية وتطلعاته السياسية، واستطاعت الجمعية في العهدة الجزائرية مابين سنة 1944 و 1945 الحصول على المقر لها في 115 شارع القديس ميشيل بباريس[2]. وقد عقدت هذه الجمعية عدة مؤتمرات لعب فيها الجزائريون دورا بارزا وفعالا ، مثل مؤتمر المدرسة الخلدونية بتونس عام 1931، ومؤتمر نادي الترقي بالجزائر عام 1932، ومؤتمر 1934 بتونس ومؤتمر تلمسان عام 1935ومؤتمر تيطوان بالمغرب 1936. وقد شاركت عدة شخصيات في أعمال هذا المؤتمر وصياغة قراراتها . والملاحظة الأساسية، أن هذه المؤتمرات قد ناقشت موضوع المحا فظة على الشخصية العربية الإسلامية للجزائر وفرض اللغة العربية في مراحل التعليم المختلفة زيادة على المطالبة برفع الظلم المسلط على الجزائريين من جراء السياسة الفرنسية..ومنذ سنة 1947، أقحمت الحركة الطلابية في النضال السياسي الوطني، الذي كان يقوده حزب الشعب الجزائري ثم حركة الإنتصار من أجل الديمقراطية ، وألتحقت بجموع البطالين والعمال والفلاحين [3].ومن بين الفعاليات الطلابية النشيطة في هذه الحقبة التاريخية نذكر كل من محمد يزيد، ومحمد الصديق بن يحى وعبد السلام بلعيد والأمين خان.

2 – الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين:

إن التطورات السياسية التي كانت تمر بها الجزائر والوضعية المزرية التي كان يعيشها الطالب الجزائري، كانت وراء التفكير في إيجاد تنظيم يدافع من خلاله الطلبة عن مصالحهم المادية والمعنوية أينما كانوا. ولكن الهدف الأسمى الذي أراد تحقيقه هو توحيد الاتجاه الطلابي، وربط مصير المثقف بمصير كل فرد من أفراد الشعب، بحيث تزول تلك الفوارق

المصطنعة التي حاولت الإيديولوجية الاستعمارية ترسيخها في أذهان النخبة المثقفة وهيأتها التقاليد الجامعية الفرنسية التي كان الطلبة الجزائريون منخرطون فيها [4] يقول فرحات في هذا السياق:" إن الطلبة الجزائريون بانفصالهم عن الجمعيات ذات الطابع الفرنسي الاستعماري وتأسيسهم لاتحادهم الوطني قد حرروا الحركة النقابية الجامعية الجزائرية من العبودية الاستعمارية التي كانت تسيطر عليها ..." [5] ويمكن أن نضيف الى هذه الخلفيات التي كانت وراء فكرة تأسيس تنظيم طلابي جزائري حر، ضرورة تحمل الطالب لمسؤولياته التاريخية والحضارية تجاه نضال شعبه ودحض الدعاية الفرنسية القائلة بأن الثورة الجزائرية ما هي إلا عمل كمشه من اللصوص وقطاع الطرق، أو أنها من إيحاء خارجي يريد زعزعة الاستقرار الفرنسي في شمال إفريقية عامة والجزائر خاصة. وفي شهر جويلية من عام 1955 تم تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وبظهور الاتحاد ، اختار الطلبة الجزائريون الخندق الذي يقفون فيه ويدافعون عليه .

3 - *الدور السياسي والنضالي للاتحاد :*

باشر الاتحاد نشاطه السياسي والنضالي في شهر مارس من عام 1956، بعقد مؤتمر الثاني في مدينة باريس . وفي هذا المؤتمر اتخذ المؤتمرون موقفا جليا من الثورة الجزائرية ونضال الشعب الجزائري إذ طالبوا باستقلال الجزائر غير مشروط وطلبوا من الحكومة الفرنسية بفتح باب المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني[6] وردا على الإجراءات القمعية التي باشرتها وزارة الداخلية الفرنسية على مجموع الطلبة الجزائريين المتواجدين على الأراضي الفرنسية من اعتقالات ومداهمات واستجوابات وأعمال تعذيب واغتيال. قرر الطلبة رفع التحدي في وجه الآلة الاستعمارية التي أرادت تقزيم حركتهم وتشويهها فكان قرار الإضراب العام عن مقاعد الدراسة . إن الإجراء قد أبهر الأوساط الثقافية في العالم ، وبرهن على تضامن الطالب الجزائري الصادق مع الشعب الذي يقاسي الأهوال كما أظهر استعداد الطالب للدخول في معمعة الكفاح المسلح .لقد كان الإضراب ضرورة حتمية لدحض الادعاءات الفرنسية التي ترمي الثورة الجزائرية بأنها عمل طائش قامت به طائفة من قطاع الطرق ، لقد كان الواجب إقامة الدليل القاطع على وحدة الشعب الجزائري في صفوف الثورة ووراء القادة الذين أخذوا على عاتقهم تسيير الثورة . وبالفعل فإن الإضراب قد حقق الأهداف المرجوة منه

وبدأت طلائع الطلبة تلتحق بالجبال والوهاد معلنة الانعتاق ورفض مختلف القيود.وكما جاء في بيان الاتحاد"لذا فالواجب ينادينا الى القيام بمهمات تفرضها الظروف علينا فرضا وتتسم بالسمو والمجد فالواجب ينادينا الى تحمل الآلام ليلا ونهارا بجانب من يكافحون ويموتون أحرار تجاه العدو . وعليه فإننا نقوم من الآن بالإضراب عن الدروس والامتحانات لأجل غير محدود فلنهجر مقاعد الجامعات ولنتوجه إلى الجبال والوعار. ولنلتحق كافة بجيش التحرير الوطني وبمنظمته السياسية جبهة التحرير الوطني . أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون، أنرتد على أعقابنا والحال أن العالم ينظر إلينا والوطن ينادينا ، والبلاد تدعونا إلى حياة العز والبطولة والمجد...".

وفي شهر ديسمبر 1957عقد الاتحاد مؤتمره الثالث في العاصمة الفرنسية باريس. وكان مناسبة لتأكيد الطلبة على تجديد عهدهم للعمل وللكفاح في سبيل الثورة التحريرية [8]. ورغم المحن والصعاب والتحديات التي اعترضت الحركة الطلابية، إلا أنهم في مؤتمرهم الرابع المنعقد ببئر الباي بتونس بين 31جويلية الى 01 أوت 1960، أكدوا على تمسكهم بمثل ومبادئ من سبقوهم وضحوا بحياتهم الغالية من أجل القضية الوطنية، وأنهم مدركون أكثر من أي وقت مضى لمسؤولياتهم ودورهم في هذه المرحلة الحاسمة من الثورة. وقد قرر الطلبة في هذا المؤتمر، مواصلة الكفاح التحرري بمختلف الأشكال ومضاعفته بمشاركتهم المباشرة في الكفاح كيفما كانت التضحيات، ويعتبرون أنفسهم مجندين في خدمة الثورة وهم مستعدون إلى التخلي عن دراستهم مرة أخرى بمجرد أن تدعوهم حكومتهم إلى ذالك [9].

4 - *النشاط الخارجي :*

من المبادئ التي انتهجها اتحاد الطلبة المسلمين في نشاطه الخارجي وفي تعامله مع الحركات الطلابية تجنب الميول والأفكار السياسية التي تقسم العالم الطلابي، وبذل الجهود من أجل توحيد الحركة الطلابية العالمية، وإيجاد صيغ التعاون والتضامن بين مختلف تياراتها. وهذا الموقف المبدئي اكسب الاتحاد احترام العالم الطلابي وتنافس المنظمات الطلابية على كسب وده ودعوته للمشاركة في كل القضايا التي تشغل عالم الطلاب [10]. وقد تمسك الاتحاد بمبدأ الحياد خدمة لقضيته المصيرية وابعادها عن الصراعات والمهاترات التي كانت تعصف بالحركة الطلابية العالمية، من جراء الصراع الإيديولوجي الذي استفحل أمره، بسبب

تداعيات الحرب الباردة بين الشرق الشيوعي والغرب الليبرالي. وقد تجسد انقسام الحركة الطلابية في وجود تنظيمين عالميين تصارعا على اكتساب اعتراف الاتحادات الطلابية الوطنية، وهما الاتحاد العالمي للطلبة (Union Internationale des Etudiants) ومقره براغ، والمؤتمر الدولي للطلبة ومقره ليد (la Conférence Internationale des Etudiants)[11].

كذلك من الأهداف التي وضعها الاتحاد ، نشر الدعوة وكسب الأنصار في مختلف الأوساط النقابية والثقافية في البلدان التي يقيم بها الطالب الجزائري. والقيام بحملة واسعة النطاق لإخبار العالم عن حقيقة ما يحدث في الجزائر ،من خلال فضح وتعرية الممارسات الاستعمارية تجاه الشعب الجزائري . زيادة على الأهداف عمل الاتحاد على عملية إعداد الإطارات والفنيين من خلال الإكثار من الإرساليات الطلابية للدراسة في الخارج والسعي لدى الرأي العام الطلابي في البلدان الأجنبية للضغط على حكوماتهم لتوفير شروط الدراسة من كالأماكن الدراسية البيداغوجية والمنح ، وبخاصة لما ازدادت الضغوطات الفرنسية على الطلبة الجزائريين المقيمين على الأراضي الفرنسية.ومن المهام التي أنيط بها الاتحاد مهمة التنظيم والتنسيق بين الوسط الطلابي الجزائري في جميع أنحاء العالم[12].

5 – الانتصارات الطلابية الخارجية :

كانت أولى الخطوات التي باشرها الطلبة الجزائريون كسب الاعتراف الطلابي العالمي بتنظيمهم وفرض حضورهم في كل الفعاليات العالمية التي تقام في مختلف بقاع العالم، وكانت أولى الانتصارات مشاركته في المؤتمر الإفريقي الأسيوي للطلبة الذي انعقد في باندوق بين 30 ماي إلى 7جوان 1956، وفاز بالعضوية في الاتحاد العالمي للطلبة كعضو مشارك بعد مؤتمر براغ 26 أوت إلى 2 سبتمبر1956 . واعترف به كاتحاد وطني في الدورة السادسة المنعقدة في كولومبو لمؤتمر العالمي للطلبة من 11 إلى 21 سبتمبر، رغم معارضة اتحاد طلبة فرنسا المدعم باتحادات طلابية أوربية أخرى . وبفضل المكاسب التي تحققت للاتحاد على المستوى الدولي ، تكثف التواجد الطلابي مختلف البلدان في بلجيكا وسويسرا وإنجلترا وإيطاليا والهند والصين ومصر وسوريا والعراق والسودان وتونس والمغرب وإسبانيا ورومانيا وفي الاتحاد السوفيتي ، شارحا القضية الجزائرية للرأي العام في هذه الدول وكسب تعاطفها ومساندتها .

لم تقف الإدارة الاستعمارية الفرنسية مكتوفة الأيدي أمام الانتصارات الساحقة التي بدأت تجني ثمارها القضية الجزائري من خلال التضامن والتأييد العالميين بفضل مجهودات الاتحاد، لم تتوان وزارة الداخلية الفرنسية في 1960/1/28 في إصدار قرار حل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. ولم تكتف بهذا بل عملت على اعتقال الطلبة وأخضعتهم لعمليات الاستنطاق والبحث وتسليط مختلف صنوف التعذيب ثم رميهم في غياهب السجون الفرنسية لكبت أصواتهم التي بدأت تقلق الحكومة الفرنسية. وحسب بيان وزارة الداخلية الفرنسية، فإن الجمعية أو الاتحاد الذي أسس للدفاع عن مصالح الطلبة المسلمين الجزائريين المادية والمعنوية قد حاد عن أهدافه الأولى وأقبل على خدمة أغراض جبهة التحرير الوطني. وقوبلت الإجراءات الردعية الفرنسية بتضامن طلابي عالمي واسع النطاق، ففي باريس عقد مكتب الطلبة المسلمين لشمال إفريقية ندوة حضرها ممثلو الصحافة الفرنسية والعالمية نددوا فيها بالإجراءات الفرنسية. وفي 58/2/4 انتظمت مظاهرات في الحي اللاتيني احتجاجا على حل الاتحاد حضرها حوالي 3000 مشارك وطالبوا خلالها بالإفراج على خميستي ورفض قرار الحكومة الفرنسية. وتجلى التضامن الطلابي أيضا في انعقاد ندوة لندن الاستثنائية في شهر أفريل 1958، حضرها عدد كبير من المنظمات الوطنية والعالمية وتقرر فيها إقامة أسبوعا تضامنيا مع الطلبة الجزائريين [13].

واحتجاجا على تصرف الحكومة الفرنسية احتج الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا واتحاد طلبة المدارس الفرنسية العليا . وقد أصدر التنظيمان الطلابيان الفرنسي والجزائري بيانا مشتركا يندد بالحرب ويدعو إلى التفاوض بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية من أجل إقرار السلام وتطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره تطبيقا حرا ونزيها.ونظمت تجمعات طلابية في كل من تونس والمغرب وأرسلت رسائل تنديد إلى رئيس الجمهورية الفرنسية . وفي المؤتمر العالمي للطلبة المنعقد بنيجيريا ، دعيت الحكومة الفرنسية لتغيير سيرتها مع الطلبة الجزائريين ، وأوصيت الاتحادات الطلابية في العالم بتنظيم أسبوع للتضامن مع الاتحاد العام للطلبة الجزائريين . وطالب المؤتمرون بحل عادل للقضية الجزائرية على أساس الاعتراف بالاستقلال الوطني الذي هو الشرط الأول لإقامة تعليم حر ديمقراطي في الجزائر [14] .

واجتمعت اللجنة التنفيذية للجامعة العالمية للشبيبة الديمقراطية في كولومبو 1958 وفي

رسالتها للأمم المتحدة أكدت اللجنة على حق الشعب الجزائري في الاستقلال وطالبت بإلحاح بفتح مفاوضات مع الحكومة الجزائرية المؤقتة. وألتزمت اللجنة بتقديم كل أصناف العون المادي والمعنوي للطلبة الجزائريين ، ووجهت نداء إلى جميع منظمات الشباب والطلاب لتعزيز كفاحهم من أجل انتزاع اعتراف حكوماتها بالحكومة الجزائرية ومن أجل إيقاف الحرب ومضاعفة الإعانة المادية للطلبة [15]. وفي ليما عاصمة البيرو ، وبعد عمل تنسيقي بين الوفود المغربية ، خرج المؤتمر العالمي الثامن للطلاب بلائحة ، يستنكر فيها سياسة القمع التي تسلطها الحكومة الفرنسية على الطلبة الجزائريين . ونددت بالاعتداءات المتكررة على أبسط وأقدس الحقوق الإنسانية ، وبوجوب احترام القوانين الدولية واتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب. ونددت اللائحة بسياسة الإدماج لأنها مناقضة لوجود ثقافة وطنية مطابقة لماضي الجزائر وتقاليدها [16].هكذا توالت حركات التنديد بالحرب الاستعمارية في الجزائر، والمطالبة بالتفاوض بين الطرفين المتحاربين ، وتعددت هذه الحركات واتسعت وتنوعت في أساليبها واتجاهاتها ومجالات نشاطها، مما كان له الصدى الكبير على الرأي العام الفرنسي الذي اجتمعت نقاباته الشيوعية والطلبة واتحادات المعلمين الفرنسيين وأصدروا بيانا مشتركا يعلنون فيه عن إرادة الشعب الفرنسي في إقرار السلام بالجزائر. وهكذا فإن الدور النضالي للطالب الجزائري على المستوى العالمي خدمة للقضية الجزائرية لم يختلف عن طبيعة الدور الذي كان يقوم به المجاهد والفدائي والمسبل وبذلك أثبت الطالب وفي كل المناسبات الدولية التي أتيحت له على أنه جزء لا يتجزأ من الشعب الجزائري يتألم لآلامه ويفرح لأفراحه، وأنه جدير بالمهمة التي كلفته بها الثورة الجزائرية لإيصال رسالتها إلى العالم بعد اشتداد سياسة الخنق والعزل التي مورست عليها من طرف الإدارة الفرنسية. ولم يكتف الطالب الجزائري بهذه المهمة بل لما شعر أن الواجب الوطني يناديه لتأدية مهامه بجانب مجاهدي الثورة سارع الى ذلك متحديا الصعاب والعراقيل التي أراد البعض من ضعاف النفوس من الجزائريين تثبيط همته بواسطتها.وقد أظهر الطالب الجزائري مقدرة فائقة على التأقلم والتكيف مع الحياة الجديدة في الجبال، فكان المحارب والطبيب والمحافظ السياسي والممرض والقاضي وصانع القنابل والقائد العسكري، زيادة على دروس محو الأمية باللغتين العربية والفرنسية وتحسين المستوى الثقافي للمجاهدين. وكانت النتيجة انتشار المدارس

الابتدائية في القرى والمداشر . وقد طلب من هؤلاء الطلبة على أهمية التثقيف السياسي والإيديولوجي والروحي للمجاهد والمدني من خلال رفع المعنويات والهمم. وكانت للنشرات مثل "صدى الجبال" و"الثورة" من الوسائل الفعالة التي ساهمت في رفع المستوى الثقافي وتعميق الروح الوطنية . إذ استطاعت أن تقف في وجه الحرب النفسية والحملات الدعائية التي كانت تبثها وسائل الإعلام الفرنسية من صحف ومناشير وإذاعات لتشويه الثورة وتقزيمها في أذهان الجزائريين.ومن المهام الرئيسة التي باشرها الطالب الوظيفة القضائية، وتطبيق أحكام الثورة على الخونة والفارين والمجرمين، والفصل في قضايا المواطنين وبخاصة الريفيين منهم . أيضا كان الطلبة مكلفون بالإشراف على الاتصالات والمعلومات، وازدادت أهمية هذا الميدان بعد استخدام الراديو ابتداء من سنة 1957. ويمكن أن نضيف إلى تلك المهام والاختصاصات مهمة القيام بأعمال السكرتارية والمحاسبة . في بداية الثورة، لم يلتحق الطلبة بوحدات جيش التحرير القتالية ،باستثناء ذوي الاختصاص العلمي الدقيق الذين عينوا على الإشراف والاهتمام بالأسلحة وترميمها وتصليحها. إلا أن هذا الاستثناء لم يدم طويلا، إذ سمح لعدد منهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين، ومن ثم الترقية في المراتب العسكرية، ووصل عدد منهم الى استلام مسؤوليات عسكرية كبيرة .

الهوامش :

1- KADACHE. M . Histoire du nationalisme Algérien
Question nationale et politique Algérienne. 1919-1945
S.N.E.D. Alger.1980 .vol. 1. p.352.

2- ibid. .vol.2.p.807.

3- ibid. .vol..2. p.808.

4- المجاهد : 1959/11/1. / 5- المجاهد : 1960/8/8. /6- المجاهد : 1960/7/25.

7- المجاهد : عدد 1. بدون تاريخ، ص ص 19-20. / 8- المجاهد : 1960/7/25. / 9- المجاهد : 1960/8/8.

10- المجاهد : 1960/8/8.

11- GUY PERVILLE : Les étudiants Algériens de l'université Française 1880-1962.
Editions du CNRS. 1984.p.p 181-183

12- المجاهد : 1959/11/1. / 13- المجاهد : 1960/8/8. / 14- المجاهد : 1957/11/ 15

15- المجاهد : 1959/1/15. / 16- المجاهد : 1959/3/17. ·

التاريخ واستراتيجية الوحدة الوطنية

د / ابن مزيان بن شرقي (*)

إن التاريخ كما يبدو عند ريمون أرون "هو إعادة بناء حياة الأموات من طرف الأحياء"؛ أو كما يقول فاليري "أخطر إنتاج كيميائي أنتجه العقل البشري وهو قبل كل شيء حدث... تاريخية الأحداث خاصة الإنسانية، أو التي في علاقة مع الإنسان، وبعد ذلك هو الجهد لاستيعاب وطرح وفهم الأحداث"، وعليه يغدو التاريخ في نظر هؤلاء تلك الحركة من وعي الإنسان اتلي يتخذها إزاء مواقف وأحداث و يرسم بها أهدافه البعيدة و القريبة .

1ـ التاريخ والوعي

يبدو واضحا من هذه التعريفات المعاصرة لمفهوم التاريخ أنه يعني بالدرجة الأولى بدراسة الماضي البشري. رغم ما في هذه الدراسة من خطورة، والتي تكمن في فهم استيعاب وطرح أحداثه لتحديد الدور الذي تطالب الشعوب القيام به فيما تريد استرجاع أحداث ذاكرتها الاجتماعية "لأن التاريخ يطرح الحوار الجاري بين الحاضر والماضي، والذي يأخذ ويحتفظ فيه ففي داخل هذا الحوار تكمن أهمية وخطورة التاريخ خاصة وأنه وحده القادر على بالحاضر" أن يعرف الإنسان بقدراته وإمكاناته ليستطيع من خلاله -أي التاريخ- "أن يختار مصيره.. ويتعرف عن ذاته بالقياس للآخر، أي بالقياس إلى الماضي".

مما يؤدي بالشعوب إلى استحضار وعيها التاريخي ليجعل منه رمز فاعليتها، ولهذا يعتقد اليوم، وبعد تقدم الأبحاث في مجال العلوم الإنسانية أن "الشعوب مثل الأفراد

(*) أستاذ محاضر مختص في فلسفة التاريخ ورئيس فرقة بحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

تصاب بالأمراض، بل ويهددها الفناء، في حالة فقدان أو ضياع ذاكرتها" مما يفقدها الاتجاه السليم ولا يمكن أن يحصل لها ذلك الرجوع الواعي لخط التاريخ إلا بالتمثل الواعي لتاريخها.

طبيعي جدا أن نقول اليوم بأن "لكل جماعة وعي تاريخي، فكرة عن معنى الإنسانية، الحضارة، الأمة، الماضي، المستقبل"، لكنه لا يمكننا أنم نجزم بالقول أن كل جماعة قادرة على أن تتمثل الحاضر رمز كينونتها، وفهم الواقع، فهما يؤدي بها إلى طرح وفهم الماضي، فهم أسباب تقدمها، أي بتمثل التاريخ كمحكمة للعقل كما يقول هيجل، إلا إذا شكلت من ذلك الماضي -التاريخ- لحظة من لحظات وعيها فنحن نعتقد -كما يقول العروي- "بداهة أن أخبار الماضي تفرغ إما في شكل خرافة، وإما في شكل قول مثبت بوثيقة"، الواقع أن قسما ضئيلا جدا من معلوماتنا حول الماضي خاضع إلى التوثيق، أما القسم الأكبر فهو دائما وباستمرار مفرغ من تصور عام وعامي يمثل جانبا من ثقافتنا: الوطنية التي غالبا ما تتبلور في سلوكياتنا اليومية.

في ذلك دلالة على عدم قدرتنا على تشكل وعيا تاريخيا قادرا أن يشكل وعي داخل حقل الثقافة الوطنية- الحالة هنا لا نعني الجزائر فقط- ومما أسهم في حدة هذا الشكل اللاوعي للتاريخ أن "دروس التاريخ من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة هي رواية شفوية، والأستاذ لا يعرف بالوثائق، وهذه الوضعية العامة والدائمة، هي التي تستوجب التساؤل حول منهج دراسة التاريخ".

عندئذ يصبح الأديب مؤرخا...والراوي مؤرخا وهذا هو وجه المفارقة ومما قد يدفع لمثل هذه الوضعية هو أن هناك تشكل زائف للوعي عند أمم كثيرة، فهناك مثلا مجتمعات تعيش التاريخ عفويا، تكتب عنه تلقائيا، تعتقد أنه في المتناول قابل للفهم بدون وساطة، يكتب المؤرخ المحترف في ذلك المجتمع "بدون إشكال لأن فكر العموم، التحكم في جميع المباحث غير نقدي".

من جهة أخرى أن هذه التعريفات تتقاسم، وغيرها من التعريفات المعاصرة، فكرة أساسية عن دور الإنسان تاريخي، يملك وعيا يكون قادرا على التأثير في مسطرة الأحداث التاريخية، فبفضل هذه القدرة يستطيع أن يشكل ويتمثل: يشكل أحداثا تصبح للأجيال

القادمة تاريخا (الماضي -الحاضر)، ويتمثل أحداثا قد تعيق مسطرة التاريخ (الحاضر - المستقبل).

من هنا أصبح من الضروري بل من الحاجة الملحة الآن: "التساؤل حول صناعة المؤرخ التي هي في حقيقتها" مساهمة في رفع مستوى الوعي لا عند المؤرخ بل عند المواطن.

"فمفهوم التاريخ المؤرخ لم يعد ينظر إليه كمفهوم استاتيكي، -يقتصر على الماضي- خال من كل تغير بل أنه بمجريات أحداثه، وهذا بعدما تغيرت نظرة الإنسان للزمن، لأن الناس حينما "يصنعون الأحداث، أي فيما يصنعون تاريخهم.. لا يعرفون التاريخ الذي يصنعون بحكم وجودهم وإسهامهم كطرف فاعل في الحدث نفسه، لا يعود إذا زمانية الحدث إلا فيما تتصل بهم الأحداث إلى زمان آخر، عندئذ فقط يصبح الحدث الأول بالنسبة للثاني ماض -أي تاريخا- بالمفهوم التقليدي، ومن ثمة يصير ذاكرة للشعوب. إذا فالتاريخ أصبح يعني بالنشاط المستمر للإنسانية بقدر عنايته بالأحداث الماضية.

2 ـ التـــاريـــخ والـــوحـــدة :

والآن، ربما أن التاريخ لم يعد ذلك الدرس الذي يحدثنا فيه الأستاذ الشيخ عن حكايات الأمم الغابرة، والتي لم يعد لها تأثيرا في الحاضر، فان ارتباط الوعي التاريخي بالوعي الاستراتيجي أضحى حتمية علائقية، لا يمكن فصلهما عن بعضها البعض، بل أنهما أصبحا استيعاب "التاريخانية الأحداث والحقب والأفكار والتحولات الكبرى، ومدى تفاعلها مع المعتقدات، والأحكام والميثولوجيا والمشاريع لدى الأمم والشعوب".

وحتى نعود إلى الواقع أي ننتقل من مستوى التنظير إلى الواقع لا بأس هنا أن نضرب مثالين الأول بألمانيا والثاني الجزائر.

2- أ - الألمان الـتاريخ والوحـدة

شكل التاريخ لدى الألمان في الفترة الواقعة ما بين الثمانينات من القرن الثامن عشر وأربعينات القرن التاسع عشر، إمكانية للتعبير والكشف عن الوحدة والتقدم، بل وموقف فلسفي لتحديد علاقة الأنا بالعالم الخارجي (الطبيعة، الكنيسة) ونعني بالوحدة السياسية والتقدم ومواكبة حركة الثورة الصناعية التي كانت بوادرها بفرنسا وإنكلترا. ولذا كانت

الفكرة العامة التي وجهت التاريخ الألماني خلال هذه الفترة هي الوحدة والتقدم..فكان من الطبيعي ولبلورة هذين الفكرتين أن يأخذ الفلاسفة على عاتقهم رسم معالم هذا الوعي.

ولما كان ذلك، فكان من الطبيعي أولا تبرير عدم الحضور الألماني خلال التاريخ الماضي -الحاضر، ورسم معالم مستقبل نجد فيه ألمانيا معالم ذلك لا مستقبل.. لذا كان من الطبيعي أن يظهر "هردر" وكتابه أفكار في التاريخ الفلسفي للإنسانية، وكانط.. فلقد نادى الأول "بأن الشعوب هي على الرغم من اختلاف الأجناس والأمم والعصور، أعضاء في مجموعة أكبر، فهي ليست لحظات من تطور العنصر الإنساني نحو هدفه الأعلى".

إن عبارات "أعضاء في مجموعة أكبر" و"لحظات من تطور العنصر الإنساني" و"الهدف الأعلى " تبدو بريئة لأول وهلة، إذا أخذت وهي فارغة من محتواها.

لكن بمجرد أن يعيدها إلى تارخيتها الذي يتوافق طردا مع واقع متخلف لألمانيا..انفصام في الوحدة الألمانية -صراع الطوائف- وظهور الثورة الصناعية في فرنسا وألمانيا، عندئذ فقط نجد دليلا على محاولة واعية لإعادة بناء الوعي التاريخي العالمي الألماني نحو مستقبل يكتمل فيه التاريخ في هدفه الأعلى، هذا الهدف سيكون أكثر وضوحا عند عمانويل كانظ الذي يرى أن "التاريخ يصبح ذا معنى إذا نظر إليه كتقدم مستمر". وعند "هيغل" الذي يرى "أن تاريخ العالم بجميع مشاهده المتغيرة التي تسجلها حولياته هو عملية تقدم الفكر وتميزه".

فإذا كان الهدف العام عند كانط هو استيعاب حالة القلق والخوف من المستقبل الذي كان يحياه الفرد الألماني، فإن التاريخ إذا نظر إليه في كليته. عالميته "يبدو بالرغم من ذلك ذا نظام وقابلا للتعقل إذا نظر إليه من زاوية الكل" فان هيغل (محاضرات في فلسفة التاريخ) يرى أن التاريخ في منطقه هو تعبير واعي عن تطور عام لحتمية منطقية هذه الحتمية التي تظهر صورتها المطلقة في ألمانيا المستقبل.

إن هؤلاء الفلاسفة للتاريخ وجدوا في التاريخ مادة أولية للبحث عن تبرير واقعي لغياب الحضارة الألمانية طوال فترات التاريخ الماضية وعن الثورة الصناعية.. كما أنهم وجدوا في التاريخ قراءة صادقة متفائلة لمستقبل ألمانيا.. لذا لم يكن أمامهم سوى رسم رؤية استراتيجية من خلال إعادة قراءة التاريخ العالمي "فجعلوا من الحضارات القديمة طفولة الإنسانية.. ليجعلوا من الحضارة الجرمانية المنشودة كهولة الإنسانية ونضجها".

وخوفا من أي طوباوية قد تحكم التاريخ الألماني مستقبلا، نادى ماركس بضرورة الانتقال من مرحلة الحكم الهيجلي إلى الممارسة، وحدث ذلك فعلا حينما ظهرت لأول مرة الفلسفة الماركسية "فلسفة الممارسة الاجتماعية الواعية".

فانتهت فلسفة التاريخ الممارسة الميتافيزيقي وبدأ التحليل العلمي للتأريخ تحليلا يجعل من الواقع معطىً أوليا لدراسة تطور الأمم، من ثمة استطاع الألمان بفضل هاتين الرؤيتين، وبلورة نظرة فلسفية لعلاقة الأنا مع العالم الخارجي..أن يساهموا بصورة جادة في بلورة الوحدة الألمانية التي سرعان ما تكشفت في خوض ألمانيا لحربين عالميتين.. وذلك بفضل نوع التاريخ كما يقول "تولستوي ليس ما يريد الإنسان بل تصورنا لما يريد".. وفعلا ظهر هذا التصور في فرد لا يرى تقدما إلا في سيطرة الأنا على باقي المونادت -كما يقول لينيز.

2- ب - العرب التاريخ والوحدة

إن اهتمام العرب بالتاريخ يعود بنا إلى فترة ما قبل الإسلام إلى "أيام العرب"، ولكن التأليف التاريخي -أي التاريخ كتقنية- يعود إلى ذلك الاهتمام الواسع الذي أعطته الخلافة العباسية للتأليف من جراء ما تعرضت له من أزمات شعوبية- وان كان البعض يعود إلى ذلك الاهتمام الواسع الذي أعطته الخلافة العباسية للتأليف من جراء ما تعرضت له من أزمات شعوبية -وان كان البعض يعود بنا إلى الاهتمام الذي أولاه عمر بن الخطاب للتقويم الهجري- التي طعنت في الوحدة والنسب العربي إذ أن الشعوبية ادعت أنهم مجموعة قبائل متنافرة لا أمة واحدة.. واندفعت إلى مجابهة اللغة العربية..وحاولت تشويه تاريخ العرب.

لذا وتأكيدا للنسب والوحدة العربية نشطت حركة التأليف -خاصة كتب الأنساب والملوك للحفاظ على الوحدة العربية، عندئذ كان التاريخ هو رمز وكينونة الأمة..واستخدم لأول مرة كعامل استراتيجي لمقاومة الشعوبية، بل أن العرب ما قبل الإسلام احتفظوا بشاعر القبيلة الذي كان من خلال قصيدته يحفظ ويدون مغازي ونسب القبيلة. وفي ذلك دائما استخداما واعيا للتاريخ.

وإذا تركنا كل هذه الفترة كاختيار إجرائي فــقط.. وانتــقــلنا إلى عصر "النهضة" لوجدنا بأنه أقحمت في الخطاب التاريخي العربي النهضوي مفاهيم كمفهوم الأمة، الذي

كانت الحاجة الحيوية - السياسية خاصة دافعا لإقحامه.. كما شهد عصر النهضة العربية منشورات يومية وشهرية كانت غايتها القصوى المساهمة في بلورة الوعي العربي فبرزت خاصة "صحيفة وادي النيل.. وأسست الجمعيات كجمعية "المعارف تولت طبع الأصول في التاريخ واللغة والأدب".

فالنهضة العربية كانت بهذه الكيفية ترمي إلى تكوين وعي عربي لمواجهة خطر الأزمة التي لحقت به من الاستعمار خاصة فقد كان مثلا "الهدف الظاهر لحلقة دمشق الصغيرة، دراسة تاريخ العرب، وقواعد اللغة العربية أما الهدف الحقيقي، فكان بعث الوعي بالعروبة" لأنها رأت أنه بفضل الوعي العربي يمكن للعرب أن يتمايزوا عن الأتراك، وعن المستعمر الأوروبي. لذا بدا التاريخ حقلا معرفيا بحاجة إلى إغناء، ودراسة من قبيل العرب، فازداد الاهتمام به وظهر هذا في العديد من المرات "منها الدراسات التي قام بها أحمد أمين، ومنها الفصل القيم الذي أضافه الأستاذ عبد الحميد العبادي لكتاب علم التاريخ لمؤلفه هـــرنـــشـــو"؛ وغيرها من الدراسات التي حاول أصحابها تطبيق المناهج الوضعية في قراءة التاريخ مثل أسد رستم في مصطلح التاريخ.

في مقابل ذلك هناك من تيار التجديد - إذا جاز لنا تسميته هكذا - ممن حاولوا قراءة التاريخ العربي من خلال قضايا التراث، نذكر رفاعة الطهطاوي وطه حسين وقاسم أمين وعلي عبد الرزاق.

إن هذه المحصلة كانت تكشف عن تنبه واع للعرب تجاه تاريخهم لمجابهة الخطر- الغرب الذي كان يهددهم من الخارج، وذلك للمحافظة على الوحدة العربية. ولذا سرعان ما سارعت أغلبية الدول العربية بعد استقلالها لاحتكار مؤسسة التاريخ" وذلك لإحكام الضغط على المؤرخ بقصد كسب شرعية وجودها. إذ كيف يمكن في جهل ماضيها، إن تتماسك في ديمومتها الزمنية، وان تعرف ذاتها ولو بكلمة واحدة وكيف يمكن دون الاطمئنان إلى الماضي أن تستجمع أرثا جديرا بالتصدي لانتباه الناس و لم يكن ذلك ممكنا إلا من خلال التاريخ.

3ـــ الجزائر التاريخ والوحدة

والآن وبعدما أوضحنا بالأمثلة أن التاريخ كان دائما عاملا من عوامل بلورة الوعي الوحدوي، فإنه يصبح من الضروري دراسة ضرورة التوظيف العلمي لهذا الحقل، إذ "يجب

أن تكون جدول أعمال لأنها ضرورة إنسانية" وحتى تتبلور هذه النظرة لا يمكن أن تكون إلا في ظل استراتيجية عامة شاملة لأنه داخل إطار الاستراتيجية يجب أن نميز بين ثلاثة مستويات للاستراتيجية" المستوي الوطني أو المستوى الشامل...(والثاني) المستوى التخصصي، وفيه تختص الاستراتيجية بمجال معين (والثالث) المستوى الفرعي، وفيه تهتم الاستراتيجية بنوع من مجال".

أما نوع الاستراتيجية المرجوة هو من قبل النوع الأول والثالث إذ داخل الإطار الوطني نفكر في إمكانية فهم استيعاب وطرح التاريخ كمجال حيوي أي الانتقال من الحدث إلى التاريخ الاستراتيجي، وذلك أن التاريخ والكتابات التاريخية في الجزائر ولمدة ثلاثين سنة (1962-1992) وظف إيديولوجيا، وهي صورة التاريخ الذي نحتته القوى الشعبية المناضلة بمعزل عن "النخب المثقفة".. والواقع، أن الأمر يتعلق هنا باختزال بائن للحقيقة، وتعسف في القراءة".

إن مثل هذه القراءات وغيرها غيبت حقيقة الشعب الجزائري، وليس الأزمة، أزمة الهوية التي يعاني منها الشعب الجزائري اليوم إلا إفرازا منطقيا لصراع إيديولوجي لاكتساب سلطة التاريخ. فبرنامج طرابلس حدد الاختيارات الكبرى للمسألة الثقافية من خلال :

- تأكيد الانتماء العربي للجزائر.
- بناء القدرات الاقتصادية الوطنية.
- معاداة الإمبريالية وإنجاز الإصلاح الزراعي.
- تحقيق مجمع العدالة والمساواة.

ولعل المتطلع على هذه الأهداف يكتشف غلبة الترعة التاريخية أي سيطرة الماضي (التراث) استلهامه لأهداف الثورة في حين أن الحاضر غيب أو بدا ضبابيا في هذه المحاور.. أي لم يكن الهدف هدفا استراتيجيا بقدر ما كان مثلما يقول مصطفى الاشرف يهدف إلى تكوين الوعي الثوري... ولم يكف هذا بل أن هذه الترعة وظفت في المسألة التنموية بعد الاستقلال بشكل أكثر اتساعا...وكان الهدف دائما هو البحث عن الوحدة من خلال التاريخ الذي كان دائما يأتي مغلفا في قالب التراث.

في مقابل هذا التوظيف الإيديولوجي فإنه لو تصفحنا حمل التشريعات لا نعثر منذ الاستقلال على مرسوم أو قرار ينص على إنجاز أكاديمية للمؤرخين رغم ما كانت تستفيد منه الدولة من أبحاث المؤرخين. إلا في سنة 1983 وطبقا للمرسوم رقم 83/88 المؤرخ في 19/ 1983/11 والمتضمن إنشاء المركز الوطني للدراسات التاريخية" بل أن الأمر يزداد تذمرا إذا عرفنا أنه في سنة 1989/88 استقل معهد التاريخ بوهران عن العلوم الاجتماعية في حين آن التاريخ مازال دائرة ضمن معهد العلوم الاجتماعية بقسنطينة.. في حين أن علم الاجتماع نجده في أغلب الجامعات الجزائرية كمعهد مستقل، سؤال مبهم !

إن هذه الوضعية في التعامل مع التاريخ تزداد سوءا على مستوى البرامج وتوظيفها للتاريخ أو التشريعات أو التقسيم للمراكز العلمية.. حالت دون انتقال التاريخ من طابعه الحديث لطابعه الاستراتيجي..لعل الأزمة التي تمر بها البلاد الآن..يكفي أن تقرأ جذورها في التاريخ الواقع ما بين فترة 1965/1962م حينما تصارعت التيارات الدينية مع المشروع التنموي للرئيس أحمد بن بلة.. فبعد صدور ميثاق 1964م وظهور بعض المشاكل السياسية على مستوى القمة، استغلت الحركة الدينية هذه الفرصة لتكتب بمجلة المعرفة 1964 داعية الشعب للوقوف حيال السلطة آنذاك فقد جاء هذا المقال منددا بالسلطة مصرحا آن علماء الإلحاد والشيوعية ما هم إلا دعاة فاجرون يسعون إلى تلطيخ سمعة الدين: "إحذروا وافرضوا وجودكم على الأعداء، بصمودكم وعزمكم سوف ينتصر الدين".

ولم يكن أمام بن بلة آنذاك إلا أن يرد عليهم بقوة مخاطبا الشعب "آن بعض ذوي الذهنيات الخبيثة يقولون بأننا أبواق للشيوعية لكننا نقول لهم بأننا جئنا بمهمة عربية إسلامية وان شعارنا العروبة والإسلام. إننا لم نستورد اشتراكيتنا من بلد أجنبي ولكنها (أي الاشتراكية) استجابة لواقع بلدنا".

إن صراعا بمثل هذه الكيفية لو أننا غيبنا عنه الأسماء والتوقيت واعدنا الخطاب إلى واقعنا اليوم لنسبنا كلاهما إلى طرفي الصراع الآن..والسبب في كل ذلك هو أن التاريخ دائما كان غائبا لم يساهم بصورته المرجوة في احتواء الثوابت الوطنية لا بكيفية حديثة كما نفعل اليوم مع أعيادنا الوطنية- وهذه الصورة كذلك يجب أن يعاد فيها النظر قبل أن تصنف ضمن

الفلكلور- بل بصورة استراتيجية...إذ بمجرد أن حاولت السلطة ما بين 1990/1979 رفع الرقابة على بعض التيارات والانفتاح اكثر على الشعب جرى ما لم يكن يتوقع.

إذا وبعد أن أوضحنا بعض الخطوط العريضة -رغم إيماننا بأن هذا يتطلب تفكرا أعمق وأوسع لمسألة الوحدة، يكفي أن نذكر في الأخير بالضروريات لأية استراتيجية شاملة وفرعية، وتعاملها مع التاريخ :

1 ـ ضرورة تكوين مدرسة للتاريخ الجزائري.

2 ـ طبيعة الحدث وجوب مراعاته حتى لا تتحول الأعياد إلى فلكلور وعندئذ تصبح المتاحف مصيرها.

3 ـ الانتقال من التاريخ الحدثي إلى التاريخ الاستراتيجي ويكفي أن نذكر هنا بدور السينما في قراءة التاريخ إذ لا يجب أن نركز فقط على أفلام الثورة دون الانتقال إلى تسجيل وقراءة التاريخ الجزائري من خلال فترات سبقت الثورة.. ثم إدخال مجالات التاريخ الاقتصادي الاجتماعي الفلسفي، للمنظومة التربوية إذ ماذا يرجى من طالب/ رجل المستقبل يدرس حنكة وبطولة زعيم من زعماء الثورة المظفرة يجهل تماما الاخضري عبد الرحمن ودوره في المنطق الارسطي.

4 ـ التفكير في قراءة التاريخ تتناسب ووضعنا العالمي إذ يجب أن يعمل التاريخ الآن على تكريس النزعة العقلانية والديمقراطية في ذهنية الفرد الجزائري وعندئذ فقط يمكن للتاريخ كما قال فاليري أن يكون اخطر ما أنتجه الكيمياء البشرية.

الهوامش:

1 - R.Aron , Les Dimensions de la conscience historique, 2eme édition, libraire Plon, Paris.1964,p.6

2 - Aron. ibid. p 93.

3 - R. Arlendez , Prophetime et histoire, les mardis de Dar El Salam, Paris, 1950, P37.

4 R.Aron. Idem. p 09.

5- Marvin Farber , L'activité philosophique contemporaine en France et aux U.S.A" Tome2. P.U.F ,Paris, 1950. p 326.

6- مصطفى طيبة ،رؤية جديدة للناصرية، تقديم أمين عز الدين: ط1، دار الطاسيلي للنشر و التوزيع، الجزائر، 1986،ص 29.

7 - R.Aron, Op.cit., p.95.

8- د.عبدالله العروي ، مفهوم التاريخ. ج الأول: الألفاظ و المذاهب. ط1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب. 1992. ص 23.

9- د.عبد الله العربي ،المرجع السابق، ص 23.

10- نفس المرجع ، ص 24.

11- نفس المرجع ، ص 24.

12- -Marvin Farber . Op.cit., pp 331,332.

13- مجلة الوحدة، العدد 69 ،جوان 1990، ص 6.

14- د.محمد عابد الجابري . التراث و الحداثة دراسات و مناقشات ،ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ، سنة1991 ،ص 96.

15- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 97

16- نفس المرجع ، ص 97

17- نفس المرجع ، ص 97

18- نفس المرجع ،ص 99

19- د.عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، ط1، م دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سنة 1984: ص ص100. 101.

20- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق، ص ص 137 138.

21-نفس المرجع، ص 196.

22- السيد عبد العزيز سالم، التاريخ و المؤرخون العرب، ص ص 09، 10.

23- جوزف هورس،قيمة التاريخ، ترجمة نسيم نصر، ط3، منشورات عربية، بيروت، 1987، ص 97.

24- هيثم كيلاني:"جولة في عالم الإستراتيجية"، مجلة الوحدة، العدد 69 ،جوان 1990، ص 6.

25- المنصف وناس ،المسألة الثقافية في المغرب العربي: "في الدولة و المسألة الثقافية في الجزائر: دراسة في التغير الثقافي و الاجتماعي، دار أليف. ص ص 32-34.

26- المنصف وناس:"المرجع السابق، ص 51.

27- أ/ مينود سفاري ،"الصراع بين الدين و الإيديولوجيا في الجزائر غداة الإستقلال". مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية و الإجتماعية، العدد 2: 1993 ،ص 05.

28- أ/ مينود سفاري،المرجع السابق، ص 06.

العقيد بن حدو بوحجر المدعو " سي عثمان":

1977-1927

أ / عبد القادر جلالي (*)

ولد ابن حدو بوحجر المدعو "سي عثمان " في 27 نوفمبر 1927 [1] في مدينة عين تموشنت أين نشأ وترعرع، وحيث ناضل في "حركة أحباب البيان والحرية" ثم في صفوف شباب "حزب الشعب الجزائري"، وهو لا يزال يافعا في السادسة عشر من العمر.

وابتداء من هذه الفترة تشبع بالأفكار الوطنية والروح الثورية، وقد كلف من طرف مسؤوليه المباشرين في "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" بالقيام بالحملة الانتخابية لصالح مرشحي الحزب، خلال فترة الحاكم العام نيجلان.

تم اختيار ابن حدو بوحجر في عام 1948 رفقة مجموعة من المناضلين الآخرين، من بينهم واضح بن عودة، للنشاط في إطار "المنظمة الخاصة"، الجناح العسكري للحزب. وبعد تلقيه لتدريبات جد مكثفة ، التقى بكل من العربي بن مهيدي ورابح بيطاط اللذين أطلعاه على أخبار وأوضاع الحزب وأهداف المنظمة.

إن تكوين ابن حدو بوحجر العسكري هذا جعله وبعض المناضلين على أهبة الاستعداد لأي عمل عسكري، إلا أن الأسلحة القديمة التي كانت بحوزتهم لم تمكنهم من بلوغ هذا المسعى.

تم إلقاء القبض على ابن حدو بوحجر من قبل الشرطة الفرنسية بعين تموشنت في 03 ماي 1950 أثناء حملة الإعتقالات التي استهدفت كل المناضلين بعد اكتشاف أمر المنظمة الخاصة، والتي شملت كل التراب الجزائري من تبسة إلى مغنية. نقل بعدها إلى السجن

(*) باحث في التاريخ الحديث والمعاصر وعضو في مخبر البحث التاريخي "مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

المدني بوهران أين تعرف على كل من حمو بوتليلس وأحمد زبانه.

تكون بوحجر سياسيا أثناء فترة السجن مستغلا تلك الدروس التي كان يلقيها حمو بوتليلس عن التنظيم السياسي. وبعد تقديمه للعدالة حكم عليه بثلاث سنوات سجنا نافذة، إلا أنه قدم استئنافا فأمرت إدارة السجن بتحويله إلى الجزائر العاصمة.

نشط ابن حدو بوحجر كثيرا في السجن فقد قاد حملة توعية واسعة داخل السجن رفقة بعض المعتقلين، لبث الروح الوطنية في أوساط سجناء القانون العام قصد تجنيدهم للقضية الوطنية، وقد صار العديد منهم من الأسماء التي خلدتها الثورة التحريرية. وفي هذه المرحلة أصبح يلقب بـــ"سي عثمان"، احتراما له واعترافا لدوره البارز في الحركة الوطنية.

خلال هذه الفترة دخل المعتقلون السياسيون في إضراب عن الطعام[2] تعبيرا عن رفضهم للوضعية الصعبة التي كانوا يعيشونها السجن وتفاقم مشاكلهم مع الإدارة. وقد لعب سي عثمان دورا رائدا داخل السجن في توجيه الأحداث، علما أن الإضراب قد برمج له ليصادف اجتماع الأمم المتحدة في باريس.

وقد حقق الإضراب نتائج مرضية بالنسبة للمعتقلين السياسيين، غير أن إدارة السجن قررت فصلهم عن سجناء القانون العام حتى لا تنتشر "العدوى الوطنية" إليهم.

وبعد أن مثل ثانية أمام المحكمة بالجزائر في الاستئناف، حكم عليه بثلاث سنوات سجنا نافذة، وثلاث سنوات إقامة جبرية وحرمانه من حقوقه المدنية لمدة ثلاث سنوات.وقد أسرع مرضه وتدهور قواه في الإفراج عنه وذلك في 02 ماي 1952.

وبعد الإفراج عنه، ضاقت الدنيا بسي عثمان إذ أنه لم يعد يستطيع التحرك إلا في الخفاء والسرية، وقد أدى به المطاف إلى الاستقرار في قرية لورمال (حاسي الغلة حاليا)[3] التي استوطنتها شرذمة كولونيالية عنصرية متطرفة منذ منتصف القرن التاسع عشر.

على إثر ظهور أزمة "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" في نهاية 1953، عين سي عثمان مسؤولا على قسمة الحزب في هذه القرية. وكان له دورا مهما في تعبئة صفوف المناضلين الذين بدت معنوياتهم منهارة بسبب الانشقاق الخطير في الحزب، داعيا إياهم إلى انتهاج الطريق الأكثر ثورية ألا وهو العمل المسلح.

عرفت بداية 1954 مولد "اللجنة الثـورية للوحدة والعمل" وكذا ظهـور العدد الأول من جريـدة (le Patriote)؛ وهي الفترة التي استرجع سي عثمان ورفقاؤه فيها الثقة بالنفس، وبدأوا في التدريبات شبه العسكرية داخل المخازن المهجورة بالقرب من لورمال في سرية تامة. وباشر في إنشاء خلايا تضم المناضلين في القرى والدواوير المجاورة والعمل على الحصول على أسلحة نارية، كما كلف أحد الحدادين بصنع قنابل تحسبا لموعد اندلاع العمل المسلح الذي كان يراه وشيكا.

وللإشارة، فإن سي عثمان قد قرر ورفقاوه الإنطلاق في العمل العسكري، غير أن العربي بن مهيدي المدعو سي الهواري أقنعهم بتأجيل ذلك، بالنظر إلى الإستعدادات السرية التي كانت تحضر لها لجنة التسعة على المستوى الوطني.

و لم يمر وقتا طويلا قبل أن تكتشف القوات الاستعمارية أمر المجموعة التي كان يقودها سي عثمان بفضل معلومات تحصلت عليها عن طريق الوشاية، فجندت كل الوسائل العسكرية للقضاء عليها؛ إلا أن حنكة سي عثمان جعلته يفلت بأعجوبة من حملة الاعتقالات التي استهدفت كل المناضلين في منطقة لورمال، قبل أن يلجأ إلى المغرب الأقصى.

اتصل سي عثمان في وجدة بكل من غديري حسين وسي الطيب عبد الباقي- لما كان لهما من تأثير ودور في أوساط الجالية الجزائرية- فقرروا الذهاب إلى منطقة الناضور الإسبانية قصد اقتناء أسلحة عن طريق مهربين أسبان؛ إلا أن المصالح السرية الإسبانية كشفت أمرهم فاعتقلتهم ثم حولتهم إلى الحدود الإسبانية المغربية، قبل أن تطلق سراحهم بعد ذلك إثر تدخل شخصيات مغربية مقيمة هناك.

بعد إطلاق سراحهم التقوا العربي بن مهيدي الذي أشرف على إنزال حمولة باخرة دينة في أبريل 1955، فأمر سي عثمان وحسين غديري، الذي ينتمي إلى المنطقة الحدودية، بنقل كمية من الأسلحة إلى مغنية في أسرع الآجال، والبدء في التنظيم لهجمات عسكرية كبرى في كافة أنحاء الغرب الجزائري.

كان لابد من نقل هذه الأسلحة عبر الجبال والوديان والمسالك الوعرة، وفوق الدواب وعلى أكتاف المناضلين. ليتم في الأخير تخزينها في مخابئ سرية بعيدا عن أنظار الناس،

خاصة العملاء. وبقي سي عثمان ورفقاؤه الذين يؤمنون بالعمل المسلح يحضرون أنفسهم في انتظار الأوامر لبدء الهجوم.

وجاءت الأوامر بشن هجمات كبرى ضد الجيش الفرنسي والمصالح الاستعمارية في الفاتح من أكتوبر1955، فانطلاقت العمليات العسكرية من جبل فلاوسن نحو جبال طرارة وتلمسان ومن جبال تسالة نحو سيدي بلعباس وجبل عنتر نحو البيض وعين السفراء وجبال بني شقران نحو معسكر وسعيدة، ليعلن جيش التحرير عن سيطرته على كافة أنحاء الغرب الجزائري ويكشف عن قدرته على ضرب الأهداف الاستعمارية أينما كانت وفي كل وقت. عين سي عثمان نائبا لقائد فصيلة وأمر بالعودة إلى قطاع لورمال الذي يعرفه أدق المعرفة، والذي سيصبح بعد مؤتمر الصومام المنطقة 3 للولاية الخامسة التاريخية. التحق مباشرة بلورمال وبدأ في تنظيمها من خلال تنصيب خلايا اتصالات عبر الجبل المؤدي إلى غابة وهران ليؤمن الدخول إليها والخروج منها للفدائيين والمجاهدين.

اتصل في مدينة وهران بالمسؤولين المحليين من بينهم عائلة حمو بوتليلس، حيث جعل من سكناهم الكائن بحي المدينة الجديدة، مركزا للاتصال مع "سي علي" عم حمو بوتليلس وابنه حمو مختار، الذي سقط شهيدا فيما بعد في ميدان الشرف.

وقام سي عثمان في 06 ماي 1956 بمعية جماعة من المسبلين، بهجوم شامل تم خلاله حرق 72 مزرعة. وكثف من عملياته التي أفزعت السلطات الفرنسية وكل الجالية الأوربية التي سارعت إلى إنشاء ميلشيات مسلحة فاشية.

كما قاد عدة عمليات مسلحة من بينها: عملية زاوية سيدي بن معمر، والهجوم على قرية ساسل ومداغ الذي دام ثلاثة أيام. وقد أثبت رفقاؤه من الجنود القدامى في حرب الهند الصينية جدارة كبرى وشجاعة لا تضاهى في القتال والبسالة. وغنموا من العدو كمية كبيرة من الأسلحة.

بفضل هذه العمليات ظفر بثقة قيادة جيش التحرير الوطني، مما ساعده على التدرج بسرعة في سلم الرتب العسكرية. بعدها، كلف بمهمة التصدي لجماعة مصالية معادية بمنطقة مستغانم، فقضى على نصفها، بينما التحق النصف الآخر بصفوف جيش التحرير الوطني.

وأشرف سي عثمان على تنظيم هذه الناحية في فترة وجيزة، وذلك بمساعدة مقاومين اكتسبوا خبرة عسكرية كبرى في الشرق الأقصى في صفوف الجيش الفرنسي؛ من أمثال سي عبد المؤمن، سي زغلول، سي محمد بني صاف وآخرون، والذين كان لهم الفضل في انتصار جيش التحرير الوطني في معركة سيدي غانم المشهودة.

من مستغانم، زحف سي عثمان بجنوده حتى تنس، حيث اتصل بقيادة الولاية الرابعة ليربط بينها وبين الولاية الخامسة، ثم عاد رفقة أربع فصائل ليشن هجوما كاسحا على المصالح الفرنسية بمنطقة كاسان [4]، دام ثلاثة أيام. وباعتراف قيادة أركان الجيش الفرنسي في المنطقة، فقد تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، كان لها صدى كبيرا في الصحافة الفرنسية خصوصا الجرائد الكولونيالية بالغرب الجزائري[5].

وقد استشهد خلالها عدد من المجاهدين البررة وجرح عدد آخر منهم، منهم من توفي بسبب عدم توفر الهياكل الصحية تلك الفترة أو نقص الأدوية.

دعم جيش التحرير الوطني، بعد مؤتمر الصومام بمنشآته لتتماشى واحتياجات العمل المسلح، ورقي سي عثمان إلى رتبة نقيب، قائدا للمنطقة الثالثة للولاية الخامسة. فقام بتعيين أربع نواب له: الملازم الأول عبد المؤمن، سي خير الدين، سي زغلول وسي حمزة، وبعد استشهاد الأول والثاني عين كل من سي مصطفى وسي مجاهد مكانهما.

التحق سي عثمان بمركز القيادة بوجدة عام 1957، وذلك لحضور اجتماع قادة مناطق الولاية الخامسة، وهناك تعرف على سي سليمان (قايد أحمد)، ولطفي، وسي ناصر (مختار بوعيزم)، وفراج، وحنصالي، وسي رشيد، وشعبان؛ بالإضافة إلى هواري بومدين قبل أن يصبح قائدا للولاية الخامسة، خلفا لسي مبروك (عبد الحفيظ بوصوف) الذي عين وزيرا في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في خريف 1958.

إثر انتهاء الإجتماع، عاد سي عثمان إلى منطقته ليقود، بلا هوادة، العمل المسلح ضد قوات الاحتلال مزودا بأسلحة وعتاد جديد تحصل عليه في تلك الفترة.

وفي 1958، عين سي عثمان عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية و أرسل إلى مركز قيادة الولاية الخامسة في القواعد الخلفية برتبة رائد، ليعين في أبريل 1961 عقيدا قائدا للولاية الخامسة التاريخية، خلفا للعقيد لطفي الذي سقط شهيدا في معركة قرب جبل بشار.

بقي سي عثمان على رأس الولاية الخامسة يقود الكفاح المسلح ضد المستعمر إلى غاية الاستقلال. طوال كل فترة قيادته للثورة في الغرب الجزائري، اتسم سي عثمان بالشجاعة والجرأة، والذكاء واتزان القرار. وقد ترك في أذهان كل من عاصره صورة الرجل المسؤول، المتواضع والعاقل ؛ وهي كلها خصال الرجل العظيم.

بعد الاستقلال، عين سي عثمان في عدة مناصب مسؤولة، خاصة عضويته في مجلس الثورة المنبثق عن 19 جوان 1965.

انتقل العقيد عثمان إلى جوار ربه يوم 27 أوت1977 بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة على إثر مرض عضال[6].

الهوامش:

1- تتضارب الشهادات حول مكان مولده، منهم من يقول مدينة وهران ومنهم من يذكر حاسي الغلة، وآخرون قرية سيدي بن عدة. وما يزيد الأمر تعقيدا وجود عدة وثائق لشهادات الميلاد تؤكد كل طرح.

2- هناك اختلاف كذلك حول مدة هذا الإضراب الذي يتراوح بين 30 إلى 45 يوما.

3- حاليا حاسي الغلة بولاية عين تموشنت.

4- حاليا سيدي علي بولاية مستغانم.

5- ونخص بالذكر: "Echo d' ORAN " و" ORAN Républicain "

6- جريدة الجمهورية 1977/08/28.

استعنا في إنجاز هذه اللمحة التاريخية، على بعض رفقاء العقيد "سي عثمان" وأرشيف المكتب الولائي للمنظمة الوطنية للمجاهدين، لجنة الثقافة والإعلام؛ وكذا كاتبه الخاص سي عزيز (بلزرق محمد) وأرملته المجاهدة ميمونة.

أعلام الفكر والتصوف بالجزائر

الحلقة الأولى : القديس أوغستين

أ /عبد القادر بوعرفة (*)

توطئة :

منذ العهود القديمة والغابرة عرفت بلاد الجزائر حواضرا علمية وثقافية،كان لها الأثر الكبير في تفتيق العقل البشري،و تشبيع الساحة الفكرية العالمية بالفكر وما يتبعه من لواحق إبداعية تتجلى الحضارة من فيض عطائها،إن العقل الجزائري هُمش وغُيّب من طرف الأنتلجنسيا الجزائرية أولا، ذلك أن الصراع الفكري بين أبناء الجزائرجعل كل طرف يتمسك بأعلام ورجالات خارج بلازما وجوده فإما توجه سافر نحو الغرب أو انحياز مقيت للشرق.

أصبح النشء الجزائري عموما لا يعرف من تاريخ بلاده العلمي إلا بعض المعالم الباهتة والرموز الطافحة على هامش التاريخ ،إن البحث والتنقيب عن أعلام الفكر في الجزائر على امتداد حقبها غِنى الجزائر بالعلماء والمفكرين الذين أثروا التراث العالمي بالمؤلفات والمصنفات التي لحد الساعة أغلبها يظل مجرد مخطوطات تنتظر الأرضة لتلتهم ما تبقى من صفحاتها.

لم يكن هناك تاريخ للفكر في شخص العَلَم، نستثني فترة القرون الوسطي أين نجد الغبريني يؤرخ لعلماء بجاية من خلال كتابه (عنوان الدراية في أخبار علماء بجاية)، ونلمس نحوه عند ابن فرحون وهو يؤرخ لعلماء المذهب المالكي في مصنفه (ديباج

(*)رئيس قسم الفلسفة وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

المذهب في أعيان المذهب)،أما العهد القديم والمتمثل في الحضارة الأمازيغية، فنلاحظ ما يلي:

1- الحواضر العلمية تمركزت في الشرق الجزائري،وتوزعت في ربوع نوميديا ومداروواش وبونة وسيرتا،بينما لم نشهد إلا بعض الحواضر في الوسط كشرشال (بول).

2 - العقل الجزائري توزع بين المرجعية الأمازيغية الوثنية الأكثر بساطة في تشكلاتها المعرفية والمرجعية واليونانية _ الرومانية التي تحمل إرثا حضاريا أكثر تجذرا في طبقات المعرفة الإنسانية المتراكمة.

3 - الفكر الجزائري وقع في دائرة التوفيق بين النص المسيحي الوافد والمتن الفلسفي اليوناني فنتج عن ذلك إما محاولة للتوفيق بينهما توفيقا يجعل الدين المسيحي الجديد أكثر احتواء له وثراء منه، ونلاحظه من خلال أعمال سان أوغسطين في (مدينة الإله) أو في رسالة (السعادة)، ومن جهة أخرى محاولة رفض أو قبول الدين الجديد عن طريق الفعل والعقل،كما فعل أبوليوس في مشواره الفكري الأول قبل أن يحدث له التحول الجذري في كل جوانب حياته، ونلمس ذلك من خلال كتابه (الدفاع) يعكس التحولات التي تحدث للمفكر الحر،كما يعكس المعاناة التي يعيشها كل مفكر في مجتمع متعدد المشارب الثقافية والإثنية .

كما نلمس محاولة أخرى تحاول تغليب التراث المحلي الوثني والاعتزاز بالإرث القومي،كما فعل يوبا الثاني في كتابه (إيبكا) بالرغم من كونه تربي في القصر الروماني.

ومن خلال أبوليوس صاحب الحمار الذهبي ويوبا مؤلف إيبكا وأرنوب كاتب رسالة رد على الوثنين،ثم سان أوغسطين مبدع مدينة الإله نكتشف فضاء للفكر،وعقلا يحاول أن يؤسس لنفسه نسقا متميزا يتلاقح فيه المد الفلسفي الإغريقي والمد المسيحي في تشكلاته الأولي، وبعد القرن الثالث الميلادي يشهد العقل الجزائري بياتا حضاريا لم تعلن نهايته إلا مع بداية القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي.

تفتق العقل الجزائري في العصر الوسيط علي معضلات علم الكلام بالخصوص نتيجة دخول المذهب الإباضي وتأسيس الدولة الرستمية بتيهرت، وكان للمناظرة الكلامية تأثير كبير في خلق مجال للتنظير الإيديولوجي والمذهبي، فَأُلفت في ذلك المؤلفات ونسخت

المجلدات، وكان أبرز أعلام هذه الفترة المتقدمة من التواجد الإسلامي علماء الإباضية كالتيهرتي وعبد الله اللمطي.

لقد تمركز الإشعاع الفكري في حاضرتين بجاية وتلمسان ،وكانت أهم القضايا المُعالجة في تلك الفترة تتمثل أساسا في مسائل علم الكلام التقليدية ،كالجبر والحرية، التشبيه والتجسيم،فانطبع التأليف بالردود وفن المحاججة والمغالبة، ويتجلى بصورة ملفتة في كتابات أبي القاسم القسنطيني (تتريه الإله وكشف فضائح المشبهة الحشوية)والكومي التلمساني صاحب كتاب(فرقان الفرقان) وأبي بكر الوزان صاحب رسالة(الرد علي الشبوبية).

بعدها انتقل العقل إلي ميادين العقيدة والتوحيد ،حيث أُلفت في ذلك الرسائل الطوال والمؤلفات الضخام، أمثال ما كتبه الإمام عبد الله السنوسي(عقيدة أهل التوحيد)و(العقيدة الوسطى) ثُم (العقد الفريد في حل مشكلات التوحيد)، وكذا أبي زيد الثعالبي صاحب (الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والعقيدة).

وفي أواخر القرن الخامس عشر غلب التأليف في مجال التصوف والزهد، حيث برز علماء أمثال ابن زكري الحائك والشيخ طاهر بن زيان القسنطيني صاحب كتاب(القصد إلي الله).

ومما سبق نلاحظ أن العقل الجزائري في العصر الوسيط امتاز بما يلي:

1 ـــ التركيز على مسائل الفقه وكثرة التأليف في بعض الموضوعات الفقهية بصورة غير موضوعية،خاصة مسائل فقه الفروع.

كما نلاحظ تكرا ر ممل في إعادة شرح بعض الرسائل الفقهية كرسالة خليل بن إسحاق التي شُرحت أكثر من عشرين مرة .

ورسالة ابن الحاجب أُلف حولها ما ينيف عن العشرين مدونة كشرح الونشريسي وابن زكري والتقاونسي والعنابي ...

2 ـــ غلبت العقل السجالي المهتم بالفروع والعوارض،مما جعل الكتاب مجرد من التحليل والتركيب بل يحمل مضمون المطارحة والتي هي من سمات أمراض الحضارة التي تدل علي علامات بداية الأفول.

3 ـــ غلبت الأراجيز الشعرية على الكتابة العلمية بالخصوص كالمنطق (الأخضري) في السُّلم المرونق،وبالرغم من كونها طريقة ناجحة لترسيخ المعلومات وحفظها،إلا أنها طريقة

سلبية كونها تجعل العقل لا يفكر ولا يبدع وإنما يجنح إلى حصر المعرفة بالكم، وأشهر الأراجيز أرجوزة الأخضري والبيدري و المشدالي.

4 ـــ حضور المخيال الأسطوري في الفكر الصوفي،ويتجلي بالخصوص في شخص الشيخ حيث نلاحظ عقلا يبني أصناما بشرية في مخياله الثقافي يغدقها بفيض من الصفات لانجد نظيرا لها في الملاحم، وكمثال على ذلك يكفي مطالعة كتاب (عنوان الدراية) لأبي العباس الغبيريني.

5 ـــ بروز ظاهرة التنوع والاختلاف،مما يعطينا صورة واضحة عن التعايش الثقافي والسلم الفكري في وسط الأنتلجنسيا الجزائرية، والتي لم ترفض الأخر،وكنموذج ما وقع بين المغيلي والإمام السيوطي والذي سيكون موضوع دراستنا لاحقا.

6 ـــ قد لا يخطئ المحلل حين يجزم أن النخبة المفكرة الجزائرية أسست لسلطة المعرفة بدل معرفة السلطة، والدليل في ذلك ما نلاحظه في أعمال عبد الله الأصولي وعبد الكريم المغيلي.

7 ـــ الاهتمام بالآخر – مفكر ـــ وتأسيس مبدأ مناصرة العقل أينما كان كمناصرة عبد الله الأصولي لفيلسوف قرطبة ابن رشد.

8 ـــ ظهور أولى بوادر العقل النقدي المتأسس على قواعد إبستيمية، خاصة في مجال النقد الأدبي ،كما هو الحال في أطروحات ابن رشيق المسيلي خاصة كتابه (العمدة) و(المساوئ).

وفي ختام المقدمة لابد من الاعتراف أن نقص المصادر الأصلية وعدم العناية بالمخطوطات صعب من عملية البحث العلمي، فالإطلاع المباشر على التراث هو الحل الوحيد الضامن والكفيل لتأسيس رؤية نقدية ،وأرضية خصبة لتفعيل الجو الثقافي الجزائري من جديد وكما قال الفيلسوف ديدرو: " إذا كانت الجنة دار خلد للمؤمنين فإن الخلف خلد وجنة الحكماء". ولعل الفكرة ذاتها هي التي دفعت أبي القاسم الحفناوي إلي تأليف كتابه (تعريف الخلف برجال السلف).

إن الوجود الحضاري لأمة ما لا يقاس فقط بما أنجبته من أعلام وعلماء، وبما أنتجته من روائع الفكر والأدب. لقد آن أن نقول أن الجزائر بماضيها العريق وحاضرها العتيق صنعت مدرسة فكرية تمتد جذورها في كل ثقافات العالم.

سان أوغستين :[1]

إن الفلسفة المسيحية تتجلى في فلسفة سان أوغسطين أكثر من غيره من الفلاسفة لكونها استطاع أن يتشرب الفكر المسيحي في صوره الأولى وينهل من الفلسفة الأفلاطونية خاصة من أصولها، ونتيجة لذلك جمع بين الفلسفة والدين،وتظهر فلسفته في جل مؤلفاته خاصة كتاب (مدينة الإله) وكتاب (الاعترافات).

إن مدينة الإله مشروع لإصلاح الفرد الموزع بين مدن الشر التي تنتشر في الأرض كما ينتشر الفطر،وفي نفس الوقت مشروع لإصلاح السياسة و المدن الفاسدة في عصره،وكلا المدينتين مدينة بالتعبير المجازي، يقول سان أوغسطين:" إننا ندعوهما في اللغة المجازية "مدينتين أيضا"أي مجتمعي رجال ، الأول مهيأ مسبقا ليسود أبديا مع الإله،والأخر لأن يتلقى عذبا أبديا مع الشيطان"[2].

والأفلاطونية استثمرت في الخطاب الأوغسيتي لأجل التنظير لمعالم مدينة فاضلة تجعل من الواحد القيمة المطلقة للخير،وأصل كل موجود ومنتهى كل معبود، إن المرجعية الأفلاطونية تتجلى في طبيعة المدينة التي تتعالى عن كل ما هو أرضي، وتحاول أن تصنع مجتمعا متميزا لفئة الأخيار الذين يصهرون في الفكرة المتعالية عن ما هو أرضي.

إن تدبير الحياة ينبغي أن يكون وفق ما كان وليس وفق ما هو كائن،لأن ما هو كائن كله يعكس مدن الشّر التي تستمد أفكارها وفلسفتها من الشيطان، إن مدينة الإله مدينة مستقبلية خُصت للأخيار من فيض العناية الإلهية، وهنا يتجلى الهاجسَ السياسي المؤسس على نظرة ثيوقراطية تجعل السلطة المطلقة للإله.

إن سان أوغسطين يجعل مدينته متعالية عن كل ما هو واقعي ،إذ هي مدينة سماوية[3] ترفض الانصياع لأوامر الإنسان الأرضي[4]، إن نظام المدينة يشبه نظام الملائكة فلا تخاصم ولا نزاع وإنما الكل يعيش في تناغم لا نظير له إلا عند معشر الملائكة.إن هذه النظرة تعكس نقدا لاذعا لنظام المدن المعاصرة له، فهي في رأيه كلها باعت نفسها للشيطان وخاصة تلك المدن الواقعة تحت حكم الرومان، لكن هذا لا يعني عدم عظمة المدن الرومانية التي صنعها أبطال كروميلوس وسكيفولوس وريجيلوس، غير أن المدينة الرومانية تحتاج إلى الإيمان حتى ترقى إلى مصاف مدن الإله ، يقول سان: " اطمعي بالأحرى بهذه الخيرات ،يا عبقرية

الشعب الروماني النبيلة ،يا عرق ريجيليوس REGULUS وسكيفولوس SCEVOLA وشيبيون SCIPION وفابريكيوس FABRICIUS اطمعي بها بالأحرى، وميزها عن تلك التفاهة الدنيئة، وذلك الخبث الخادع للشياطين ، وإذا لمعت فيك هبة طبيعة جديرة بالمديح فإن التدين الحقيقي وحده يستطيع أن ينقيها ويجعلها كاملة ،في حين أن الكفر يجعلها تتلف ويسبب هلاكها.."[5] . إن المدينة الرومانية تحتاج للإيمان كي تدخل ضمن مدن الإله.

إن مدينة الإله يغيب فيها الصراع بين الخير والشر وكل الثنائيات،ونلمس في هذا الطرح نقدا للفكر المانوي الذي اعتنقه سان أوغسطين في بداية مشواره،إن الخير هو السيد لا ينازعه الشر ولا يقاربه، لأن الجماعة المؤمنة تتحد بعد طهرها الأبدي مع الإله من منطلق كونها كانت ذات يوم ذات واحدة قبل أن تحدث الخطيئة الكبرى وتعاقب النفس الكلية بالهبوط إلى العالم السفلي.

ومن جهة أخري تأتي المدينة الأوغسطينية لتقوض المذهب الدونائي [6] الذي تأسس في نومديا (الشرق الجزائري)الذي يرفض مبادئ المذهب الكاثولوكي معتبرا أن الكاثوليكية مذهب السلطة وبوق الرومان ،و نحن نعلم أن سان أوغسطين ينتمي إلي المذهب الكاثوليكي وبالتالي فنقده لم يكن سوى دفاعا عن المذهب محاولا أن يقنع خصومه أن مدينة الإله مدينة السعادة وأن المدن الأرضية مدن المآسي والشرور، وأن الديانة المسيحية أرفع من أن تدخل في اللعبة السياسية التي أبطالها الشياطين.

إن مدينة الإله تنطلق من عقيدة الهبوط الأصلي ،وتعترف بسقوط الأجنحة كما جاء في التوراة والأفلاطونية،وبالتالي هذا الاعتراف يخفي وراءه بعدا سياسيا هو أن البشر غير قادرين على إنقاذ أنفسهم من الشر، أو حكم أنفسهم بأنفسهم لكونهم منغمسين في الشر، في حين أن الخلاص والإنقاذ لا يمكن أن يكون إلا بالعودة إلى الفيض الإلهي،وفي نفس الوقت يوجه سان أوغسطين نقدا للأب بيلاجيوس وأتباعه الذين أنكروا فكرة الهبوط والخطيئة واعتبروا أن الإله خلق الناس وأوهبهم القدرة والاستطاعة والحرية، وأن الإنقاذ يتم بإرادة الإنسان.

ومن وجهة علم النفس التحليلي فإن مدينة الإله كمشروع مستقبلي لمدينة سياسية فاضلة يعبر عن حالة نكوص، أنتجتها أحداث مأساوية تتمثل أساسا في تدمير مدينة روما في 24 آب 410 م علي يد القائد ألريك ، ونحن نعلم أن روما عند المسيحيين تمثل مدينة الرب

ومجمع القداس ، وكما يقول المثل الإيطالي **[كل الطرق تؤدى إلى روما]** ليس من وجهة جغرافية وإنما من وجهة إيمانية،فالإله موجود بروما كرمز للسماء في الأرض،فكل قلب يصل إلى إدراك كنه الإيمان يتصل بروما باعتبارها مملكة الإله ،إن تدمير روما أحدث في ذات أوغسطين المتنصر شرخا جعلت نفسه تنكص نكوصا طوباويا، فتداعي الهواجس السياسية من فيض اللاشعور ، ويحلم بمدينة لا يمكن لشيطان كألريك أن يجد لها طريقا.

ومن الوجهة النفسية لا يمكن اعتبار مدينة الإله مجرد مشروع سياسي حالم، بل هي تعبير عن بعض معالم أحلام اليقظة التي تسيطر على الذوات المؤمنة بل كل إنسان قهره الواقع ليرسم لنفسه مدينة مثالية يحكمها الأخيار، ويسودها الخير والفضيلة.

ومن جهة أخرى يحاول أن يثبت لأعداء المسيحية أنها ليست لعنة سماوية حلّت بالرومان لتقضي على حضارتها الزاهرة، بيد أن سان أوغسطين يرى العكس تماما إذ هي عناية إلهية وحكمة ربانية جاءت لتنقذ الرومان من سيطرة وحاكمية الشيطان،يقول سان أوغسطين :" إن مدينة الإله المجيدة جدا تعتبر أثناء العصور الحالية، التي يعيش فيها الإيمان،بأنها تسافر غريبة بين الكفار،وتعتبر في هذا إثبات للموقف الأبدي."[7].

إن مدينة الإله تحاول أن تجعل التاريخ ينحى منحا سياسيا، وأن التاريخ بمعزل عن الحدث السياسي لا يساوي شيئا ، إن أفلاطون يمثل الجانب المعرفي للفكر السياسي بينما يمثل الرومان الجانب السلوكي والعملي.

يرى سان أوغسطين أن المدينة الفاضلة لا يمكن أن تكون بتعدد الآلهة وإنما بإله واحد حقيقي ،إن الرومان حتى في حالة انهيارهم وانحطاطهم يمثلون المدنية القوية،لكن مدينة الرومان تحتاج إلى الإيمان والمحبة،والسّلام الدائم، وحتى السلام الإلهي يرفضه تبعة الشياطين ذلك أن السلام المرغوب فيه هو سلام الظالم القوي لا سلام المحب العادل، يعلق القديس سان قائلا:".. يكره سلام الإله العادل ويحب سلامه الخاص الظالم، لكنه لا يستطيع بأي طريقة أن لا يحب أي سلام، لأنه ليس هناك لدى أي شخص مثل هذا العيب المضاد للطبيعة،والذي يهدم حتى الآثار الأخيرة للطبيعة" [8].

إن الفكر السياسي لا ينبغي أن يُعزل عن الشريعة والناموس الإلهي، فالإله هو الحاكم بالفعل والإرادة،وعلى حاكم المدينة أن يحتكم إلى شرعه وناموسه.

إن مدينة الإله لابد أن تحاكي في نظامها عشيرة الملائكة ، تلك الأنفس الطاهرة،يقول سان أوغسطين :".. في داخل عشيرة الملائكة هذه المقدسة جدا والجليلة جدا هذه الجمهورية السماوية التي يكون القانون فيها إرادة الإله."[9].

لكن المدينة الأوغسطينية يجب أن تراعي شرطا ضروريا في تأسيسها يتمثل في مراعاة وحدة المصالح (نظرة براغماتية) يقول:"..تجمع لرجال متحدين من خلال قبولهم بقانون، ومن خلال وحدة المصالح"[10].إن هذه الثيوقراطية تحاول أن تجعل مماثلة بين مجمع الملائكة المقدس وبين جماعة المؤمنين المسيحيين،ذوي النوايا الصافية،والسلوكات الخيرة،و القديس يرى أن جمهورية الملائكة الدائمة والخيرة إلى الأبد ، يمكن أن تكون للمؤمنين جمهورية مثلهم،لو آمنوا بالإله واتجهوا إليه حبا وفضيلة،إن الحقيقة لا وجود لها خارج الإيمان،وأن العقل لا يمكن أن يفضي إلى الحقيقة،فعين الحقيقة عند الإله فقط،و لا يمكن لنا أن نعلم الحقيقة في عالم يفتقر لحضور الذات الإلهية، إن المدن الأرضية بعيدة كل البعد عن الحقيقة،وإنما تعيش في الوهم وتعبد أوهام الظن[11].

إن مدينة الإله يقدمها القديس الفيلسوف كونها مدينة معارضة لجميع المدن الضالة،وتقدم لمحبها السلامة والمحبة والعدالة لكونها مرتبطة بالإله الذي يحب الإنسان الطاهر ويزكيه ببركاته ويقربه من ملكوته كما قرب الملائكة والقديسين.

إن المدينة النموذج تستقي بعض مرجعياتها من التوراة التي وعدت شعب الإله المختار بمدينة آمنة مسالمة،خيرها مجلوب وأمنها مطلوب،وتعد دار التّمكين للإله.

المواطنة داخل المدينة ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلاقة التناغمية بين أفراد المدينة ،وأساس تلك العلاقة المحبة الخالصة التي تمكن مجموع الأفراد من العيش دون صراع أو تدافع يفضي إلى النزاع والخصام الذي هو سمة المجتمعات الجاهلة ،والمحبة لابد أن يكون موضوع حبها محددا،يقول سان أوغسطين "فمن أجل رؤية ما يكون عليه شعب ما،يجب النظر في موضوع حبه" [12]،ذلك أن كل شعب ينفرد بموضوع حب عن غيره،فبعض الشعوب موضوع حبها العز والكرامة،وبعضها الغلبة والمجد، وبعضها الملذات والطيبات،وهناك شعب موضوع حبه الإله،فذاك هو الحب الحقيقي،لكن أي حب يريد القديس بلورته للناس إنه حب خاص عبر عنه بما يلي : "... وماذا أحب، حين أحبك؟ لا أحبك الجمال الجسدي و رونقه الزائل،و

لا أحب النور الساطع ،الذي تعشقه عينانا،و لا أنغام الأناشيد العذبة المختلفة الأصوات، ولا أريج الزهور الفواح ولا العطور والطيب و لا المن ولا العسل ولا الأعضاء المكونة لقبلات اللحم. كلا لا أحب شيئا من ذلك كله حين أحب الله ، إنما هناك نور،وصوت، وشذا وقوت وقبلة أحبها حين أحب إلهي :" هو نور الإنسان الباطني وصوته وشذاه وقبلته" الذي فيَّ حيث يسطع لنفسي نور لا يحده مكان، وتتجاوب أنغام تبقى على الزمن، وتفوح عطور لا تبددها ريح، ونذوق قوتا لا يفنيه نهم، وحيث لا تشبع القبلات . ذاك ما أحب، حين أحب إلهي، ومن هو هذا الإله الذي أحبه ؟ "[13].

إن التزام المواطن بمبدأ المحبة الخالصة ينتج عنه وجود القانون والشريعة،والشريعة تُنتج العدالة التي يطمح إليها الكل،و العدالة تؤدي إلى التسامح الذي يقود إلى مجتمع الملائكة الأخيار.

إن المحبة المسيحية تنتج حسب أوغسطين نوعين من المحبة، محبة تحتقر الذات وأخري تحتقر الإله، وكل منهما يصنع المدينة التي تتطابق مع موضوع حبه يقول أوغسطين ".. لقد صنع حبّان مدينتين: فحب الذات لحد احتقار الإله صنع المدينة الأرضية، وحب الإله لحد احتقار الذات صنع المدينة السماوية ،الأولي تتمجد في ذاتها، والأخرى في الرب.. الأولى تسيطر عليها شهوة السيطرة في رؤسائها أو في الأمم التي تخضعها ، وفي الأخرى يقدم الناس لبعضهم بشكل متبادل الخدمة بدافع الإحسان ، الرؤساء بقيادتهم والرعايا بطاعتهم"[14].

إن الفكر السياسي المسيحي في شخص سان أوغسطين يؤسس لفلسفة السلم ويرفض فلسفة الحرب، ويؤكد أنه لا علاقة بين الحرب والسياسة،وأن السياسة يمكن أن تنشأ دون اللجوء إلى القوة والحرب.

لكن السلام رغم كونه مبدءا فاضلا إلا أنه يحتاج إلى الحرب لتوطيده والتمكين له،وعليه فإن الحرب واجبة وجوب اضطرار،ويؤسس للسلام وفق المعادلات التالية:

ـــ الرغبة في السّلام ـــــ الرغبة في العيش الطبيعي.

ـــ الرغبة في الحرب ـــــ الرغبة في العيش غير العادي.

إن سان أوغسطين يؤسس لمدينة القطيعة إن أدخلنا الطرح السياسي ضمن المعادلات الإبستيمية، المدينة الأرضية هي مدينة الذات ومعقل [بسيشة]،لذلك تميل الذوات المحبة لذواتها إلى المدن الأرضية،وهذا الحب إنما في حقيقته احتقار للذات، أما الحب الحقيقي فهو الذي يقذفه الله في قلب من يحب،أما مدينة السماء هي التي تتجه نحوها الأنفس الطاهرة التي موضوع حبها الإله، فيحصل لها من لدنه الخير والكمال والعلوم ما يخفى عن الكافر، ولنتأمل هذا الاعتراف: ".. مجنون هو الإنسان الذي لا يعرف أن يحب الناس طبقا لما هم عليه ومجنون هو الإنسان الذي يفقد توازنه حين تلم به المصائب وأنا استحققت هذا اللقب حين ضاق صدري ... ليست الساعات فضة جامدة لا قيمة لها تمرّ دون أن تترك أثرا في شعورنا، لكنها تعمل عملها العجيب في نفوسنا فتأتي وتنقضي ويذهب اليوم تلوى الآخر وفي رواحها ومجيئها تسكب في نفسي آمالا جديدة وتنعش ذكريات ماضية فتتغلّب على الألم الماضي الذي يعقبه آلام جديدة أو على الأقل بذور أخرى للآلام."[15].

إن الوجد الصوفي لدي أوغسطين يمتزج مع الطرح السياسي ، وبالتالي يؤسس لفلسفة سياسية قائمة على الحدس الإيماني والعمل السياسي إن فلسفة التاريخ عند سان أوغسطين تجعل حركة التاريخ مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحدث السياسي ، إن الزمن التاريخي عند أوغسطين يتعالى عن ما نسميه الماضي والحاضر والمستقبل فالأزمان الثلاثة ليس لها وجود إلا في مخيلتنا حسب أسقف مدينة عنابة ، ولنتأمل قوله: " لقد سمعت أحدهم يقول لحكيم.أن الوقت ليس سوى حركة الشمس والقمر والكواكب، فما استحسنت كلامه.

وإن كان الأمر فلم لا يكون الوقت حركة الأجرام كلها ؟؟ فلو أن كواكب السماء انقطعت عن المسير وظل دولاب خزان يدور فكيف ــ إن صح زعمهم ــ نستطيع أن نقيس دوراته ونثبت أنها متساوية البعد أو التتابع؟؟ تارة تسير ببطء وطورا بسرعة، أم كيف نعرف أن بعضها أطول من البعض الأخر ؟؟وحين نشير إلى هذه الأمور،ففي الزمن نشير إليها ،ألا نجد في هذه الألفاظ مقاطع طويلة وقصيرة لأن هذه تتجاوب في مدى وقت أقصر والعكس بالعكس ؟اللهم هب الناس أن يعرفوا ولو قليلا ما هو خاص بالأشياء الصغيرة والكبيرة. نجد في السماء علامات من كواكب ومشاعل سماوية تدل على الفصول و الأيام

والسنين. وهذا أمر لاشك فيه. وأنا لا أدعي البتة أن الدورة التي يتمها الدولاب الخشبي تعني اليوم كما وأن حكيمنا يتيه في الضلال إن أنكر وجود الزمن في هذه الدورة[16].

إن نهاية التاريخ في الرؤية الأوغسطينية ستكون ميتافزيقية وأنطولوجية في نفس الوقت، إذ تنتصر مدينة السماء آخر الأمر على مدن الشيطان نصرا أبديا، وتنتهي الحرب التي كانت تصنعها مدن الشيطان،إن التاريخ عند سان أوغسطين يسير وفق حركة مستقيمة لكنها مشروطة آخر الأمر بالتوقف عندما تصبح مدينة السماء هي الوحيدة التي تجتمع فيها الأنفس الطاهرة.

إن مدينة الإله تنتصر نصرا واحدا فقط على مدن الشيطان،ولكنه نصر أبدي وميتافيزيقي، فرح به الغرباء الذين يمثلون الأخيار.

إن النصر الأبدي لم يحدث بعد لكنه سيحدث ذات يوم عندما يعي الإنسان علاقته بربه، ويتملكه فيض من المحبة والإيمان.

إن النص الأوغسطيني مترع بالمتن الأسطوري،فالمدينة النموذجية تستقي بعض تجلياتها من مدن تاريخية عريقة كمدينة روما تحت قيادة روميلوس، دلك أن روميوس يمثل الشيطان رغم أنه أخ روميلوس ، لكن روممیوس تملكه الشيطان فقاتل أخيه من أجل الحكم ،لكن الإرادة الإلهية لم تمكنه من الحكم وتأسيس مدينة روما.

ويرجع سان أوغسطين إلى التوراة ليقدم قصة قتل قابيل لهابيل مبرزا قوة الصراع بين الخير والشر.

فالمدن الكافرة معلمها واضح يتجلى في مدن الشيطان كبابل والقدس، وخاصة بابل التي تمثل أبراجها محاولة الندية والتشبه بالإله في العظمة والعلي.

إن التاريخ لا يقبل بفكرة الدورة لأن الحضارات المنهارة يمكن أن تعود إلى مسرح التاريخ، فكل حضارة منهارة تمثل انهيار معقل الشيطان، لأن الحضارة الأخيرة والأبدية تكون من نصيب المؤمنين.

إن فلسفة سان أوغسطين مترعة بالحضور المانوي، وذلك من خلال الثنائيات التي استعملها سان أوغسطين في خطابه،كثنائية الخير والشر،والظلمة والنور،كما نلاحظ حضورا متميزا لأفلاطون، أما التوراة فلا أحد يشك في حضورها المتميز.

إن سان أوغسطين يمثل أحد أبرز أعلام الفكر الفلسفي الجزائري حتى وإن اعترض البعض على هذا الرأي لكونه كان مواليا للرومان وقاتل في جيشهم، لكن دفاعا عن الجزائر.

الهوامش :

1 - راجع أعلام الفكر والتصوف للباحث سان أوغسطين[354م-430م].

ولد بمدينة تاحبيسته (سوق أهراس)حاليا،تقع جنوب مدينة بونه (عنابة لم تكن الأسرة منسجمة عقائديا فالأب يدين بالوثنية عقيدة الأجداد،والأم اعتنقت المسيحية التي بدأت تكتسح الشمال الأفريقي. الاختلاف أثر علي أوغسطين فيما بعد،إذ تقلب من مذهب إلى آخر في شبابه، تلقي علومه الأولى بمدينة مداوروش وقرطاجة ،ثم أرتحل إلي إيطاليا أين تعمق في العلوم النظرية، واعتنق المانوية منتقدا الديانات والعقائد الجديدة بما فيها المسيحية،ثم انساق وراء مذهب الشكاك رافضا كل مذهب وفكرة، وحدث له نوع من عدم الاتزان الفكري. وعند انتقاله إلي مدينة روما احتك بأفكار شيشرون خاصة مؤلفاته السياسية [الجمهورية والفضيلة]،وفي روما تمكن من دراسة الأفلاطونية الجديدة التي بدأت تفرض نفسها كمذهب فلسفي جديد يزاوج بين الطرح الأفلاطوني والمسيحية ويتجلى في أعمال أفلوطين الإسكندري.

في عام 388م عاد إلي الجزائر واعتنق المسيحية فكرا وسلوكا،وعيّن أسقف كنيسة هيبون ببونة(عنابة) سنة 391م .

أعجب بكتابات أبوليوس النوميدي خاصة كتابه [الدفاع]،ونتيجة اتساع الخلاف الفكري بين المتنصرين والوثنين.

عمد سان أوغست إلى تأليف العديد من الكتب أشهرها:

- اعترافاتي
- مدينة الإله
- الحياة السعيدة
- الرد علي غوداسيوس

تعرض في جل كتبه إلى المسائل التالية:

- القضاء والقدر وإشكالية التسيير والتخيير - المسؤولية - المدينة الإلهية والبشرية - العناية الإلهية

امتاز سان أوغسطين بالخطابة وقوة التأثير في المستمع ،كما كان شجاعا ومقداما ،جعل من مدينة عنابة قبلة للطلاب ومقاما للحكمة والفلسفة .استشهد دفاعا عن الجزائر تحت راية الإستحمار الروماني ضد الاجتياح الوندالي يوم 29 أوت 430م عن عمر يناهز 76 سنة.

فرانسوا شاتليه وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ترجمة محمدعرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،ط 1،1997،116.

3- لفظ سماوي يفيد معنى مجازي يرمز لسيادة إرادة الإله، وعلوية القانون والمعرفة.

4 - يرمز للإنسان الهارب من حظيرة الرب عند المسيحيين،والإنسان المتمرد في الأساطير، والإنسان العيني في الفلسفة الوجودية.

5 - المرجع السابق،ص 112.

6 - المذهب الدوناتائي نشأ في شمال إفريقيا يعارض المذهب الكاثوليكي ويتهمه بالعمالة للرومان ، ويرفض بعض الأفكار كالجبر وعدم قدرة الإنسان على حكم نفسه بنفسه.راجع معجم أعلام الفكر والتصوف للباحث.

7- المرجع السابق،ص111.

8 - المرجع السابق،ص115.

9 - المرجع السابق،ص113.

10- المرجع السابق،ص114.

11 - أنظر فرنسوا شاتليه، معجم المؤلفات السياسية ،ص 116/115/114.

12 - يعني أن موضوع الحب هو الوحيد الذي يحدد طبيعة الإنسان والمدينة.

13 - أوغسطين، الاعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت،ط 3، 1962، ص ص197/198.

14 - فرنسوا شاتليه، معجم المؤلفات السياسية ،ص 115.

15 - أوغسطين، الاعترافات، ص 66.

16- أوغسطين، الاعترافات، ص 257/256.

الشريف بوشوشة : زعيم ثورة 1871م في صحراء الجزائر الشرقية

د / محمد بن معمر (*)

تمهيد :

إن حركة المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي خلال القرن 19م، قد عرفت قائمة طويلة بأسماء لامعة أسفرت عنها الثورات والانتفاضات المتتالية على مدى قرابة قرن من الزمن. وإذا كانت بعض أسماء هذه القائمة قد أخذت إلى حد ما قسطها من البحث والاهتمام كالأمير عبد القادر مثلا، فإن البعض الآخر منها لا يزال مجهولا، يحتاج إلى العناية والاهتمام من خلال البحث والتنقيب في تاريخه وبعثه من جديد. إن الكثيرين لا يزالون يجهلون أصول وفصول أسماء مثل بوبغلة وبوحمار وبوشوشة وبوعود و غيرهم كثير.

الأقلام التي دونت تاريخ أبطال حركة المقاومة في الجزائر من خلال مشاهدتها ومعاصرتها للأحداث هي الأقلام الفرنسية، فأصبحت وبحكم تلك المعاصرة المصدر الأساسي الذي لا يستغني عنه أي باحث في تاريخ المقاومة. غير أن هذه المصادر ورغم وفرتها تضع المؤرخين والباحثين والأقلام الوطنية أمام تحد كبير لابد من تجاوزه إذا أرادت أن تعتمد عليها، وهو التشويه السافر والحاقد لحقائق تاريخ المقاومة. إن الواجب يحتم على الباحث الجزائري المراجعة الضرورية لتاريخه الذي شوهته المدرسة الاستعمارية، ووضعت المقاومة وأصحابها في إطارها غير الصحيح.

(*) أستاذ التاريخ الوسيط بقسم الحضارة الإسلامية وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران .

وعلى في مقاومة الشريف بوشوشة المثل الواضح على هذا التشويه، فارتأيت أن تحول هذه المقالة المتواضعة خطوة نحو إعادة النظر فيما كتبه الفرنسيون عن هذا البطل ومقاومته.

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين اهتماما بأمر بوشوشة المستشار لوي رين Louis Rinn نائب رئيس الجمعية التاريخية في كتابه "تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر"[1] الصادر بتاريخ 1891 بباريس وهو المصدر الأول فيما يتعلق بثورة بوشوشة من حيث حجم المادة التاريخية. يليه العسكري الفرنسي Le Capitaine le Chatelier في كتابه "Les Medaganat" المداقنات المنشور بالمجلة الإفريقية، في العددين 30 و31(1886-1887).

إن المادة التاريخية الواردة في المصدرين المذكورين هي عمدتنا في هذه المقالة لأننا لا نملك غيرها، إلا أننا سنحاول قدر المستطاع توخي الحيطة وإعادة قراءتها بغير الشكل الذي جاءت عليه، أي تحويل المقاومة والمقاوم من الإطار الذي وضعته فيه الرواية الاستعمارية إلى الإطار الحقيقي الذي يجب أن توضع فيه مقاومة بوشوشة.

لقد وضعت الرواية الفرنسية البطل بوشوشة وحركته في إطار جماعة المداقنات، وهو عنوان كتاب Le Chatelier المصدر الثاني بعد لوي رين، وكلمة المداقنات هذه نسبة إلى مداقن اسم رجل ترقي وردت قصته في الكتاب المذكور[2].وأول من أطلق هذه التسمية أحد كبار شعانبة ورقلة وهو معطى الله بوظفر الذي كان في ضيافة الشعانبة المواضي فقدم له زعيمهم بوبكر بن عبد الحكم في مجاعة 1867 عنــزة مشوية ولكن بدون سمن ولاملح فقال له بوظفر مازحا:"إنكم تعتدون على من يفعل معكم الخير تسرقون العدو والصديق أنتم مثل الطوارق مداقنات." وبقيت التسمية بعد ذلك علما على الجماعة التي اتخذت من السطو والسلب والنهب والقتل عملا لها في الصحراء حسب Le Chatelier، والتي تكونت في عام 1868 في تديكلت. وفي سبتمبر 1869 غادرت هذه الجماعة حاسي الجمل واتجهت إلى عين صالح تبحث عن بوشوشة الذي كان قد شرع في جمع الساخطين والناقمين حوله كما يقول Le Chatelier.

وهذا الرأي لا ينفرد به Le Chatelier وحده بل إن رين له نفس القناعة وهي قناعة الفرنسيين جميعا في نظرهم للمقاومة، ولا غرابة في أن يستهل رين حديثه عن بوشوشة بحادثة السرقة التي يتهمه بها ويختم حديثه أيضا بمقدمة لوشاتوليه لكتابه المداقنات، ومما ورد فيها أنه

وبعد نهاية الشريف المزعوم وإلقاء القبض عليه عام 1874 كونت مجموعة من الشعانبة الثائرين رفاقه الأوائل عصابة سراق تحت اسم المداقنات، وظلوا طوال عشر سنوات (1874-1883) يقطعون الصحراء من واد درعة إلى فزان يسرقون وينهبون ويقتلون بلا استثناء العدو والصديق إلى أن أهلكتهم الصحراء.

هكذا أرخت الأقلام الفرنسية لبوشوشة وثورته فهو في نظرها مجرد صعلوك متمرد على سلطتها، سارق قاطع طريق محرض لأهل الصحراء ضدها، وكل ما قام به في رأيهم لا يخرج عن هذا الإطار. والحقيقة قد نكون ساذجين إذا انتظرنا منهم غير هذا الطرح الغريب الذي جاء في الأساس ليخدم مصلحة فرنسا الاستعمارية.

ومن خلال المادة التاريخية المتوفرة لدينا بشأن بوشوشة ووحركته يمكننا تقسيمها إلى مراحل ثلاث:

مرحلة الإعداد والتحضير: **1862- 1869**

كلمة بوشوشة هي الكنية التي عرف واشتهر بها هذا البطل وهي تعني الأشعر أي غزير الشعر أوفره، واسمه الحقيقي محمد بن تومي بن إبراهيم من مواليد الغيشة بجبال عمور في تاريخ لا نعرفه [3] لأن الرواية الفرنسية تعطينا تفاصيل 12 سنة من عمره فقط، أي فترة المقاومة (1862-1874) وتتعمد إغفال ذكر معظم حياته، فنحن نجهل أصوله وشبابه والمؤثرات والمواهب التي صقلت شخصية هذا البطل.

يخبرنا رين أن بوشوشة وفي 1862/12/22 امتثل أمام محكمة معسكر التأديبية التي حكمت عليه بالسجن لأنه سرق، وهي حادثة يستهل بها رين تاريخه لبوشوشة دون توضيح لطبيعة هذه السرقة وهو بذلك يوهمنا أن ما سيقوم به بوشوشة لا يخرج عن هذا الإطار، وأن عمله هو مجرد انتقام ممن سجنوه. وبعد خروجه من السجن ببوخنفيس عام 1863 اتجه إلى فقيق ومنها إلى توات أين شرع في جمع الأنصار وإعدادهم وتحضيرهم لحركة المقاومة.

مع الأسف لا نملك المعلومات التي تساعدنا على معرفة طبيعة مرحلة الإعداد هاته التي استغرقت مدة 6 سنوات فهي مضببة، إذ وبعد هذه الفترة تقول الرواية الفرنسية(رين ولوشاتوليه) أنه ظهر في عين صالح أين بايعه الشعانبة المواضي كشريف عام 1869 وراح

يلتف حوله الساخطون والناقمون والمداقنات كما يقول Le Chatelier، أي أن نواة الحركة هي مجموعة لصوص حسب رأيه.

لكن الحقيقة التاريخية عكس ذلك تماما لأن بوشوشة لم يكن إلا واحدا من آلاف الجزائريين الذين ثاروا ضد العدوان طيلة وجوده على أرض الوطن، وانتفضوا انتفاضة الجريح في دينه وكرامته ووطنه. وقد ظهرت منهم طائفة كبيرة اتخذت من عنصر الشرف مرتكزا تعتمد عليه في حمل راية الجهاد ضد العدو لما له من تأثير في أوساط الجزائريين. وكان وراء كل داعية للجهاد طريقة صوفية تدعمه، وقد ظهر هؤلاء منذ أن أخذت قوة الأمير عبد القادر تضعف، فمن الشريف بومعزة إلى الشريف بوعود إلى الشريف بوبغلة، ثم الشريف ابن عبد الله والقائمة طويلة. وسواء كانوا هؤلاء شرفاء حقيقيين أو ادعوا النسب الشريف فإن دعوتهم للجهاد ضد العدو جعلت الأنظار تتجه إليهم باعتبارهم المنقذين الخارقين للعادة، ومحققي آمال الناس في الانعتاق من الاضطهاد وتحرير الدين من الكفار[4].

لقد كان بوشوشة واحدا من هؤلاء عندما أعلن نفسه شريفا في عين صالح فبايعه الأتباع، هكذا اقتضت طبيعة المقاومة الجزائرية للعدو خلال ق19، لابد من رمز شريف يجتمع حوله الأنصار. وكانت الطريقة السنوسية من وراء حركة بوشوشة كما يقول قارو وليس لدينا ما يرد هذا الرأي فهي الطريقة التي ناصبت العدو العداء و حاربته بكل الوسائل، وهي الطريقة التي حركت الشريف محمد بن عبد الله قبله ودعمته بكل ما يحتاج.

إن اتخاذ بوشوشة عين صالح مقرا لبدء حركته وإعلان نفسه شريفا فيها يعود إلى بعدها عن عيون العدو وعدم خضوع أهلها له، فبإمكانه التحرك والإعداد دون أي تخوف من الفرنسيين وأعوانهم الذين كانوا يسيطرون على المناطق الصحراوية الواقعة إلى الشمال من عين صالح كالأغواط وورقلة وتقرت.

***مرحلة المقاومة والانتصار* :1870-1872**

استهل بوشوشة مقاومته خلال هذه المرحلة باستيلائه على المنيعة في أفريل 1870 وسجن القائد جعفر الخاضع لسلطة الفرنسيي،ن وفي 5 ماي استولى على متليلي، وبعد أسبوع كان في آبار سبسب يشتبك مع قائد الأرباع لخضر بن محمد، ثم عاد بعد ذلك إلى عين صالح القاعدة الأساسية التي ظل يعتصم بها كل ما داهمه خطر العدو.

بعد مده الحركة الخاطفة التي أسفرت عن أخذ مدينتي المنيعة ومتليلي والتي كانت بمثابة إعلان بوشوشة للثورة على العدو الفرنسي وأعوانه، وكانت أيضا اختبارا لقوته، نجده يقيم في عين صالح مدة عشرة شهور قضاها في جمع الأنصار ومواصلة تأليب الشعانبة وتحريضهم ضد العدو دون أن يقوم بعمل عسكري يذكر من ماي 1870 إلى مارس 1871.

صحيح أن بوشوشة كان منشغلا خلال هذه الفترة بمواصلة الإعداد والتحضير وكسب الأنصار، وهو ما تقتضيه طبيعة المقاومة، فتوقف عن مواجهة العدو وأعوانه، غير أن استقراء الأحداث يوحي بأن الرجل كان ينتظر الفرصة المواتية ليسدد ضربته بعزيمة أكبر وإرادة أقوى، وأنه كان على علم بما يدور من أحداث فثمة ظروف وتغيرات قد حصلت خلال هذه الفترة داخليا وخارجيا جاءت كلها في صالح المقاومة والمقاوم وهي:

أ – اندلاع الحرب الفرنسية الألمانية في جويلية 1870، واندحار الجيوش الفرنسية فيها ووقوع نابليون III إمبراطور فرنسا نفسه في الأسر.

ب – الانقلاب الذي قام به اليساريون ضد النظام الإمبراطوري وإعلانهم قيام الجمهورية الثالثة في تاريخ فرنسا في 4-9-1870 ووقوع فرنسا في فوضى وتطاحن بين المدنيين والعسكريين حول الحكم.

جـ– صدور القرار الشهير القاضي بتجنيس يهود الجزائر بصفة جماعية بتاريخ 24-10-1870 واستنكار الجزائريين له وتفسيرهم له على أنه خطوة نحو تعميم الجنسية الفرنسية على كل المسلمين الجزائريين.

د – وصول محي الدين ابن الأمير عبد القادر رفقة ابن ناصر بن شهرة إلى نفطة بتونس وكان ذلك في نوفمبر 1870 وأشيع يومها في الجنوب خبر قدوم الجيوش التركية والمصرية لنجدة المسلمين. وفي ديسمبر من نفس العام وجه محي الدين رسائل عديدة إلى رؤساء وأعيان الصحراء يحثهم على الجهاد وكان ممن راسلهم محي الدين الشريف بوشوشة.

هـ– انتفاضة الحنانشة بقيادة الكبلوتي بسوق أهراس في يناير 1871، وأولاد عيدون في الشمال القسنطيني في فبراير، ثم النمامشة وأولاد عبيد استجابة لنداء محي الدين. كما لاحت في الأفق بوادر ثورة المقراني والحداد.

و – النـــزاع العائلي الذي كان على أشده حول السلطة والنفوذ بين أسرتي بو عكاز وبن قانة صاحبتي الجاه والسلطان في الصحراء الشرقية والذي انحصر إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى.

هكذا كانت الأوضاع تسير داخل الجزائر وخارجها وهي أوضاع كان يراقبها بوشوشة عن كثب ويتابع أطوارها وهو في عين صالح. لقد ارتفعت درجة حمى التمرد على حد تعبير الجنرال بيجو في الشمال وجاءت الفرصة لبوشوشة كي يضرب ضربته في الجنوب التي طالما انتظرها.

وبصورة مفاجئة يصل بوشوشة إلى نقوسة في 5 مارس 1871 ويدخل ورقلة بدون مقاومة بعد مفاوضة أهلها وكانت تابعة لأغوية علي باي بن بوعكاز بواسطة خليفته سي نعمان بن ذبّاح. غير أن رين وكعادته لا يفوته أن يقدم لنا بوشوشة في صورة سفاك للدماء غير حافظ للعهد، فحسب رأيه وإرضاء لفريق من المخادمة أقبل بوشوشة على قطع رؤوس خمسة من نبلاء الميزابيين الذين ذهبوا إلى مفاوضته قبل دخول ورقلة بعد أن احتجزهم وأخذ منهم فدية 9500 فرنك، وهذا العمل الفظيع يضيف رين قائلا هو الذي دفع أهل ورقلة إلى الانضمام إلى حركته وأن البعض منهم خصوصا الشعانبة والمخادمة كان هدفهم الاستيلاء على متاجر الميزابيين العامرة[5]. هكذا يصر دوما رين على نعت بوشوشة وأتباعه بالسّراق ويجردهم من كل صفة وطنية وأنهم كانوا مجرد صعاليك.

وفي 8 ماي اتجه بوشوشة إلى قمار فأثارت حركته مخاوف شيخ الزاوية التيجانية محمد الصغير بن الحاج الذي رفض استقباله وعزم على مقاومته، ولكن بوشوشة طمأنه بأنه يريد مهاجمة زمالة علي باي آغا تقرت عميل الفرنسيين، وهو الأمر الذي لم يوافقه عليه السوافة ودفعوا له مبلغا من المال مقابل رحيله عنهم.

ثم اتجه إلى مويت القائد أين وصلته رسائل من شيوخ وزعماء عرب غرابة وسلماية وأولاد رحمان وأولاد مولات ونزلة ومجارية تعرض عليه المساعدة باعتبارهم من صف بن قانة، وطلبوا منه دخول تقرت والقضاء على سلطة علي باي بن بو عكاز ونفوذه، فاستغل بوشوشة هذه المساعدة ليدخل مدينة تقرت في 13 ماي والتي مكث بها إلى غاية 21 من نفس

الشهر أين عيّن قوبي بن قوبي خليفة له وآغا على تقرت وأوصاه بأن يحكم المدينة بالشريعة الإسلامية كما طلب من أهلها مساعدة الخليفة الجديد.

في ظرف شهرين استطاع بوشوشة أن يفتك من العدو وأعوانه قاعدتين هامتين هما ورقلة وتقرت مستغلا التناحر العائلي بين أسرتي بن قانة وبوعكاز الذي استخدمه المستعمر في فرض نفوذه على المنطقة. وأراد بوشوشة أن يجمع إلى هذا الانتصار العسكري بسيطرته على ورقلة وتقرت تأييد الزاوية التيجانية لما لها من تأثير في نفوس أتباعها الكثيرين فاتجه إلى تماسين مقر الزاوية ولكن عبثا حاول ذلك فقد رفض الشيخ سي محمد العيد استقباله قائلا: "إنه بمشيئة الله دخل الفرنسيون إلى الجزائر وأن حكومتهم دائمة فاحترس"[6] . و لم يصل إلى نتيجة فقد ظل شيخ الزاوية متمسكا بمبدإه المعارض لبوشوشة الذي رحل متوجها إلى بلدة عمر ومنها واصل سيره إلى عين صالح قاعدته الإستراتيجية لجمع الأنصار وتدبير الخطط.

أما علي باي فإنه لما علم بما أصاب حاميته بعد أن سيطر على المدينة بوشوشة اتجه إلى بسكرة يوم 27 ماي واحتج لدى القائد الفرنسي ضد أولاد بن قانة وحمّلهم مسؤولية التآمر مع بوشوشة ومساعدته على دخول ورقلة وتقرت. وأمام توبيخ القائد الفرنسي له واتهامه بالإهمال والتقصير وتوعده بالمحاكمة عقد العزم على استرجاع نفوذه الضائع، فاتجه إلى تقرت التي حاصرها يوم 8 جويلية يساعده أولاد عمر وأولاد بن زكري وأولاد نايل وفشل في اقتحامها بعد معركة خسر فيها الطرفان عددا كبيرا من القتلى. وفي 10 من نفس الشهر وصل بوشوشة رفقة ابن ناصر بن شهرة وجرت معركة ثانية بين الطرفين انتهت بهزيمة علي باي وانسحابه إلى بسكرة يوم 13 جويلية.

بعد هزيمة علي باي وخلال شهري جويلية وأوت جرت ثلاث معارك بين بوشوشة وأولاد زكري أتباع علي باي الذين ساعدوه على محاصرة تقرت، وكانت سجالا بين الطرفين إذ فَقَدَ بوشوشة عددا من أنصاره وبعض مواشيه وجماله.

حسب لوي رين فإن ما أصاب بوشوشة في حربه مع أولاد زكري كان سببا في تزعزع هيبته ونفوذه، ويدلل على ذلك بأن السوافة وهم أهل الزقم وكوينين وتاغزوت والذين سبق وأن أعطوه مبلغا من المال مقابل رحيله عنهم في 8 ماي، استغلوا فرصة تقهقره أمام أولاد زكري وطالبوه بإرجاع المبلغ المالي عندما طلب منهم التوسط في عملية بيع كمية من

البارود، لأن تجارة الأسلحة والذخيرة قد عرفت نشاطا كبيرا خلال هذه الفترة في مالطة وتونس بواسطة اليهود والمالطيين في موانئ صفاقس وسوسة ونابل وغيرها، والتي كانت تجد طريقها إلى الجزائر عبر نفطة ثم وادي سوف.

ورغم صدور أوامر رئيس التحالف اليهودي في تونس بمنع بيع هذه الأسلحة من طرف اليهود إلا أن هذه التجارة ظلت متواصلة. كما أصدر رئيس زاوية تماسين أوامره إلى أتباعه من سوافة قمار والواد ودبيلة بالامتناع عن بيع الأسلحة وهم من صف بوعكاز. بينما نجد أتباع الصف الثاني صف بن قانة وهم سوافة كوينين وتاغزوت والزقم أتباع الطريقة الرحمانية يزدادون نشاطا في تجارة الأسلحة فحدثت مشاداة بين الطرفين لم يتدخل بوشوشة في أمرها وهو ما فسره رين مرة أخرى بأنه دليل على ضعف بوشوشة وتقهقره.

بعد هذه الأحداث ترك بوشوشة صديقه بن ناصر بن شهرة خليفة له على تقرت واتجه إلى نوميرات جنوب العطف بميزاب التي حل بها في 31 أوت 1871 رفقة المخادمة وشعانبة بوروبة أين التقى به السي الزبير ولد سي بوبكر ولد سيدي الشيخ مع فريق من الشعانبة المواضي وشعانبة برزقة.

حسب رين فإن سي الزبير الذي كان سبق وأن تولى آغوية ورقلة ما بين 1854-1861 وتخلى عنها لأسباب صحية، حاول الاتصال بالفرنسيين مقابل إعطائه الأمان وتعيينه آغا على ورقلة، ولكن بعد تفكير طويل آثر أن يوطد علاقته مع بوشوشة رغبة في الأموال الكثيرة التي كانت بحوزة بوشوشة وتمخض اللقاء عن مصاهرة جديدة بين الطرفين، إذ أصبحت فاطمة بنت جلول حفيدة سيدي الشيخ زوجة لبوشوشة. وهذا التحالف الطبيعي بين رموز المقاومة يريد رين دوما أن يشكك في دوافعه وينزع عنه روحه الدينية الوطنية، ففي رأيه أن تحالف سي الزبير مع بوشوشة كان رغبة في الأموال وآغوية ورقلة التي حصل عليها من بوشوشة.

في أول سبتمبر 1871 تزوج بوشوشة من فاطمة بنت جلول وفي الرابع منه كان مخيما بمدخل واحات بني يزقن ينتظر رد الميزابيين الذين أرسل إليهم يطلب منهم الخضوع والمبايعة ودفع الإتاوات كبرهان على ذلك.

لكن الميزابيين رفضوا طلب الشريف بشدة وصمموا على مقاومته ورده إذا فكر في مهاجمتهم لأسباب ذكرها رين وهي الدفاع عن ممتلكاتهم، والانتقام لإخوانهم الخمسة الذين قتلهم بوشوشة عندما دخل ورقلة، والحفاظ على مذهبهم الديني باعتبار أن الإباضية لا تؤمن بسيادة الشرفاء من ذرية النبي وهو ما يدعيه بوشوشة في نظرهم. هذه هي الأسباب التي حدت بالميزابيين إلى إعلانهم الحرب المقدسة ضد الشريف والتي رفعوا خلالها شعارات مختلفة كلها تدعو إلى الجهاد وتحرض عليه ضد الشريف المزعوم المشوش والمنحرف الضال كما جاء في مقطع من الرسالة التي قرئت على الميزابيين وهو المقطع الذي ذكره رين موضحا به تلك الشعارات بشكل واسع[7].

ولكن ثمة سببا آخر أكبر من هذه الأسباب تغافل عنه رين حتى يظهر لنا الشريف بأنه مرفوض وغير مرغوب فيه وأنه لا يمثل الجهاد الحقيقي. هذا السبب الذي دفع الميزابيين إلى اتخاذ هذا الموقف هو الاتفاق الذي وقع بينهم وبين الفرنسيين في 29 أبريل سنة 1853 والذي رضوا بموجبه بدفع ضريبة سنوية للفرنسيين قدرها 45000 فرنك والاعتراف بحمايتهم. وتعهدت فرنسا على لسان راندون مقابل ذلك بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأهل ميزاب وأن تحميهم في المدن والتل نظرا لمصالحهم التجارية الحيوية شريطة ان يتعهدوا من جهتهم بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين[8].

ومع ذلك فإن الشريف لم يلح في الطلب على الميزابيين فقد اكتفى بأن قال لهم :" أمهلكم مدة شهر وثلاثة أيام للتفكير وإلا سأحاربكم" وتركهم ليتدبروا أمرهم ورحل عنهم يوم 6 سبتمبر، ولكن رين كعادته لا يفوته أن يذكرنا بطبيعة بوشوشة وما يقوم به من سطو حسب رأيه، فبعد رحيله عن الميزابيين آثر ألا يعود إلى ورقلة فارغ اليدين فكلف فرقة من أتباعه بالاتجاه نحو تاجرونة غرب الأغواط للإغارة، وكلف فرقة ثانية بالاتجاه إلى شبكة شمال ميزاب أين أغارت على قطعان مدينة غرداية وبريان، واحتفظ هو بفرقة ثالثة صحبة سي الزبير ومكث ينتظر عند واد زلفانة عودة الفرقة الأولى والثانية اللتين وافتاه بـــ 17 قطيع من الغنم.

ولدى وصوله إلى ورقلة التي رحبت بالآغا الجديد سي الزبير وجد في استقباله ابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله الذي جاء رفقة زعماء أولاد خليفة وحمامة ليقدموا له

التحية والتهاني على نجاحه. هكذا اجتمعت رموز المقاومة وقياداتها في الصحراء الشرقية يتزعمها الشريف بوشوشة الذي ما فتئت الأقلام الفرنسية تنعته بقاطع الطرق، لقد جمع حوله الشرفاء من هذه الأمة الذين آثروا الموت على أن يعيشوا تحت علم فرنسا.

لقد مرت عشرون سنة على مقاومة ابن شهرة ونفس المدة مرت على مقاومة الشريف بن عبد الله دون يأس ولا كلل، فمنذ 1851 دخلا في صراع مع العدو ثم جاء بوشوشة ليواصل هذه الجذوة المتقدة فحدث التحالف بين الزعماء الأربعة؛ ابن شهرة، ابن عبد الله، سي الزبير، يرأسهم بوشوشة. ولكن هذا التحالف جاء متأخرا، فالعدو قد استعاد عافيته بعد حربه مع ألمانيا وأن الجيوش التي شاركت في هذه الحرب بإمكانها العودة إلى الجزائر، وأن أعوانه في الداخل لا زالوا يمدونه بما يحتاج في سبيل إجهاض أي مقاومة.

لقد انتهى شهر سبتمبر وتلاه أكتوبر 1871 دون أن يقوم بوشوشة بأي عمل عسكري حاسم، لقد عرف وادي ريغ خلال هذه الأيام هدوءا نسبيا أوعزه رين إلى انشغال بوشوشة وابن شهرة وسي الزبير بمحاولة استمالة قبيلة سعيد عتبة من جهة وانتظارهم تطور الأحداث من جهة ثانية. وهو الوضع الذي اعتبره رين فرصة هامة ساعدت على قدوم القوات الفرنسية من الشمال إلى الصحراء، فقد غادر الجنرال دولاكروا Delacroix المسيلة في 3 نوفمبر باتجاه الصحراء.

وفي 7 نوفمبر وقعت معركة بين الشريف بوشوشة والقائد بولخراس بن قانة –أخ محمد الصغير بن قانة قائد بسكرة– وقبيلة السعيد عتبة التي أقنعها بولخراس بالثورة ضد الشريف فقد فيها 50 قتيلا وأصيب هو بجروح خطيرة وذلك بكويف جبلة بين قرارة والعالية. وإثر هذه المعركة اتجه الشريف إلى جنوب ورقلة إلى حاسي القطار للعلاج ومنه إلى حاسي بوروبة أين استراح من 30 نوفمبر إلى 17 ديسمبر 1871.

أما الجنرال Delacroix الذي كان قادما من المسيلة فقد وصل إلى بسكرة يوم 8 ديسمبر والتي غادرها يوم 14 باتجاه تقرت التي احتلها من جديد يوم 27 ديسمبر بعد تحرير دام 8 أشهر (من ماي إلى ديسمبر). وفي 28 ديسمبر كلف الجنرال Delacroix قائده روس الخبير بشؤون الصحراء بالاتجاه صوب ورقلة فاحتلها يوم 2 جانفي 1872 بعد تحرير دام عشرة أشهر (من مارس إلى جانفي) .

هكذا أعاد العدو احتلال مدينتي واد ريغ تقرت وورقلة، وقد أدرك أهميتها الإسراتيجية في صحراء الجزائر الشرقية والخطورة التي شكلتها ثورة الشريف من خلال السيطرة عليهما، فقد جعل منهما بوشوشة قاعدتين هامتين ينطلق منهما في كل الاتجاهات واستطاع بفضلها أن يضرب أعوان العدو في كل مكان، بل أصبح في كثير من الأحيان على مقربة من مراكز العدو الحساسة كبسكرة والأغواط. وقد استقطب تحرير الشريف لورقلة وتقرت إليه أنظار رموز المقاومة الآخرين كابن شهرة وابن عبد الله وسي الزبير الذين انضموا إليه يناصرون عمله ويقفون إلى جانبه. ولكن تحول الظروف بشكل غير مناسب ساعد على ضياع القاعدتين وأرغم الشريف على التراجع ودخل مرحة الهزيمة والانكسار.

3 –*مرحلة التراجع والانهزام*: 1872- 1874

بعد النجاح الذي حققه الجنرال Delacroix في احتلال ورقلة وتقرت من جديد، قرر في 5 جانفي 1872 متابعة الثوار في أقصى الجنوب مستغلا خبرة قائده روس بشؤون الصحراء الذي كلفه بالمهمة وزوده بما يحتاج من عتاد وجند بلغ حوالي 443 خيّالا مقسمين إلى أربع مجموعات يقودها ضباط فرنسيون وهي مجموعة أولاد عبد النور وأولاد نابت من سطيف ومجموعة سعيد عتبة ومجموعة أولاد زكري ومجموعة مخازنية علي باي وأتباع بيت بوعكاز. وفي 7 جانفي انطلقت هذه القوات من الرويسات تبحث عن الشريف وأتباعه وفي 9 من نفس الشهر وبالقرب من تامزقيدة وقع الالتحام بين الطرفين خسر فيه الشريف 5 قتلى من بينهم ابن أخ الناصر بن شهرة وضيع فيه معظم زمالته التي استولى عليها العدو بما فيها من جمال وما تحمله من هوادج وزرابي وحبوب وخيام، وأغنام وأسرى منهم سي عبد العزيز بن محمد قاضي ساحل قبلي السابق وسي محمد بن حمودة قاضي مجانة السابق وهما من المقرانيين الذين اتصلوا بالشريف منذ أكتوبر 1870 بعد فرارهم من الشمال.

وإثر هذه الهزيمة واصل الثوار طريقهم باتجاه الجنوب الغربي وخيّموا في قورد عيش منذ 10 جانفي، أما الشعانبة فقد غادروا الشريف واتجهوا إلى عين الطيبة. وفي قورد عيش وقع الشقاق في صفوف الثوار على حد تعبير رين وتفرق شملهم. أما سي الزبير فقد اتجه إلى عين صالح رفقة البعض من أولاد سيد الشيخ. وأما بوشوشة فقد خيم إلى الجنوب من المخادمة باتجاه عين صالح وقد فَقَدَ كل شيء وهو خائف من المخادمة وأولاد مقران من أن يسلموه

إلى فرنسا. أما ابن شهرة فقد قاد المقرانيين واتجه بهم إلى الحدود التونسية ودخلوا هناك كلاجئين. ولكن وقبل أن يتجه كل طرف إلى حال سبيله وفي 11 جانفي وقعت محاولة اغتيال تعرض لها بوشوشة من طرف مولاي العربي أحد أشراف ورقلة.

حسب رين بقيت هذه الحادثة غامضة مدة طويلة ومع ذلك فثمة روايتان حول سبب المحاولة، فأما الرواية الأولى فتقول أن الهدف كان هو اختطاف فاطمة بنت جلول زوجة بوشوشة، وأما الرواية الثانية فتتهم ابن ناصر بن شهرة بأنه مدبر العملية طمعا في مبلغ مالي كان عند بوشوشة ويقدر بحوالي 80000 فرنك. غير أن هذا المبلغ كما يقول رين كان بحوزة ابن شهرة منذ 9 جانفي يوم المعركة، وعليه يضيف رين فليس لابن شهرة ولا للمقرانيين أي مصلحة في قتل الشريف.

ومهما كانت أسباب ودوافع الحادثة فإن رين قد ساقها ليبين ما آلت إليه حركة بوشوشة من انقسام وانشقاق وتزعزع الصف في نظره، وأن الشريف لم يكن يقود حركة من مناضلين وجنود مخلصين له مؤمنين بما يدعوهم إليه، مع أن المحاولة في الحقيقة لا يستبعد أن تكون من فعل الفرنسيين واعوانهم.

لقد افترق شمل الثوار بعد معركة 9 جانفي 1872 واتجه كل طرف إلى حال سبيله يقرر مصيره بيده، فالمقرانيون دخلوا تونس يقودهم ابن شهرة، ما عدا بومزراق الذي وقع أسيرا في يد الفرنسيين بعدما ضل الطريق، أما شعانبة بوروبة وبرزقة والشعانبة المواضي والمخادمة فقد أخضعتهم فرنسا خلال هذه السنة لسيطرتها.

أما زعيم الثورة الشريف بوشوشة فقد التقط الشعلة التي أرادها أن تبقى حية ولا تموت أبدا، حيث اتجه إلى عين صالح قاعدته المفضلة والمكان الذي عرف ميلاد حركته ومنها إلى كرزاز محاولا تجديد الزمالة ومواصلة النضال والكفاح ضد العدو وأعوانه، ومنها إلى توات من أجل نفس الغرض.

وفي جويلية 1873 ظهر ما بين الأغواط والبيض ومن هناك إلى المنيعة باحثا عن الأنصار والدعم المادي لمواجهة العدو وفي نيته اقتحام ورقلة من جديد وتحريرها، ولكن بوشوشة اصطدم بالسعيد بن إدريس خليفة وأخ آغا ورقلة الجديد محمد بن الحاج بن إدريس الذي نصبه الفرنسيون عليها في 2 فبراير 1872 وذلك في إطار التغييرات الجديدة التي أدخلتها

الإدارة الفرنسية على المنطقة، فقد وضعت تقرت تحت إدارتها العسكرية مباشرة وعينت علي باي في باتنة. أما ورقلة فقد عينت عليها محمد بن الحاج بن إدريس لأنه لا ينتمي لأي عائلة من العائلات المتقاسمة للنفوذ في الصحراء وان التناحر بينها هو الذي تسبب في تسليم ورقلة وتقرت إلى بوشوشة حسب رأي رين، لذلك فهو يرى أن ابن إدريس سيكون ولاؤه للفرنسيين اكبر واخلص من غيره سيما وأنه كان يحمل الجنسية الفرنسية.

وبالفعل قد أتت هذه السياسة الجديدة ثمارها، فقد أصبح همّ خليفة ورقلة الجديد وأخوه هو القضاء على بوشوشة وحركته، فبعد الصدام الذي وقع في شهر جويلية بين بوشوشة والسعيد بن إدريس وفقد فيه الشريف معظم زمالته الجديدة وزوجته فاطمة بنت جلول التي يصر رين على أنها لم تكن راغبة على الإطلاق في الزواج من الشريف وإنما أرغمت على ذلك وأنها كانت تحتقره لأنه ليس من مستواها ولا من دمها الشريف، هكذا يصور رين بوشوشة على أنه مرفوض حتى من أقرب الناس إليه.

بعد نكبة بوشوشة في حاسي الناقة أمام السعيد بن إدريس رجع إلى عين صالح وإلى الجنوب الشرقي منها استقر في مادردقانت مدة من الزمن. وفجأة في 13 فبراير 1874 يظهر في مطماط شرق الحجيرة مصمما على مواصلة الكفاح كعادته دون ملل ولا كلل وقد استولى على 250 جمل في حركته الخاطفة هاته، كلف إثرها الجنرال ليبير Liebert السعيد بن إدريس بملاحقة الشريف ولكنه فشل في ذلك بعد محاولة 19 فبراير في حاسي بوكلوة.

وأمام الخطر الجديد الذي أصبح يشكله الشريف على العدو وأعوانه في المنطقة، قرر آغا ورقلة محمد بن إدريس ألا يبقى مكتوف اليدين أمام ضربات الشريف، فكلف أخاه السعيد بن إدريس بمهمة الملاحقة ووضع بين يديه 300 خيّال ومهري وانطلق بها يوم 4 مارس 1874 يبحث عن بوشوشة. وفي 31 من نفس الشهر وفي الميلوك جنوب عين صالح ألقى بعج بن قدور بن مبارك قايد السعيد عتبة وأحد رجال السعيد بن إدريس القبض على الشريف الذي اقتيد مع مجموعة من المعتقلين إلى ورقلة[9]. فاستحق بهذه العملية الناجحة الآغا محمد بن إدريس وأخوه السعيد وسام الشرف والنياشين التي خلعتها فرنسا عليهما وعلى أبطال العملية.

ومن ورقلة أقتيد الشريف إلى العاصمة لعرضه على المجلس الحربي باعتبار أن ورقلة أصبحت تابعة لمقاطعة الجزائر العسكرية ابتداء من 22 ماي 1870 ونظرا لتورطه في أحداث تقرت أيضا فإنه أحيل على مجلس قسنطينة الحربي أين تمت محاكمته كمجرم حرب في نظر الفرنسيين ولمدة 15 يوما، وبعد ثلاثة اشهر من الحكم عليه بالإعدام نُفّذ فيه هذا الحكم بمعسكر الزيتون قرب قسنطينة يوم 29 جوان 1875 أين تقدم إلى الموت بكل صبر وشجاعة [10].

ولكن رين لا يفوته أن يسدل الستار عن ثورة بوشوشة دون أن يشوّه حقائق آخر لحظة من لحظاتها، وذلك باقتطاف بعض الكلمات حسب زعمه أدلى بها بوشوشة أثناء المحاكمة التي دامت 15 يوما.

ومن هذه المقتطفات أن بوشوشة صرح بأنه كان مجرد كلب (سلوقي) استعمله الصياد لالتقاط الفريسة، وأن هذا الصياد هو الذي أقنعه أن فرنسا انتهت وأنها لا تساوي شيئا. كما صرح أيضا بأنه لا يخاف الموت وهو يعرف مصيره المحتوم الذي يستحقه من طرف الفرنسيين، لأن الذين خدمهم هم الذين سرقوه وخانوه وتنكروا له وحاولوا اغتياله و لم يبق له إلا الموت.

هكذا يريد رين أن ينفي عن بوشوشة أي دور بطولي وصفة الزعامة للثورة وقيادتها، فهو في رأيه كان مدفوعا من جهة خفية لم يحددها، وهي التي أقنعته بأن فرنسا قد انتهت الأمر الذي دفعه إلى المغامرة والتهور. ولا غرابة في أن يختم رين حياة بوشوشة بهذا التقزيم وقد استهلها بحادثة السرقة فقد جاءت المقدمة مطابقة للخاتمة. ولكن الحقيقة التاريخية وسياق الأحداث التي أوردها رين نفسه تبيّن أن حركة بوشوشة كانت ثورة شريفة كباقي ثورات القرن 19 انطلقت من عمق الصحراء تقاوم العدو الفرنسي وأعوانه الذين يتحملون القسط الأوفر في القضاء على الشريف وحركته.

لعل خطورة ثورة بوشوشة على العدو وتحريره لورقلة وتقرت ومتليلي والمنيعة لمدة طويلة، وقيامه في سنة عرفت غليانا يكاد يكون استثنائيا هي سنة 1871، والتفاف رموز المقاومة حوله كالشريف ابن عبد الله وابن ناصر ابن شهرة وسي الزبير، كل ذلك هو الذي دفع الأقلام الفرنسية إلى تشويه ثورة بوشوشة بروح استعمارية وتقزيمها واتهام صاحبها

بمختلف النعوت كالمشوش والسارق وقاطع الطريق والمتهور. وتبقى مع الأسف وفي غياب البديل، الرواية الفرنسية هي مصدرنا وعمدتنا في التأريخ لرموزنا وأبطالنا.

الهوامش :

1 - Louis Rinn. Histoire de l'insurection de 1871 en Algerie. Alger ,1891.

2 - Le C. Le CHATELIER." Les Medaganat", Revue Africaine ,n° 30,1886 , pp39-40.

3 - ولكن حسب E. Mangin فإن عمر بوشوشة في سنة 1870 تاريخ محاولة اقتحامه الأغواط كان 23 سنة وهذا ما ذكره في المجلة الإفريقية ص 134 العدد 39 السنة 1895، وهذا ما يعني أنه من مواليد 1847. وإذا ما سلمنا بهذا الرأي فإن بوشوشة الذي خرج من سجن بوخنفيس عام 1863 وشرع في التحضير للمقاومة حسب لوي رين. كان عمره 16 عاما . وهو أمر مستبعد وحتى عنصر الشرف (الشريف) الذي أعتمده بوشوشة غير كاف أمام سنّ كهذا. ومما جعلنا نستبعد رأي Mangin أيضا أنه يذكر وفي نفس العدد ص: 138 أن إلقاء القبض على بوشوشة كان في مارس 1873 وهو غير صحيح لأن المصادر الأقرب إلى الحدث (رين و لوشاتوليه) تذكر مارس 1874. ويقول أيضا أن بوشوشة اقتيد بعد إلقاء القبض عليه يوم 4 ماي 1873 إلى الأغواط وفي 6 ماي إلى العاصمة وهو غير صحيح أيضا حسب رين. بمعنى أن هذه التواريخ الخاطئة التي قدمها Mangin عن نهاية بوشوشة تجعلنا لا نطمئن إلى الرأي الذي قدمه بخصوص ميلاد بوشوشة الذي أشار إليه إشارة عابرة فقط خلال تأريخه للأغواط.

4- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص: 298 – م.و.ك الجزائر 1992.

5- لوي رين، المصدر الساق، ص: 140.

6- لوي رين، المصدر الساق، ص: 493.

7- لوي رين، المصدر الساق، ص: 618.

8- A.COYNE . "Le Mzab". Revue Africaine, n° 23, 1879, PP- 205-206

9- لوشاتوليه، المداقنات،ص ص50-51

10- بوعزيز يحي، ثورات الجزائر في القرنين 19و20. الجزائر: منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996، ص226.

مصادر مخطوط مفاخر البربر

أ/ عبد القادر بوباية (*)

التعريف بالمصادر التي اعتمد عليها صاحب مخطوط "مفاخر البربر":

اعتمد مؤلف "مفاخر البربر" على مصادر عديدة منها ما هو موجود ومنها ما هو مفقود في الوقت الحاضر كما يؤكد ذلك الأستاذ محمد المنوني في كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب" حين يقول: "وخلال عروضه يورد معلومات ينفرد بها عن أي مصدر آخر معروف، فيستمدها من تحرياته الخاصة أو من كتب ضائعة"[1] ولإبراز أهمية المخطوط ارتأيت دراسة بعض المصادر التي اقتبس منها مؤلفه رغم أنه في كثير من الأحيان لا يكتفي بما ينقله عن المؤلفين الآخرين بل يضيف إليه معلومات قيمة ينفرد بها عن بقية المؤلفين المعاصرين له ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها:

1 – المقتبس في أخبار بلد الأندلس:

ومؤلفه هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وهو من أهل قرطبة وصاحب تاريخها، يكنى أبا مروان وقد ذكره أبو على الغساني في شيوخه فقال: "كان قوي المعرفة، مستبحرا في الأدب ، بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس" ووصفه بالصدق فيما حكاه في تاريخه.

كان أبو مروان بن حيان فصيحا في كلامه، بليغا فيما يكتبه بيده وكان لا يعتمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه من القصص والأخبار[2]، ويقول عنه عبد العزيز سالم أنه "أعظم

(*) أستاذ التاريخ الوسيط بقسم التاريخ ورئيس فرقة بحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران.

مؤرخي الأندلس"[3]، ويؤيده في ذلك أحمد مختار العبادي الذي يعتبر ابن حيان من "أعظم مؤرخي إسبانيا الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط"، وقد امتازت رواياته بالدقة والعمق والنظرة التحليلية الصائبة[4]، وكان ابن حيان من كتّاب المنصور بن أبي عامر وقد وصفه المؤرخون والمترجمون له بأنه كان صادق الرواية، جميل الأسلوب، جزل التعبير ولو بقيت كتبه لكشفت نواحي كثيرة من النواحي الغامضة في تاريخ الأندلس وكان ابن حيان في منتهى الصراحة حيث يذكر المحاسن ولا يتعفف عن ذكر المساوئ ولا يومئ إليها إيماء بل يقولها في جرأة وشدة حتى أن بعض المؤرخين يتبرأ إلى الله من قوله[5].

كتب ابن حيان القرطبي مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين، ضاعت تقريبا ولم يبق منها إلا أجزاء يسيرة [6]ومنها كتاب "المقتبس" الذي اقتبس منه مؤلف المخطوط وكان يتألف أصلا من عشرة أسفار ضاع معظمها ولم يبق منها إلا خمس قطع في الوقت الحاضر وهي كما يلي:

القطعة الأولى:

كانت بخزانة القرويين وهي تستوعب أيام الحكم الربضي كاملة (180هـ-206هـ) مع معظم أيام ابنه عبد الرحمن الثاني (206هـ- 232هـ) وتقع في 188 ورقة استعارها المستشرق ليفي بروفنسال من خزانة القرويين لينشرها فبقيت في حوزته إلى أن توفي سنة 1957م فانقطع خبرها[7].

القطعة الثانية:

كانت بنفس الخزانة وتبدأ حيث تنتهي القطعة السابقة أي من سنة 232هـ إلى سنة 267هـ وبذلك فهي تستوعب الأيام الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الثاني ثم معظم أيام ابنه محمد بن عبد الرحمن وتتألف من 95 ورقة وهي تكون مع سابقتها السفر الثاني من المقتبس وقد نشرها الدكتور محمود مكي في مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة عام 1971 .

القطعة الثالثة:

وهي تتناول ايام الأمير عبد الله بن محمد (275هـ- 300هـ) وتضم جزءا من السفر الثالث وهي محفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد (إنجلترا) وهي أول ما ظهر من المقتبس حيث قام بنشرها المستشرق مليشور أنطونيا في باريس سنة 1937م.

القطعة الرابعة:

وهي موجودة بالخزانة الملكية بالرباط وتشتمل على السفر الخامس وتبتدئ أول عصر عبد الرحمن الثالث بالحديث عن كرامته، ثم بذكر أولاده وتربيتهم، ثم فتنة ابن مسرة، ثم أخبارا دينية تتصل بعبد الرحمن الناصر، ثم شعراءه وبعد هذا يخلص المؤلف إلى الكلام عن الأحداث التي وقعت أيام نفس الخليفة وبذلك فإن هذه القطعة تستوعب إحدى وثلاثين سنة من أيام عبد الرحمن الثالث، ويقع هذا السفر في 349 ورقة وقد نشر بتحقيق شالميتا وغيره سنة 1979م[8].

القطعة الخامسة:

وتوجد بالأكاديمية التاريخية بمدريد وتعالج خمس سنوات ناقصة من أيام الحكم المستنصر (360هـ- 364هـ)، وتتألف من 135 ورقة وقد نشرها الدكتور عبد الرحمن علي الحجي سنة 1965م وألحق بها قطعة صغيرة من مخطوط القرويين الذي كان الأستاذ ليفي بروفنسال قد نشرها في مجلة أرابيكا (المجلد الأول سنة 1954م). وتتضمن هذه القطعة الخامسة بعض التفاصيل عن الحروب التي وقعت بين الحكم الثاني وبعض أمراء العدوة المغربية[9].

إلى جانب كتاب "المقتبس" ألف ابن حيان كتابا آخر سماه "المتين" ويختص بالفترة التي عاش فيها المؤلف وشاهد أحداثها بنفسه، وهذا الكتاب مفقود للأسف و لم يبق منه إلا بعض الشذرات التي نقلها عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده وعلى رأسهم الأديب الأندلسي علي بن بسام الشنتريني في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"[10].

وله كتاب آخر سماه "أخبار الدولة العامرية"، وكما هو واضح من خلال العنوان فإنه يختص بتاريخ العامريين، وقد ذكره عبد الواحد المراكشي تحت عنوان "المآثر العامرية" وفيه ذكر أبو مروان ابن حيان غزوات المنصور بن أبي عامر التي بلغت نيفا وخمسين غزوة،

فاستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها[11]، وعن المؤرخ ابن حيان ينقل مؤلف "مفاخر البربر" بداية من الورقة 58 أخبار المنصور بن أبي عامر مع البربر، وهي الأحداث التي تبدأ من سنة 368هـ وتستمر إلى سنة 389هـ أي إلى غاية الورقة 79، وبذلك فهو يقتبس منه حوالي إحدى وعشرين ورقة وتتعلق في أغلبها بعلاقات الدولة الأموية بالأندلس وخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وحفيده هشام المؤيد وحكام بلاد المغرب وبخاصة المغرب الأقصى إضافة إلى الصراع القائم بين قبائل صنهاجة وزناتة (بنو يفرن ومغراوة) وهي معلومات ينفرد بها عن غيره من المؤلفين المعاصرين له وخاصة ابن عذاري وابن أبي زرع، وحتى ابن خلدون حيث نقل عنه تفاصيل دقيقة عن الحروب الواقعة بين هذه الأطراف المتناحرة حول السيطرة على بلاد المغرب، والتي لا توجد في مصادر المؤلفين السابق ذكرهم ومنها أسماء فرسان البربر الذين أدخلهم الحكم المستنصر في حرسه الخاص نظرا لشجاعتهم، أو التفاصيل المتعلقة بحملة ابن رماحس التي لا تذكرها المصادر الأخرى. والحملة التي قادها عبد الله بن المنصور بن أبي عامر والتي ينسبها البعض إلى عبد الملك بن المنصور مثل ابن عذاري وابن أبي زرع، أو لا يذكرها تماما كما هو الحال بالنسبة للعلامة ابن خلدون في كتاب العبر.

2- ***المقباس في أخبار المغرب وفاس:***

لمؤلفه أبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق الذي يقول عنه الأستاذ عبد السلام بن سودة "بأنه من رجال القرن السادس الهجري وأنه كان حيا سنة 555هـ وقد اعتمد عليه ابن أبي زرع الذي يسميه عبد الملك بن محمود [12] ويضيف محمد المنوني قائلا: "كتاب المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس" من المصادر الموضوعية التي ضاعت وبقيت شذرات منها تناقلتها بعض المؤلفات، حيث جاء ذكره في مخطوط "مفاخر البربر" ونقل عنه الجزنائي في "زهرة الآس" وقبله ابن أبي زرع في "روض القرطاس" قائلين: "قال أبو مروان عبد الملك الوراق وينقل عنه ابن عذاري حدثنا حضره عام 578هـ"[13].

وينقل عنه مؤلف "مفاخر البربر" بداية من الورقة 79 (النسخة ك) أخبار زيري بن عطية، ورسالة المنصور بن أبي عامر ويستمر الإقتباس إلى غاية الورقة 81 بأكملها، ثم من الورقة 87 ينقل عنه المؤلف غزوات يوسف بن تاشفين سنة 464هـ وبناء مدينة مراكش وسورها، ثم

يقتبس منه ولاة لمتونة بالأندلس في كل من قرطبة - غرناطة- مرسية- بلنسية- سرقسطة وإشبيلية (أربعة أسطر من الورقة 107 ومعظم الورقة 109)، وهو الموضع الذي إنتهى به ما نشره ليفي بروفنسال من مخطوط "مفاخر البربر".

3- مقتبس في أخبار المغرب وفاس:

لمؤلفه الشيخ أبي عبد الله بن حمادة السبتي واسم الكتاب الكامل هو "المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس" كما ورد في كتاب محمد المنوني وهو نفس الإسم الذي ورد عند المقري "أزهار الرياض" مسميا مؤلفه بمحمد بن حمادة البرنسي، أما ابن عذاري فيقتبس منه قائلا "ابن حماده في كتاب المقتبس" ويتكرر النقل عنه في "روض القرطاس" باسم البرنسي،[14] وورد في "جذوة الإقتباس" وفي الهامش أنه "محمد بن حمادو البرنسي السبتي، من أهل القرن السادس الهجري، له كتاب في التاريخ واسمه "المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس"[15]، وينقل عنه مؤلف مفاخر البربر في الورقة 82 أخبارا تتعلق بثوار البربر ضد الدولة الأموية بالأندلس، ثم ضد خلفاء المنصور بن أبي عامر وخاصة من قبل زيري بن عطية المغراوي ويستمر النقل حتى الورقة 84 وفيها يذكر ثوار البربر في بلاد المغرب.

4- أنساب البربر:

لمؤلفه الفقيه العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي المجد يقول الأستاذ محمد المنوني: "وهذا لا تعرف ترجمته ولا عصره غير أنه يرد بمؤلفه عام عشرة السبعين وأربعمائة وهو واضع كتاب- يعتبر ضائعا في الوقت الحاضر- في أنساب البربر وملوكهم". وبقيت من هذا الكتاب شذرات موزعة بين ثلاثة مصادر حيث نقل ابن عذاري في "البيان" وعبيد الله صالح بن عبد الحليم في كتاب "الأنساب" ومؤلف "مفاخر البربر"[16]ويقتبس منه هذا الأخير ستة أسطر في الورقة 84 وتتعلق بأخبار الإمارة الصفرية في سجلماسة، وثورة أبي قرة المغيلي الصفري وثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي، وثورة يزيد بن مخلد بن كيداد ويتوقف عن الإقتباس في الورقة 85، ثم ينقل عنه في الورقة 90 أخبارا تتعلق ببعض ملوك البربر، وفي

الورقة 104 يسوق المؤلف معتمدا على "أنساب البربر" جملة من الأقوال التي تمدح البربر وتضعهم في مكانة عالية مقارنة بالعرب.

5- ***الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:***

لمؤلفه أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني الذي نشأ في بيت حسب ونسب في شنترين ولكن بلدته هذه وقعت في يد النصارى الذين استولوا على كل أملاكه فخرج منها صفر اليدين،[17] ويعتبر كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" موسوعة أدبية تاريخية تضمنت تراث القرن الخامس الهجري وهي الفترة العلمية المزدهرة التي جمعت بين عصري الخلافة الأموية وملوك الطوائف[18]، ويعرض فيها ابن بسام لتاريخ الملوك والوزراء والأمراء عرضا دقيقا ويزن آثارهم الأدبية وزنا صحيحا وقد اعتمد في ناحيته التاريخية على ابن حيان إذ رأى أنّه أعرف منه بالتاريخ وأنّه أصح منه نظرا وبذلك نقل إلينا في كتابه جملة من أقوال هذا المؤرخ [19]. وبالتالي حفظ لنا الشيء الكثير من الكتاب الضائع، [20]ولقد صنف ابن بسام كتابه في أربعة أقسام:

❖ ***القسم الأول:***

يترجم فيه لعلماء قرطبة وما يجاورها من بلاد وسط الأندلس وقد نشر معظم هذا القسم من طرف لجنة التأليف والنشر بالقاهرة.

❖ ***القسم الثاني:***

يتناول فيه منطقة إشبيلية ومنطقة غرب الأندلس ويترجم لعلمائها ولا يزال هذا القسم مخطوطا في جامعة أكسفورد.

❖ ***القسم الثالث:***

يتناول فيه بلنسية وشرق الأندلس ولا يزال هذا القسم أيضا مخطوطا وتوجد نسخ منه في الأكاديمية التاريخية بمدريد وفي مكتبة الجامعة العربية بالقاهرة.

❖ ***القسم الرابع:***

ويتناول فيه الوافدين على شبه الجزيرة من المشرق أو من شمال إفريقيا وفي هذا القسم الأخير ترد تراجم مغربية ولو أنها قليلة كما يتضمن الكتاب وثائق وأدبيات تتصل بعصر المرابطين [21] ويبرر ابن بسام تأليفه لكتابه هذا بقوله: "أخذت نفسي بجمع ما وجدت من

حسنات دهري وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة مع كثرة أدبائه و وفور علمائه[22] وقد توفي ابن بسام سنة 542هـ.

وينقل المؤلف عنه في المخطوط أخبارا تتعلق بقيام دولة المرابطين وجهود يوسف بن تاشفين في سبيل القضاء على الخارجين عن طاعته، ويخص بالذكر كلا من سقوت البرغواطي حاكم سبتة وابنه ضياء الدولة، ويبرز من خلال ذلك مساعدة المعتمد بن عباد للمرابطين في تحقيق ذلك ويورد بذلك تفاصيل دقيقة عن كيفية القضاء على هذين المعارضين ويستغرق هذا الإقتباس الورقتين 88 و89 من المخطوط "ك".

6- ميزان العمل في أيام الدول:

ومؤلفه هو أبو علي بن رشيق بن الحسن التغلبي المرسي ثم السبتي وكان بقيد الحياة عام 677 هـ أو 678 هـ وقد اقتبس منه مؤلفا "روض القرطاس" و"مفاخر البربر"[23] وذكره عبد السلام بن سودة دون إضافة أخرى[24] وهو شاعر، من أدباء الأندلس ومؤرخيها، أصله من مرسية، استوطن بسبتة وأقام آخر أيامه بغرناطة، قال لسان الدين بن الخطيب في ترجمته: "كان شاعرا مفلقا عجيبا، قادرا على الاختراع، يجيد اللعب بالشطرنج، ألف كتابا كبيرا في "التاريخ" وكتابا سماه "ميزان العمل"[25] ويذكر رابح بونار نفس العنوان ولكن من تأليف أبي علي الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني الذي ولد في سنة 390هـ وقضى الشطر الأكبر من حياته ملازما لبلاط شرف الدولة المعز بن باديس (406هـ-453هـ) [26] وبالتالي فهو لم يعاصر الدولة الموحدية على عكس الأول الذي يقول عنه مؤلف "مفاخر البربر" بأنه أورد في كتابه تفاصيل كثيرة عن دولة الموحدين[27] وينقل عنه مؤلف المخطوط جملة من الأخبار المتعلقة بدولة المرابطين في الورقة 91.

7- الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية:

لمؤلفه ابن الصيرفي وهو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري، ويكنى أبا بكر ويعرف بابن الصيرفي، قيد الحديث والتاريخ وكان من أهل المعرفة بالعربية والآداب واللغات والتاريخ، ألف كتابا في تاريخ الأندلس وأمرائها ضمنه العجائب وأجاد فيه كل الإجادة، بلغ فيه إلى سنة 530هـ[28] ويقول عنه ابن الخطيب: "كتب بغرناطة عن الأمير أبي محمد تاشفين وألّف في

تاريخ الأندلس كتابا سماه: "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية" وكتابا آخر سماه "تقصي الأنباء وسياسة الرؤساء"[29] ويقول عنه عبد الله كنون: "له تاريخ مفيد قصره على الدولة اللمتونية وكان من شعرائها وخدام أمرائها، توفي سنة 577 هـ أي بعد انقراض هذه الدولة بقليل ولذلك فإن تاريخه سيكون أوثق مصدر عن المرابطين ودولتهم"[30] ويضيف محمد المنوني قائلا: "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية يعتبر الآن مفقودا غير أنه بقيت منه شذرات تناقلتها المؤلفات بعده حيث يضعه ابن عذاري ضمن مصادر كتابه "البيان المغرب" بينما يستمد منه ابن الخطيب كثيرا من أخبار العصر المرابطي وذكره أيضا في كتاب "أعمال الأعلام" وصاحب الحلل الموشية ثم الشطيبي في كتابه "الجمان في أخبار الزمان"[31]، ويذكره مؤلف "مفاخر البربر" في الورقة 91 من النسخة ك فيقول: "ومن أراد الوقوف على أخبارهم وسيرهم-أي المرابطين- فليطالع كتاب ابن الصيرفي الذي ألفه في دولتهم وسماه بالأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية وهو كتاب ممتع مفيد".

8- *كتاب الإفتخار بمناقب فقهاء القيروان:*

لمؤلفه أبي بكر عتيق بن خلف التجيبي الذي توفي في جمادى الثانية سنة 422هـ أو 423 هـ ودفن بباب سلم بالقيروان وهو الفقيه المؤرخ، كانت له عناية بالفقه ومناقب الصالحين، سمع ابن التبان وأبا سعيد ومسّرة بن مسلم وأبا العباس بن تميم والقابسي وابن أبي زيد، له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن جماعة[32] ويقول أبو بكر المالكي:"هو مؤرخ كبير من مؤرخي القيروان وإفريقية، المعتمد لدى من جاء بعده من المؤرخين ومن أشهر مؤلفاته "كتاب الطبقات"و"كتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار " الذي ابتدأ فيه من سنة 161هـ وانتهى إلى 407هـ،وهذا الكتاب الأخير هو المشهور عند المؤرخين[33] ويقتبس منه مؤلف "مفاخر البربر" أخبارا هامة عن الفقيه أُبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني وعن عباس بن ناصح وذلك في الورقة 92 من النسخة "ك".

9- أعلام القبائل:

لمؤلفه الرازي يقول الأستاذ محمد المنوني: هو محمد بن موسى بن بشير الكناني، نزيل قرطبة والمتوفى عام 273 هـ وهو واضع مؤلف صغير باسم "كتاب الرايات" تحدث فيه عن فتح المسلمين للأندلس وفصل الكلام عن الفرق التي دخلت شبه الجزيرة مع موسى بن نصير

وقد ضاع هذا الكتاب بعد أن استمر معروفا إلى أوائل المائة الهجرية الثامنة حيث اقتبس منه مؤلف "مفاخر البربر" اسمين اثنين من أعيان البربر مسميا إياه باسم "أعلام القبائل"[34]، ويقع هذا الاقتباس في الورقة 93- السطر الأول- ثم السطر التاسع، ولكننا نرجع أن يكون الرازي المقصود هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي الذي ألف في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم ونكباتهم وغزواتهم كتابا كبيرا وألّف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها كتابا على نحو ما بدأ به أحمد بن أبي طاهر في أخبار بغداد. قال ذلك أبو محمد بن حزم الذي أضاف ولأحمد بن موسى كتاب في أنساب مشاهير الأندلس في خمسة مجلدات ضخمة من أحسن كتاب وأوسعه[35] ولعله الكتاب المذكور في المخطوط الذي نحن بصدد تحقيقه.

والذي يجعلنا نرجح ذلك كون الأول من أعلام البربر الذي نقله عنه مؤلف المفاخر وهو أبو عبد الله محمد بن خطاب كان كما يقول الحميدي قبل الأربعمائة،[36] ونفس الشيء يؤكده الضبي[37]، وبذلك يستحيل على محمد بن موسى الرازي المتوفى سنة 273هـ أن يذكر في كتابه شخصا كان قبل الأربعمائة بينما يتفق ذلك مع أحمد بن موسى الرازي الذي توفي سنة 324 هـ أي قبل الأربعمائة[38].

10- ***كتاب التشوف إلى رجال التصوف:***

لمؤلفه أبي يعقوب التادلي وهو يوسف بن يحي بن عيسى التادلي المعروف بابن الزيات، المتوفى سنة 627 هـ وقد ألف سنة سبع عشرة وستمائة كتابه المسمى بـ التشوف إلى رجال التصوف، و"تكمن أهميته في احتفاظه بـ 277 ترجمة لرجال التصوف المغاربة بينهم عدد من الأعلام المرموقين وغالبية هؤلاء المترجم لهم لا تعرف أخبارهم إلا من خلال كتاب التشوف، حيث يكتسي أهمية خاصة في تاريخ التصوف بالمغرب أيام المرابطين والموحدين إلى عصر المؤلف [39]". وهو منشور بالرباط سنة 1958م وللكتاب نشرة ثانية في إخراج أفضل من إخراج الطبعة الأولى بتحقيق الأستاذ المحاضر أحمد التوفيق [40] ويقتبس منه مؤلف "مفاخر البربر" عددا من الأعلام المغاربة بداية من الورقة 96 إلى غاية الورقة 99 من النسخة "ك" الذي يقول فيها صاحب المخطوط: "وقد ذكرهم الشيخ الفقيه الجليل الصالح المحدث الأتقى أبو يعقوب التادلي في كتاب "التشوف" له وأطنب في وصفهم بالتدين

والورع" ثم يذكره في الورقة 101 فيقول: "وكتاب الشيخ الفقيه الراوية المحدث أبي يعقوب التادلي رحمه الله شافيا وكافيا في أخبار صلحاء المغرب"[41].

11- **النبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة:**

لمؤلفه أبي الحسن بن حمادوه ويترجم له المؤلف فيقول: "ومنهم الشيخ الفقيه القاضي الأديب المشارك أبو الحسن بن حمادوه الصنهاجي مؤلف كتاب "النبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة" ولي قضاء أزمور في مدة أمير المؤمنين المستنصر وذلك في سنة 616هـ[42] وقد نقل عنه في الورقة 100 من النسخة "ك" أخبارا تتعلق بحملة القائم على مصر سنة 302 هـ مع أبيات شعرية لقائد الحملة العسكرية.

وينسب الغبريني كتابا يحمل نفس العنوان إلى أبي محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي المتوفى سنة 628 هـ ويسميه فيقول: " وله تاريخ سماه بالنبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية"[43] والذي أخطأ فيه محقق كتاب "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" لأبن عبد الله محمد الصنهاجي، وهو جلول أحمد البدوي عندما نسبه إلى هذا الأخير[44]، ويقول حسين مؤنس إن: "أبا الحسن علي بن حمادو الصنهاجي المتوفى عام 628هـ هو مؤلف كتاب "النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة"[45].

12- *كتاب الجمهرة:* لأبي محمد بن حزم:

وهو علي بن أحمد بن سعيد الفارسي ثم القرطبي المتوفى سنة 456هـ[46]، وهو ينحدر كما يقول أحمد مختار العبادي من أسرة إسبانية الأصل، وكان أبوه أحمد وزيرا للمنصور بن أبي عامر، وحينما تداعت الخلافة الأموية نفي ابن حزم إلى المرية ثم شاطبة وشارك في توليه صديقه عبد الرحمن الخامس عرش الخلافة، وصار ابن حزم رئيس وزرائه ولكن الخليفة الجديد قتل بعد شهرين فاعتزل ابن حزم السياسة وتفرغ للتأليف وأهم الكتب التي ألفها هي:

1- كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف"
2- كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"
3 - "نقط العروس في أخبار بني أمية بالأندلس"،
4 - "رسالة الأخلاق والسير في مداواة النفوس"،

5-كتاب "جمهرة أنساب العرب"[47]وهو الكتاب الذي ينقل عنه مؤلف "مفاخر البربر".

وقد دون ابن حزم في هذا الكتاب أنساب القبائل العربية الثلاث: عدنان- قحطان وقضاعة، وألحق به ذيولا من بينها جمهرة نسب البربر (ص 495-496)، وبيوتات البربر بالأندلس (ص 496-502) أي على مدى سبع صفحات ونصف،[48] ويقتبس عنه مؤلف المفاخر بداية من الورقة 107 من النسخة "ك" أخبارا عن أنساب البربر كما ينقل عنه بيوتات البربر في الأندلس في نصف الورقة 107 والورقة 108 من نفس النسخة ولكنه يضيف العديد من الأسماء إلى ما ينقله عن ابن حزم.

13- *كتاب التاريخ لمؤلفه البلاذري:*

وربما يقصد به كتاب "فتوح البلدان" والبلاذري هو أبو جعفر بن يحي بن جابر بن داود البلاذري وقيل يكنى أبا الحسن، من أهل بغداد وكان جده يكتب للخصيب صاحب مصر وكان شاعرا راوية وسوس آخر أيامه فشد في البيمارستان ومات فيه وسبب وسوسته أنه شرب ثمر البلاذر-على غير معرفة- فلحقه ما لحقه وله من الكتب:

1- كتاب "البلدان الصغير"

2- "كتاب "البلدان الكبير" و لم يتمه،

3- كتاب "الأخبار والأنساب"،

4- "كتاب جمل نسب الأشراف"،

5 -"كتاب الفتوح"[49] وعنوانه المشهور "فتوح البلدان"، ويقول فؤاد سزكين عن البلاذري إنه "ولد في العقد الأول من القرن الثالث الهجري، وزار دمشق وحمص وأنطاكيا واستمع إلى محمد بن سعد المدائني ومصعب الزبيري وغيرهم ويعد مؤرخا جامعا، من أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري وتوفى سنة 279 هـ[50]، ويضيف السيد عبد العزيز سالم أنه "أول من كتب في الفتوحات الإسلامية كتابا شاملا، وقد استقى مادة هذا الكتاب من المصادر الخاصة بفتح مصر مثل مؤلفات الواقدي والمدائني ومن المواد التي استطاع جمعها من خلال زيارته للأمصار، وعلى الرغم من اعتماده على الإسناد في رواياته إلا أن أخباره تتميز بملاحظاته الشخصية التي يرجع فيها رواية على أخرى وهذا يفسر السبب في كون كتابه يعرض صورة متزنة متسقة للأحداث، تجنب فيه إيراد روايات متعددة ومتضاربة

حول الحادث[51] ويقتبس عنه مؤلف "مفاخر البربر" أخبارا تتعلق ببناء مدينة القيروان في الورقة 109 وغزوات عقبة بن نافع الفهري في بلاد المغرب إلى غاية وفاته بتهودة سنة 63هـ في الورقة 110.

14- *سراج الملوك:*

لمؤلفه أبي بكر الطرطوشي وهو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري بن زندقة الطرطوشي، فقيه حافظ، رحل إلى العراق ودرس في بغداد، زار مصر وصحب أبا محمد السائح في لبنان ومصر، قعد للتدريس في الإسكندرية، وكانت وفاته سنة 525هـ وتآلفه كثيرة منها "التعليقية في الخلفيات" في خمسة أسفار وله كتاب كبير يعارض به كتاب الإحياء وألف" سراج الملوك"[52] وعنه يقول العبادي: "وقد ترك لنا الطرطوشي كتابا بعنوان "سراج الملوك" ألفه في مصر وأهداه إلى وزيرها المأمون البطائحي الذي كان في عهد الخليفة الآمر الفاطمي وهو كتاب في الآداب السلطانية إذ يتناول الصفات التي يجب أن يتحلى بها الملوك والأعمال التي ينبغي أن يقوموا بها في أوقات السلم والحرب ويتعرض الطرطوشي في معرض كلامه للنظم الحربيّة والخطط العسكرية التي اتبعتها الجيوش الأندلسية على عهد الأمويين، وهذا هو النص الوحيد تقريبا الذي لدينا حول هذا الموضوع، ومن هنا تظهر أهمية كتاب "سراج الملوك"[53] الذي يقتبس منه مؤلف مفاخر البربر سبعة أحاديث نبوية تتعلق بالمهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم وذلك في الورقة 114 والورقة 115.

لعل هذه كانت أهم المصادر التي اقتبس منها مؤلف المخطوط جزءا هاما من المادة التي احتوى عليها "مفاخر البربر" وغيرها كثير رغم أن الاقتباس منها كان بدرجة أقل.

الهوامش:

1 - محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- ج1 ص 68.

2 - ابن بشكوال- الصلة- تحقيق إبراهيم الابياري- دار الكتاب المصري (القاهرة)- دار الكتاب اللبناني (بيروت)- الطبعة الأولى- 1410هـ-1989م. ج1 ص 247-248.

3 - د. السيد عبد العزيز سالم- التاريخ والمؤرخون العرب- دار النهضة العربية- بيروت- 1981- ص 113.

4 - أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- دار النهضة العربية- بيروت- 1978- ص 319- 220.

5 -أحمد أمين- ظهر الإسلام- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الخامسة 1953- ج3 ص 275-276.

6 - د. أحمد مختار العبادي- نفس المرجع- ص 319-320.

7 - محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- ج1 ص 21.

8 - محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- ج1 ص 21 و22.

9 - نفسه- ج1- ص 22-23.

10- د. أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- ص 320-321.

11 - عبد الواحد المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب- ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي- دار الكتاب - الدار البيضاء- الطبعة السابعة- 1978- ص 60.

12 - عبد السلام بن عبد القادر بن سودة- دليل مؤرخ المغرب الأقصى- ج1 ص 59.

13 -محمد المنوني- المصدر العربية لتاريخ المغرب- ج1- ص 47.

14 -نفسه - ج1- ص 48.

15 - احمد بن القاضي المكناسي- جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط- 1973 - ج1- ص 25..

16 - محمد المنوني- نفسه- ج1- ص 26.

17 - أحمد أمين- ظهر الإسلام- ج3 ص 280.

18 -د. أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- ص 327.

19 - أحمد أمين- نفسه- ص 280.

20 -د.أحمد مختار العبادي- نفسه- ص 327 .

21 -محمد المنوني- المصادر العربية- ج1 ص 21/ العبادي- نفسه- ص 327-328.

22 - أحمد أمين- نفسه- ص 282.

23 - محمد المنوني- نفسه- ص 26.

24 - عبد السلام بن سودة- دليل مؤرخ المغرب الأقصى- ج1- ص 166.

25 - الزركلي- الأعلام- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الثامنة- 1989- ج2- ص 243.

26 - رابح بونار- المغرب العربي- تاريخه وثقافته. ش.و.ن.ت. الجزائر ط1 1981، 2 ص 304-315.

27 - ينظر مفاخر البربر- ص 210- 211.

28 - أبو جعفر أحمد بن الزبير- صلة الصلة- نشر إ.ل.بروفنسال- طبع بالمطبعة الإقتصادية- الرباط- 1938- ص 183.

29 -لسان الدين بن الخطيب- الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق محمد عبد الله عنان- الطبعة الأولى- الشركة المصرية للطباعة والنشر- القاهرة- 1395هـ/1975م- ج3 ص 407.

30 - عبد الله كنون- النبوغ المغربي في الأدب العربي- ج1- ص 83.

31 - محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- ج1 ص 37.

32 - الشيخ محمد بن محمد مخلوف- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية- دار الكتاب العربي - بيروت- طبعة جديدة- 1349 هـ- ص 106.

33 -أبو بكر المالكي- كتاب النفوس- طبقات علماء القيروان وإفريقية- تحقيق بشير البكوش- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1403 هـ/1983م- ص 16.

34 -الأستاذ محمد المنوني- نفسه- ج1- ص 17-18.

35 - الضبي- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس- تحقيق إبراهيم الأبياري- دار الكتاب اللبناني (بيروت) دار الكتاب المصري (القاهرة) الطبعة الأولى - 1410هـ-1989م- ج2 ص 194.

36 - الحميدي- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس- تحقيق إبراهيم الأبياري- د ك ل (بيروت)، د ك م- ط2- 141 هـ- 1989م جدص 92.

37 - الضبي- نفس المصدر- ج1 ص 103.

38 - د. السيد عبد العزيز سالم- التاريخ والمؤرخون العرب- ص 111.

39 - الناصري- الإستقصاء لأخبار المغرب الاقصى- ج2- ص 262.

40 - محمد المنوني- نفسه- ص 50.

41 - ينظر مفاخر البربر- ص 347.

42 - ينظر مفاخر البربر- ص 320.

43 - الغبريني - عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعو ببجاية- تحقيق أ. رابح بونار- ش.و.ن.ت الجزائر- الطبعة الثانية- 1971- ص 193- 194.

44 - أبو عبد الله محمد الصنهاجي- أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم- تحقيق أحمد جلول البدوي- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984 - ص 13.

45 - د. حسين مؤنس- صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد- المجلد الثاني- العدد1 و2- 1373هـ-1954 ص 201.

46 - محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- ج1- ص 23.

47 - د. أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- ص 321- 324.

48 - أبو محمد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب- تحقيق عبد السلام محمد هارون- دار المعارف بمصر- القاهرة- 1382 هـ/ 1962م- ص ص 495-512.

49 - محمد بن إسحاق النديم- الفهرست- تحقيق د مصطفى الشويمي- الدار التونسية للنشر- تونس المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1406هـ/1985م- ص 498-499.

50 - د. فؤاد سزكين- تاريخ التراث العربي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1978- ج1 ص 513.

51 - السيد عبد العزيز سالم- التاريخ والمؤرخون العرب- ص 115-116.

52 - الضبي- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس- ج1 ص 175-176- 179.

53- د. أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- ص 325.

الرواية الشفوية والتاريخ

د / عبد القادر خليفي(*)

الرواية الشفوية هي التعبير غير الكتابي الذي يحمله شخص أو عدة أشخاص بشكله ومحتواه لكي يردد وينتقل من جيل إلى جيل، مشكلا رصيدا من تراث المجموعة. أما وسيلة التعبير فهي الكلام العادي اليومي، أوهي العامية التي تنقل الخطاب من شخص إلى آخر شفاهة. ويمكننا القول أيضا إن الرواية الشفوية هي التعبير الصوتي عن كفاح ومعاناة الناس وما عاشوه في الماضي وما انتقل إليهم من تراث قديم عبر الآباء والأجداد. كل ذلك يكشف عن حياة أناس ذاقوا مرارة العيش وكافحوا من أجل كرامتهم ووجودهم مع طموحات معينة تجعلهم يتمنون الوصول إلى الحد الأدنى من مقومات الوجود الإنساني على الأرض.

وتحمل الرواية الشفوية عدة عناصر ثقافية حية ومؤثرة وفعالة تساير الشعب في تطوره، وتعبر عن فلسفته وأفكاره كالأمثال والحكم والشعر والقصص المتعدد الأشكال.

دور الرواية الشفوية:

تلعب الرواية الشفوية أدوارا عديدة وفي عدة مجالات، منها:

1- أنها تضطلع بدورها الثقافي كوسيلة تكمل المعرفة التاريخية وتعمقها بإعادة بناء الفترات التاريخية السالفة التي لا يوجد عنها إلا شواهد ضئيلة متفرقة. وقد اعتُمدت من قبل منظمة اليونسكو كوسيلة بحث تاريخي عند الشعوب التي تفتقد الوثائق المكتوبة.

(*) **أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر وباحث في مخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم " بجامعة وهران.**

يقول يان فانسينا في هذا المجال: "إنه ليس من المناسب أن نسائل أنفسنا ما إذا كانت المأثورات الشفهية ستستخدم أم لا، ذلك أنها مستخدمة بالفعل ولا أحد يستطيع أن يتصور تاريخا حقيقيا لإفريقيا دون أن يضع المأثورات الشفهية في اعتباره."[1]

2 - أنها جذبت علماء الأنثروبولوجية الذين أكدوا على أهمية الرواية الشفوية خاصة، والموروثات المتعددة الأخرى عامة، في الكشف عن ملامح الشخصية القومية.

3- أنها وسيلة ناقلة لفكرة الجماعة و إيديولوجيتها، فتعكس آمال وآلام الطبقة التي تنتمي إليها، لذلك عمل رواد الاستعمار الأوربي في العصر الحديث على دراسة الموروثات الشعبية لمختلف الشعوب لفهمها وتسهيل عملية السيطرة عليها، وإخضاعها للأمر الواقع، مما جعلهم ينتهون إلى نتيجة أخرى هي أن ثقافة هذه الشعوب متخلفة ، وأنه يجب نشر الرسالة الحضارية بينهم عن طريق الأفعال الإنسانية التي مارسوها على مختلف شعوب العالم وبخاصة في الجزائر.

4- تضطلع الرواية الشفوية بكثير من الأحداث التي قد يهملها التاريخ المكتوب أو يستنكف عن تسجيلها، لكن الذاكرة تسجلها " وتتناقل شفويا فيما بين الأفراد وتكوّن نوعا من التأريخ الذي كثيرا ما يكون صادقا كل الصدق أكثر من التاريخ المكتوب." أي أن هناك مسائل قد تكون شخصية بسيطة تجنح الكتابة عن تسجيلها، لكن الرواية الشفوية تنقلها، ويكون "فيها من الأخبار السرية التي قد تكشف عن الأسباب العظمى الخطيرة أكثر مما تكشف عنه التحليلات التاريخية المنظمة."[2] والأخبار-تعطي معلومات كثيرة لا سبيل إلى الحصول عليها إلا بهذه الوسيلة.

الرواية الشفوية عند العرب:

ظلت الرواية الشفوية هي وسيلة التعبير الوحيدة طيلة فترات طويلة من الزمن، حيث كان العرب في العصر الجاهلي يعتمدون على الذاكرة في نقل أخبارهم وأخبار أسلافهم وتداول إبداعاتهم، وحتى في مبارياتهم الشعرية والخطابية، التي كانوا يعقدونها في أسواق عكاظ والمجنة وذي المجاز، حيث كان الإلقاء الشفوي والتحكيم الشفوي هو الغالب، باستثناء المعلقات السبع التي وضعت على أستار الكعبة وبعض العقود والمواثيق. وعندما ظهر الإسلام وانتشر التعليم لم يقع تطور كبير قي مسألة التدوين، إذ لم يتم تدوين شيء سوى

القرآن الكريم، وذلك في صحائف متفرقة، إلى أن تم جمعه في عهد الخليفة عثمان بن عفان. واستمرت حياة العرب المسلمين لا تختلف كثيرا في هذا الجانب عن حياتهم السابقة في اعتمادهم على الذاكرة والنقل الشفوي، إلى أن حل مادُعي بعصر التدوين أو التجميع. وذلك في نهاية القرن الأول الهجري، فسجل الدارسون -عن طريق الرواية الشفوية- الكثير من أخبار العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، وأشهر ما تم تسجيله هو قصص أيام العرب حول الوقائع الحربية التي حدثت في العصر الجاهلي.

وبدأت دراسة العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي. يقول السيوطي في حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن ما يلي: "وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدأ الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ والقصص"[3]. وهذا يعني أن تسجيل التاريخ والقصص كان الهدف منه فهم القرآن والتعرف على معانيه ، ثم أصبح غرضه إزجاء الفراغ والمسامرة. وهذا يؤدي بنا إلى القول إن عملية التجميع والتدوين كانت قد بدأت في العصر الإسلامي. ويذكر أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" أن العرب لم يعرفوا التدوين في القرن الأول، وفي القرن الثاني بدأت جماعة في الأمصار المختلفة تجمع الحديث..[4]

أما القرآن الكريم، ورغم قداسته، فإنه لم يُجمع في مصحف واحد- كما ذكرنا- إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما ظل الحديث النبوي يروى على الشفاه إلى نهاية القرن الأول الهجري، إذ أن المسلمين تحرجوا أول الأمر، من أن يجمعوا إلى كتاب الله كتابا آخر، إلا أن الحاجة الملحة إلى معرفة الناس بحياة النبي صل الله عليه وسلم عجلت بعملية التدوين التاريخي لحياة النبي وغزواته خلال العهد الأموي، وتلا ذلك تدوين مختلف أنواع المعارف. وقد عُدت المغازي جزء من السيرة النبوية "وكانت أوائل الكتب التي نعرفها عن صدر الإسلام كتب المغازي، وأول من اشتهر في تأليف المغازي أبان بن عثمان بن عفان"[5]، وأخضعت مثل الحديث لأحكام الإسناد خضوعا دقيقا. يقول محمد الرازي: " وقد هيأ الله تبارك وتعالى لنا سلف صدق، حفظوا لنا جميع ما نحتاج إليه من الأخبار في تفسير كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وآثار أصحابه وقضايا القضاة وفتاوى الفقهاء، واللغة وآدابها والشعر والتاريخ وغير ذلك. والتزموا وألزموا مَن بعدَهم بسَوْق تلك الأخبار

بالأسانيد، وتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد على نقد أخبارهم، وحفظوها لنا في جملة ما حفظوا، وتفقدوا أحوال الرواة، وقضوا على كل راو بما يستحقه.."[6]

فشروط جامعي التراث العربي والإسلامي كانت ترتكز أساسا على السند، وذلك باتباع قواعد الرواية المسندة التي يذكر كل ناقل سنده بنقلها، أي يبين عمن تلقى روايته ويذكر الوسائط واحدا عن الآخر إلى النهاية. والتزموا بذلك حتى لا يقبل نقل من ناقل إلا ببيان سنده. وقد سجل التاريخ ذلك للمسلمين خصوصية ليست لغيرهم من الأمم. كما عملوا على تتبع تاريخ الرواة وأخبارهم، وتمكنوا من معرفة اتجاهاتهم وميولهم، حتى يعرفوا مدى صدق روايتهم والأغراض التي يمكن أن تكون وراء واضعي الأخبار والأحاديث. وكان الهدف هو الوصول إلى الصدق والحقيقة، وإبعاد الشخصية والمذهبية المشوهة للحقائق.

وفي هذا يقول أبو محمد الرازي: " فلما لم نجد سبيلا إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ولا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من جهة النقل والرواية، وجب أن نميز بين عدول النقلة والرواة وثقاتهم، وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم، وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة." [7]

الرواية الشفوية في العصر الحديث:

إن الرواية الشفوية هي حاملة وناقلة للتراث الشعبي، ودراستها تعتبر من المسائل الهامة في البحث عن حياة أي شعب من الشعوب. وحضارة أي شعب لا يمكن أن تستمر دون الحفاظ على فكرها ووجدانها. ومن هنا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على الموروث الشعبي إلى جانب مصادره التقليدية المتمثلة في الوثائق والسجلات وشهادة المؤرخين، ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر، أي الأشياء المسجلة والشفوية ، يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية، ورسم صورة كلية لها.[8]

ونظرا لهذه الأدوار التي تقوم بها الرواية الشفوية فإن الباحثين في تراث الشعوب البدائية والجماعات التي تنعدم عندها الوثائق المكتوبة، في الوقت الحاضر، مضطرون إلى الاعتماد- بالدرجة الأولى- على الرواية الشفوية بخاصة، والمأثور الشعبي بعامة، لهذه الجماعات ليستخرجوا منها بعضا من تاريخها القريب أو البعيد.

فالتراث الشعبي المادي منه والمروي يعتبر المصدر الأول لدراسة الشعوب التي لم يَعرف تاريخُها التدوين. فالتاريخ عندها يُلقن ويتناقله الناس عن طريق الرواية. وهنا يأتي دور الباحث في الجمع والتسجيل.

وقد نشط علماء القرن التاسع عشر في هذا الميدان، فدرسوا عدة شعوب بدائية في إفريقيا وآسيا وأمريكا وجزر المحيط الهادي. واعتبروا أن دراسة الإنسان البدائي هي المدخل الطبيعي لفهم الحضارة الإنسانية، وقد "كان هؤلاء العلماء يحاولون فهم الحضارات القديمة عن طريق مقارنتها بالثقافات التي كانت سائدة في مجتمعات القرن التاسع عشر، وبخاصة لدى الشعوب المتخلفة التي يطلق عليها بصفة عامة اسم الشعوب البدائية... على زعم أن تلك الشعوب تمثل المراحل الأولى والمبكرة التي مرت بها الحضارة الإنسانية في تاريخها الطويل."[9]

وهذا يعني أن ثقافة هذه المجتمعات تمثل المراحل الأولى للثقافة البشرية في عمومها، لذلك نزل كثير من العلماء إلى الميدان وقاموا بأبحاث حقلية لمعرفة الحياة الاجتماعية والممارسات اليومية للشعوب، وأصبحت أعمالهم ثروة علمية لا يمكن الاستغناء عنها لأي دارس في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وقد قام الكثير من المؤرخين الفرنسيين ومحبي جمع التراث الشعبي – في الجزائر– بجمع ما يتداوله الناس شفاهة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وجعلوا ذلك مصدرًا لكتاباتهم عن المجتمع الجزائري. وهانحن اليوم نجد أن جل ما كتب عن المجتمع الجزائري خلال العهد الاستعماري اعتمد على المصادر الشفهية، وأصبح مرجعا للكتابة عن أوضاع الجزائر خلال تلك الفترة وما قبلها أيضا.

وجد جامعو ومسجلو الرواية الشفوية أن الاعتماد على هذا المصدر ضروري وخاصة عندما تنعدم الوثائق المكتوبة. وهكذا تصبح الرواية الشفوية في "أحيان كثيرة المصدر الوحيد لمعرفتنا عن شعب من الشعوب في عصر من العصور."[10]

<u>المرويات الشفوية في العهد الاستعماري بالجزائر:</u>

ازدهر ميدان المأثورات الشعبية خلال الفترة الاستعمارية لبلادنا (1830-1962) لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي بقيت في أيدي الجماهير بعد أن تم طرد السكان من أوطانهم،

وسلطت عليهم مختلف أنواع القهر والظلم، وأغلقت في وجوههم أبواب العلم، فعم الجهل والبؤس والمرض، والتجأت الجماهير إلى التعبير عن مأساتها بواسطة الكلمة الشفوية تحيي بها أمجاد الماضي وتستعيد ذكريات رجالها البواسل، واعتبرت ذلك نوعا من المقاومة والصمود.

لقد خلقت فترة الاحتلال أبطالا حقيقيين رفضوا الظلم والاستغلال وقاموا بسلسلة من الأعمال البطولية لفتت إليهم الأنظار فناصرهم الشعب وشد أزرهم، وعلى مر الأيام خلق منهم أبطالا بارزين بما نسج حولهم من أعمال خارقة ووضعهم في إطار عجيب يمارسون فيه بطولتهم.

وقد واجه الشعب أعمال الإرهاب الاستعماري بطرق متعددة كالهجرة ورفض التجنيد فرديا وجماعيا، وبحمل السلاح والاعتصام بالجبال. وقد احتفظت الذاكرة الشعبية في كل منطقة من مناطق بلادنا الواسعة بكثير من قصص أولئك الأبطال الذين "اتخذ وجودهم وأعمالهم حجما جديدا في مواجهة الدولة الاستعمارية التي يتحدونها، رافضين عمليا شرعيتها ورافضين القَبول بشريعة الأقوى."[11]

وقد أذكت مغامرات وبسالة هؤلاء روح الحماس لدى الجماهير الشعبية، فراحت تستعيد ذكريات بطولتهم عن طريق الكلمة المنطوقة، وتناقلتها الأجيال عن بعضها، مما كان له دور في الإبقاء على روح النضال والمقاومة.ولكن التاريخ أهمل مثل هذه الحركات فلم تحظ بالاهتمام اللازم بحجة أنها أعمال فردية أو أنها جد محلية.

إن أرض الجزائر طولا وعرضا لم تخل أبدا من أمثال هؤلاء الأبطال البواسل الذين تمردوا واعتزلوا المجتمع الساكن الخامد تحت عصى الإرهاب والتقتيل والتجويع، والتجأوا إلى الجبال عزّلاً أو مسلحين رافضين حكم الاستغلال و الاستعباد .

وتحتفظ الذاكرة الشعبية بأحداث تاريخية هامة مرت بها الجماهير الشعبية، سواء كانت قريبة أو بعيدة برموزها ودقائق أحداثها تشوبها -أحيانا- ألوان من الكرامة والخوارق، فجاءت رواياتها "في صورة قصصية رائعة، أضفى عليها الخيال الشعبي طابع البطولة والتضحية، وطبعها بروح الشهامة والعزة."[12]

الشعب الجزائري وعلاقته بالثورة التحريرية.

إن وضعية الشعب الجزائري غداة الثورة التحريرية (1954-1962) كانت جد مأساوية اقتصاديا واجتماعيا، لما لاقاه الناس من بطش ونهب وتدمير خلال الفترة الاستعمارية الطويلة وبخاصة في مرحلة الثورة الكبرى. وقد انكبت جهود جبهة التحرير الوطني -قائدة الثورة التحريرية- على الأخذ بأيدي الشعب، حتى ترفع من مستواه المادي والمعنوي، وتخفف عنه عبء التسلط الاستعماري. من ذلك أنها قامت بتعليم أبناء الجزائر كبارا وصغارا لمواكبة العصر، إلا أن الظروف لم تكن مواتية لمثل تلك الأهداف النبيلة، فقد كانت الأمية هي السائدة على كل المستويات، وكان الخطاب الشفوي والاتصال المباشر واستعمال اللغة البسيطة هي وسائل الاتصال والتبليغ إلى مختلف الطوائف الشعبية.

اندفع الشعب ملبيا نداء الوطن ونداء الوجدان بكل حماس ورغبة، فقاتل المقاتل واستشهد الشهيد دفاعا عن القيم الحضارية واعتزازا بها وتوكيدا لها في وجه المحتل، الذي سعى إلى سحق إرادته وسلب هويته. فالوجود الذي يدافع عنه المناضل والمجاهد هو وجود حضاري ثقافي قد لا يعيه المواطن البسيط الأمي بصورة واضحة أو بشكل جميل رائع، ولكنه يعيشه في أعصابه وفي خَلَده. ورغم انتشار الأمية فإن قادة الثورة كانوا على مستوى جيد من الوعي والتعليم يتناسب والعصر الذي كانوا يعيشون فيه. لقد استغلوا كل من كانت له أصابع تستطيع رسم الحروف الأبجدية ليرسم بها حروف مستقبل الجزائر، إلا أن السلطات الاستعمارية كانت بالمرصاد لمثل تلك الحروف التي تحمل أسرار ثورة أبت إلا أن تخاصم عدوا طاغيا متجبرا.

فكم من تقارير أحرقت كي لا تقع بأيدي قوات الاستعمار! وكم من وثائق تَمّ بلعها أو دفنت تحت التراب فأكلتها الأرَضة. كما أن ظروف الثورة التحريرية وتغيير مواقعها باستمرار، كثيرا ما كان يفقدها العديد من المعلومات المكتوبة .

لقـــد كان الثوار يدركون خطر الكتابة والتسجيل، حيث كان أكثر نظامهم سريا، لأنه مبني على المقاومة والتعرض للأخطار. ثم إن التفتيشات المتكررة والاعتقالات من قبل الاستعمار، كانت بالمرصاد للجميع.

وهكذا وجدنا أنفسنا بعد استعادة استقلالنا وحريتنا محرومين من كثير من الوثائق التي يُعتمد عليها في كتابة تاريخ ثورتنا المجيدة، إلى جانب استشهاد عدد كبير من مسيري الثورة وزعمائها الذين كانت بأيديهم مخططاتها وأسرارها.

كيف العمل إذن أمام هذه الظروف؟ هنا فقط عرفنا قيمة الذاكرة الشعبية التي تعبر عنها الرواية الشفوية بغرض تسجيل ما لديها وتحويله إلى صحائف مكتوبة منعا للتشويه والتزييف عن قصد أو عن غير قصد. وتسابقا مع الزمن قبل أن يختفي حاملوا تاريخ بلادنا في زمن الثورة، فهم شهود العيان وهم مسطرو التاريخ، لأنه وبالاقتراب منهم وكلما تعدد الرواة، إلا واقتربنا من الحقيقة أكثر ونتمكن من التحليل والمقارنة والاستنتاج.

العوائق المعترضة:

يعترض الباحث عند قيامه بتسجيل الروايات الشفوية، أي تحويلها إلى الواقع المكتوب، بغرض دراستها وتحليلها عدة صعوبات، منها:

1- **الذاتية:** عندما يقابل الباحث شاهدا أو راو فإنه يجد نفسه أمام شخص له واقع خاص به ، وله شعور وعاطفة، فلا بد أن تتداخل الذاتية مع الواقع المجرد سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد. وبدل أن يسجل الباحث أحداثا تاريخية يجد نفسه يسجل حياة شخص مدفوع بميوله وغرائزه، وبقيمه الثقافية. فقد يتغاضى الشاهد عن النقائص التي شهدها أو سمع بها، ويختار ما كان بارزا جذابا، وقد يقيِّم الأمور تبعا لواقعه وتجربته، فيعبر عن عواطف وأفكار سائرة وعادات معروفة، ليتجنب الصدام مع الناس في حالة ما إذا ذكر الخبر الصحيح.

وقد يجعل لشخصه ولذويه مكانة رائدة ودورا مهما في مختلف الأحداث، إذ أن كثيرا من الرواة يحلو لهم الإستطراد لإضفاء مزيد من المدح على بعض الزعماء، وإعطاء أهاليهم و"دَوَاوِيرِهِمْ" النصيب الأكبر والقسط الأوفر في الجهاد. كما قد يعمل على الانتقاص من الدور الذي لعبه هذا أو ذاك لسبب أو لآخر.

2- **التهرب من الإدلاء بالشهادة:** إذا كان هناك الكثير من الناس مَن يقبل الاستجواب ويجد فيه التقدير وخلود الذكر، فإن هناك من يتهرب من الإدلاء بشهادته سواء كان ذلك

لظروف قاسية مرت به أو لعدم ثقته في الآخرين أو خوفا من تحريف شهادته أو لأسباب أخرى.

3- **ضعف الذاكرة بمرور الوقت:** تفقد الرواية الشفوية بعض عناصرها أو تدخلها عناصر جديدة إذا ما طال عليها الزمن، أي أنها تصاب في كثير من الأحيان بنوع من الطرح والإضافة والتعديل تبعا لزمن ومكان الراوي لما ينشأ لدى الناس من مواقف وما يحيط حياتهم من ظروف وتحديات، أي أن "النقل الشفوي يظل انطباعا خاضعا للتحريف في ذاكرة المشاهد باختلاطه بانطباعات أخرى، وبمروره شفويا بوسطاء فيحرف في كل نقل."[13] مما يؤدي إلى النقص في تفاصيل الأحداث والتضارب في بعضها إلى جانب ضياع معلومات هامة بهلاك حامليها.

وكثيرا ما تتجاوز الرواية الحدث التاريخي لتقترب من الواقع النفسي للشعب، أي أن عملية القص الشعبي في هذه الحالة لا تنقل التاريخ حرفيا، بل تصبغه بما يجب أن يكون، معبرة بذلك عن ذات الجماعة أو الشعور الجمعي.

4- **ظاهرة الخوارق والكرامات:** لقد خاض الشعب الجزائري مختلف مقاوماته وثوراته ضد الاستعمار الفرنسي تحت شعار "الله أكبر" فحارب عدوا كافرا غاصبا يختلف عنه عقيدة وحضارة، دينا وجنسا، واندفع يطلب الشهادة أملا في دخول جنة الخلد تحت ظلال البنادق. وآمن بالنصر الذي وعد الله به المؤمنين لأنه يدافع عن الحق، والحق يعلو ولا يعلى عليه. وانطبعت في وجدانات الأفراد ظواهر مرتبطة بالمعتقدات الدينية تَمَثّلوها في حاضرهم كماضيهم كالكرامة وخوارق العادات.

وهكذا وجدنا في كثير من الأحيان أخبارًا عن شهيد وجد مستندا على إحدى الصخور كما تركه زملاؤه أول مرة لم يمسسه سوء، ووجدنا آخر يذكر أنه عندما استْخرج جثمان والده الشهيد لينقله إلى مكان آخر انبجس الدم من أحد أعضائه، وهذا بعد مرور عدة عقود من السنين. هذا إلى جانب ورود ظاهرة طي المسافات البعيدة واكتساب المجاهد الحماية من إصابات الطلقات النارية وغير ذلك من الظواهر الغير عادية.

ويبقى المؤرخ مختلفا عن غيره من العلماء الذين يعتمدون على طريقة الملاحظة فقط، إذ يعتمد على وقائع منقولة شاهدها سابقون فنقلوها إلينا سواء كانت مكتوبة أو شفوية؛ أي

أن المعرفة التاريخية لا تكتسب عن طريق مباشر بل يتحصل عليها بطريق غير مباشر، وهذه هي أهم صعوبة تعترض المؤرخ. فالتاريخ علم برهنة وليس علم ملاحظة.

كيفية الاستفادة من الرواية الشفوية:

تعتبر الرواية الشفوية وثيقة مادية يجب استغلالها أحسن استغلال. وعلى الباحث أن يطرح على نفسه مجموعة من التساؤلات منها مثلا:

1- ما مصدر الرواية ؟

2- من هو القاص الأول وما علاقته بالحادثة ؟

3- ماذا أراد الراوي أن يقول ؟

4- هل كان مؤمنا بما قال ؟

5- هل رويت الحادثة كما وقعت؟ ألم يطرأ عليها تغيير أو تحريف ؟

ومن أجل الوصول إلى تحليل أفضل يجب اتباع مجموعة من التدابير منها :

1- يستحسن أن يستعمل الباحث وسيطا بينه وبين الشاهد أو الراوي حتى يتم الاستئناس وتسود الثقة بين الطرفين وترتبط خيوط المودة والألفة، وعليه أن يوضح للراوي أو الشاهد ما يهدف إليه حتى لا يظن به الظنون، وأن يختار الظروف الملائمة بقدر الإمكان، كالحالة النفسية للراوي حتى لا يقع تحريف لإرضاء الباحث أو كسب تعاطفه أو الشعور بالخوف أو المبالغة في الثقة بالنفس.

2- أن يحدد الباحث الظرف الزماني والمكاني حتى لا يترك الحرية الكاملة للراوي يتصرف دون حدود[14]، إذ لابد من حصر الموضوع.

3- أن يتجرد الباحث من خلفياته الفكرية والسياسية، فيكون مجرد آلة تسجيل للذاكرة الشعبية.

4- يستحسن أن يزور الباحث المنطقة التي جرت فيها الأحداث لمعاينة المكان ومساءلة السكان والاستفسار عن كل ما يعترض سبيله من صعوبات، لأن التعامل مع المرويات هو عمل ميداني لا يمكن دراسته دراسة مكتبية بحتة، أي أن التعرف على البيئة التي نشأت فيها المرويات ضروري.

5- ضرورة التعرف على لهجة الراوي من أجل تفسير جيد وصحيح للرواية، لمعرفة المعاني الخاصة والألفاظ والمعاني الملتوية كالرموز والتعليقات والإضمار والتلميح والأداءات والتصورات الشعبية، التي يبغي منها الراوي الوصول إلى هدف ما، كجلب منفعة، فيخدع الباحث ليدفعه إلى عمل ما أو يصرفه عنه، أو أن تكون للراوي رغبة العطف على جهة معينة أو كراهة لها فيشوه الوقائع أو يحسنها. "إن معرفة المجتمع واللغة أو اللغات التي يتعامل بها تعني بالنسبة للمؤرخ أن يكون عالما بالأجناس، ومن ثم لن يستطيع إنجاز عمله بنجاح دون تحضير مسبق وإعداد دقيق."[15]

6- ضرورة التعرف على الراوي وعلى انتماءاته المذهبية والحزبية من أجل معرفة مدى تأثير ميوله وانتماءاته على الشهادات التي يدلي بها والمصالح التي يريد أن يحميها.

7- أن يقارن الباحث بين مختلف الروايات حول الحدث الواحد، ليستخلص منها الأساس التاريخي المشترك.

8- أن ينبذ التفاصيل التي تبدو مستحيلة أو خارقة للعادة أو متناقضة وأن يحتفظ بالباقي المعقول على أنه تاريخي.[16] أي الاعتماد على ما يتماشى مع الإرادة البشرية وطرح كل ما يصبغ بخوارق الصفات وتدخل الكائنات الخرافية.

9- أن يضع الباحث الحدث الشفوي موضع الارتياب فيبحث في الوثائق المكتوبة عن الأقوال المسجلة شفاهة للمقارنة بهدف الوصول إلى الحقيقة.

10- بما أن الرواية الشفوية خالية من التأريخ للأحداث -في أغلب الأحوال- فإن عمل المؤرخ يتطلب منه العودة إلى التاريخ المكتوب للاستفادة منه في هذا المجال، وهذا لإثراء المادة التاريخية ووضعها في إطارها المناسب.

11- لابد من البحث عن الأشخاص ذوي الملكة القوية على الحفظ والإلقاء، أي الذين لهم دراية بالحدث أو بالمأثور المعين، والذين يهيئ لهم وضعهم الاجتماعي التمكن من المعلومات. ويمكن أن يكون التناقل أبا عن جد كما يمكن أن يحدث في مجتمع طائفي مثلما يحدث بين "مرابط" سيد وآخر يخدمه(القبائل التي تخدم سيد الشيخ مثلا). والتركيز أكثر على الأشخاص الذين لم يتركوا بيئتهم الأصلية لأنهم أقدر على الاحتفاظ بالمأثور الخاص من غيرهم الذين انتقلوا إلى بيئة أخرى، إذ يحدث في كثير من الحالات أن تنسى تلك المأثورات

بسبب ما اكتسبه هؤلاء من الأشخاص الذين صحبوهم في البيئة الجديدة، والذين قد يكتس بوا عقلية أجنبية.[17]

12– إذا كان المكان المراد تسجيل أحداثه ومأثوراته صغير المساحة فعلى الباحث أن يقوم بجمع كل الشواهد من كل الرواة الذين يعرفون المأثورات. أما إذا كانت المنطقة واسعة فعلى المرء أن يضع قائمة بأسماء الأماكن المراد زيارتها للقيام بالبحث الوافي، فيبدأ بالمكان الذي وقعت فيه الأحداث التاريخية، لأن الرواة هناك يعرفون معلومات أكثر ممن يعيش في مكان آخر، ويلي ذلك الأماكن التي يتوقع أن يكون بها رواة لهم علاقة بالحدث.

13– يستحسن أن يعاد الاتصال بأهم الرواة وتدوين ما يعرفونه كتابة وذلك لاختبار قوة ذاكرتهم ومدى صدق تصريحاتهم.

خاتمة:

إن المبادرة بتسجيل التاريخ القريب وخاصة تاريخ الثورة التحريرية الكبرى أمر لا يحتمل التأجيل وإلا أصابه ما أصاب تاريخنا البعيد من مبالغات أبعدته عن إطاره التاريخي فيضيق مجال المؤرخ آنذاك شيئا فشيئا.[18]

وإذا كان رواة التاريخ البعيد مثل المقاومات الشعبية المسلحة، هم غالبًا من أبناء أو أحفاد شهود العيان، فإن رواة تاريخ ثورة أول نوفمبر 1954م هم أنفسهم الذين شهدوا الوقائع وشاركوا في الأحداث السياسية والعسكرية مما يسهل الأمر للباحث ويقلل من إمكانيات التعديل الكبير لقرب العهد وتعدد الرواة الشهود.

إن التاريخ الشعبي الذي تعبر عنه الرواية الشفوية هو جزء من التاريخ العام لأن التاريخ الرسمي لا يسجل كل دقائق الأمور. أما تاريخ بلادنا فقد تم تسجيله في مجمله بواسطة خصومنا بالأمس، ولذلك جاءت كتاباتهم معبرة -في كل الأحوال- عن الطرف الآخر. وهكذا فقدنا جزء من التاريخ الوطني لأنه لم يسجل في حينه بأقلام وطنية.

وهـــكذا كانت الرواية الشفوية ولا زالت أكثر من ضرورية لربط الحاضر بالماضي. إن التاريخ العريق والثقافة المميزة والتراث الحضاري المتجدد لا يمكن أن يستمر في الحفاظ على مقومات وجود الشعب إذا كان الناس يتجاهلون تراثهم المنقول شفويا. إن التراث هو الذي يربط الآحاد بعضهم ببعض، ويربطهم بالماضي ويجعلهم على وعي بالحاضر واستشراف للمستقبل.

الهوامش:

1- يان فانسينا،المأثورات الشفاهية، ترجمة ودراسة أحمد علي مرسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،1981،ص:53.
2- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، القاهرة،1968، ص:217.
3- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، ج:02، بيروت، 1973، ص:127.
4- أحمد أمين، فجر الإسلام، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر،1989، ص:358-359.
5- فاروق خورشيد، في الرواية العربية، دار الشروق،1975، ص:80.
6- أبو محمد عبد الرحمن التميمي الرازي، كتاب الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت1952، ص:أ. (متوفى 327هـ)
7- المرجع نفسه،ص:05.
8- قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، دار روتا برينت للطباعة"، القاهرة،1993، ص:37.
9- سير جيمس فريزر،الغصن الذهبي، ج1، ترجمة تحت إشراف أحمد أبوزيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1971، ص:10.
10- عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق،ص:217.
11- عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت،1980، ص:176.
12- التلي بن الشيخ، دور الشعر العربي الجزائري في الثورة، ش و ن ت، الجزائر، 1983، ص:63.
13- أنجلو وسنيوبوس، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات،ط:04، الكويت،1981، ص:140.
14- جريال دحو، الذاكرة والتاريخ، محاضرة بمعهد التاريخ، جامعة وهران في 03-11-1997.
15- يان فانسينا، مرجع سابق، ص: 47.
16- أنجلو وسنيبوس، المرجع السابق،ص:142.
17- يان فانسينا، مرجع سابق، ص:356.
18- روزلين قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1980، ص-113.
تقول الباحثة إن الرواية الشعبية التي تتناول بطولة ثورة أول نوفمبر قد دخلها شيء من العجيب اللازم للقصص البطولي الشعبي.

Footnotes:

(1) Quoted in *Al Djazair Akhbar Wa Wathaiq* (Algeria News and Documents), 31[ST] October 1975,No.86, p.15.
(2) Ibid ., p.14.
(3) Ibid . ,p.15.
(4) Ibid. , p.15
(5) Ibid. ., p.16.
(6) Djerad Abdellaziz, Les Discours Unitaires et les Relations Inter- Arabes (Thèse de Doctorat d'Etat en Sciences Politiques à l' Université de Paris X) 1976,Tome I .p. 56 .
(7) For useful studies of the politics of the thirties see Charles-André Julien l 'Afrique du Nord en Marche Nationalismes Musulmans et Souveraineté Française (Julliard, Paris, 1955) and C.A. Julien, Histoire de l Algérie Contemporaine, vol. I. (P U F , Paris, 1964).
(8) Edgar O' Ballance, Arab Guerrilla Power, 1967-1972 (Faber and Faber, London, 1974), p. 28.
(9) Jean-Paul. Chagnollaud, Le Maghreb et le conflit Israélo-arabe. Thèse de doctorat d'état.Université de Paris I., p. 29.
(10) *L Entente* , 13[th] October 1938, For other important articles see *L'Entente*, 9[th] December, 1937, 10[th] November 1938, 9[th] March 1939, 30[th] March 1939 , 10[th] July 1939.
(11) J,P. Chagnollaud, thesis, op . cit, p. 79.
(12) David Gordon , The Passing of French Algeria,(Oxford University Press, London, 1966), p.29.
(13) Richard Lawless, Algeria, world Bibliographical Series, No. 19,(Clio Press, Oxford , England, 1980), p. XXI
(14) Published in French, Its articles were inspired by Chekib Arslan.
(15) J.P. Chagnollaud , thesis, op. cit, p.81. this rubric covers around 1/16[th] of the total of the newspaper . It was regular, at least from 1938.
(16) *El Ouma* , No. 69, January 1939.
(17) Quoted in J. P. Chagnollaud, thesis, op. cit pp.81-82.
(18) Abduh's influence on Ben Badis was mainly nom-political. He advocated educational and cultural reforms and indicated to his Algerian colleagues that through education the Algerian nation would rise. Ben Badis was active for three decades before forming the Ulama Association. See Ali Merad, Politique "l'Enseignement de Mohamed Abduh aux Algériens (1903) , " in *Orient,* 1963, trim. 4 ‹ pp.75-122.
19) Ali Merad, Le Réformisme Musulman en Algérie (1325-1940) (Mouton, Paris, 1967) p. 68.
20) *Al-Chihab,* April 1936.
21) *Al Chihab,* Tome 5. 13, 1937, p.258, *La Voie du Peuple*, Novembre, 1933 and March 1934. *La Defence* , 3rd August 1938. See also Omar Kadri , Kifah Al-Chaab Al Falastini Ibra Al Ajyal (The Struggle of the Palestinian People throughout the Generations) (Palestinian Information Centre. Algiers, 1985), pp.15-16.
22) *Al Djazair Akhbar Wa Wathaiq,* 30th June 1975, p.26.
23) *La Defence*, 3[rd] August, 1938.

- Abandoning the division project.
- Stopping all Jewish immigration to Palestine.
- Leaving Palestine to the Palestinians. [23]

The Ulama`s position on Palestine was inspired by their policies on Algeria aimed at enhancing the identity of Algeria as part of the Arab and Muslim world.

alliance with the French only, but also their Zionism. When the peel Commission recommended in 1937 the termination of the mandate and partition of the country between Arabs and Jews, Taibi Al-Ouqbi, a leading member of the Ulama stated that Palestine Would not be defended by the Palestinians alone, but by all the Arabs and Muslims [22] . In November 1933, *La voie du peuple* , published in French, wrote :

« L impérialisme anglais depuis 1917 et sous l` instigation de Balfour et du Baron Rothschild et son internationale famille ne perd pas une occasion pour fonder un foyer juif sur les ruines du foyer arabe...Il est malheureux que la Société des Nations si attentive au droits des minorités européennes se désintéresse cyniquement du sort des minorités musulmanes .Seul le retrait du mandat a l` Angleterre pourrait constituer une preuve que la Société des Nations existe vraiment... Indignes, touches et alarmés par la barbarie que caractérise les impérialistes anglais .. nous observons en la circonstance un deuil légitime » . On 3rd August 1938, La Défense, which was published also in French wrote " Des évènements tragiques se déroulent actuellement en Palestine.Un peuple faible , mais héroïque , défend contre les entreprises de l`impérialisme britannique , allia au colonialisme sioniste sa vie, son honneur et sa liberté.. Pourquoi Arabes et juifs se battent-ils et comment faut-il agir pour qu`ils cessent de se battre ? .... Les Arabes ne fond que défendre leur patrimoine ancestral contre les convoitises d`une poignée de gros capitalistes venus des différents parties du monde , ils cherchent a exproprier les Arabes et à donner leur terres à des immigres israélites dont le nombre croit de jour en jour ... Quant aux Arabes , ils désirent tous simplement rester chez eux, Ils ne contestent pas aux israélites natifs du pays , quelconque de leurs droits et ils ne demandent qu`a vivre en paix avec eux sur un pied de parfaite égalité . Mais ils sont intransigeants sur le principe de l`intégralité et de l`indépendance de leur patrie. Apres de multiples et vaines tentatives d`asservissement Intégral des Arabes au profit des sionistes , l`Angleterre a songé a partager la Palestine entre les deux éléments ethniques qui le peuple. Pour arriver à une solution pacifique et acquittable de cet angoissant problème palestinien , il y a , à notre avis qu'un seul moyen :abandonner le désastreux projet de partage, arrêter toute l'immigration et laisser la Palestine aux Palestiniens.»

To the Ulama, the Peel Commission recommendation was a humiliation which no Arab could accept. The Ulama argue that the solution to the Palestine problem lay in :

The importance of this analysis does not lie only in the strong element of Arabism in the policies of the PPA , but also in the connection made between imperialism and Zionism . Meanwhile, one should emphasize that the PPA's negative feelings towards the Jews in Palestine was not similar to the anti-Semitism of Europe.

The PPA position on the Palestinian was affected by the fact that the Algerians themselves were dispossessed . the demands made by the PPA at the end of the previously-mentioned article were similar to its policies on Algeria itself. Arabism was the source and the party's views on both Algeria and Palestine. The PPA's positions on Algeria and Palestine were in conflict with those of the évolues .

3- The Ulama

The impact of the religious reformist movement in Algeria was first felt in 1903, when Mohamed Abduh made a brief visit to Algiers and Constantine. One of the first Algerians to respond to his teaching was Abdelhamid Ben Badis [1890-1940] [18].

In 1931, the '*Association des Oulémas Musulmans Algeriens*' was formed under the leadership of Ben Badis [19]. The Association was the Algerian embodiment of ideas which had been gaining support throughout the Muslim world since the nineteenth century. The objectives of the Ulama were both Islamic and nationalist . They sought to restore Islam to its ancient rigueur without turning away from the modern world . Ben Badis held that the purification of a return to religion would bring in its wake the revivification of politics , culture and society . Algeria, he insisted , was a nation in being , a nation without a state . Ben Badis had an answer for the ' évolue ' and Abbas especially, who denied that Algeria had a separate identity from France . Ben Badis stated that he too had looked in the past and found " that this Algerian nation is not France, cannot be France , and does not want to be France " [20] .

While the Ulama avoided a direct confrontation with the French administration and did not advocate a violent seizure of power, they called on their people to return to a purer and more orthodox form of Islam. The implication was clear: that a truly Muslim state and society, such as that which God had revealed to his Prophet, Muhammad, could never exist in a nation administered by infidels.

It was in their newspapers, such as *Esh Chihad* [the Meteor] , *El Bassair,* La Defense and Le Peuple that the Ulama diffused their position their vis-a- vis the Palestinian problem.

The Ulama had a hard and uncompromising position towards Palestine . Several passages [21] may illustrate the Ulama's early understanding of " British imperialism" in Palestine . Algerian Jews were not blamed for their

their lives, the PPA which was thought to have organized the Setif incidents was banned.

In October 1946 Messali Hadj was released by the French from the house arrest in France to which he had been subject since 1941. Now a convinced pan-Arabist ,he formed the *Mouvement pour le Triomphe des Libertés Démocratiques* (Movement for the Triumph of democratic Liberties),the MTLD .The MTLD ,too ,was virtually the revived PPA . From 1947, the movement changed most of its tactics and policies .

The ideas of the ENA and the PPA were published in *El- Oumma* newspaper [14] . Most of the articles were devoted to Algeria , but *El-Oumma* published also a regular rubric entitled '' Through the Muslim Orient ''[15] .Most of the information in the rubric was about the Arab resistance in Palestine . Nevertheless, the newspaper itself recognized that "... the events that we relate on Palestine are but few out of the many which take place daily in this unlucky country ...It is impossible for us to analyse all that happens in Palestine , especially those [events] connected with the atrocities committed by the British army against the Arabs [16] ".

Arabism was the explanation of the ENA and PPA positions taken with regard the Palestinian problem. The PPA distinguished between two levels of struggle in the Palestine question. One concerned the Palestinians and the Zionists, and the other one opposed the Arab nation to imperialism. This ideological line would, later, inspire the political speeches of the leaders of independent Algeria .

The following extract from an article published on 27th August 1938 illustrated the nature of PPA's position towards Palestine. " Never did the Arab World from the Persian Gulf to the Atlantic follow with such anguish but also with admiration the harsh and legal struggle that is supported by our brothers of Palestine against the combined coalition of English imperialism and Jewish Zionism . The Arabs in Palestine are not fighting against the Jews as such but against Zionism ,the agent and the support of Jewish-English imperialism ...the Zionist-Jews are willing to eliminate the Arab people of Palestine , from Palestine , [which is] an integral and inalienable province of the Arab nation , in order to settle in a land over which they have absolutely no right ...The Arabs are not objecting to the hospitality they are asked by accepting some thousands of persons driven away from the " civilized Europe", but to the invasion of their country... The Arabs will not stop their struggle until the realization of their legitimate demands, namely : 1) Immediate abolition of Jewish emigration. 2) Disarming the Zionists . 3) Arresting all the Zionist terrorists . 4) Liberation of all the imprisoned Arabs . 5) The independence of Palestine."[17].

France at the time than those of the Arab World [11]. Even on the subject of Arabism., their analysis used Western concepts. To Chagnollaud, the previous article could well have been written by a French socialist.

In analyzing the dispersed articles of Dr. Bendjelloul on the question of Palestine , the main solution he proposed was understanding and agreement. He neglected all the problems opposing the realisation of this project. The party's line of agreement was based on the same grounds as its Utopian idea of assimilation of Algerian Muslims in France. Indeed , considering the views and attitudes of the members of this party, Gabriel Audisio , in his *Jeunesse de la Mediterrane* published in 1935, remarked that "Algeria is our only overseas territory where we have really succeeded in making France ".[12]

The party's moderate views on Palestine had by 1947 started to change . In April 1946, the *Union Démocratique du Manifeste Algérien* was created by Ferhat Abbas, grouping the members of the Federation des élus. Their strategy for Algerian politics had also changed. The new pressure from the proletarian left forced the bourgeois political leaders to move . though ever so slowly, towards more radical demands and , in the end, toward nationalist positions. By the time the Palestinian problem reached its dramatic stage in 1947, the views of the UDMA had moved to a considerably more positive line, as will be demonstrated later.

2- ENA and PPA

The first modern Algerian nationalist movement, established in Paris in 1927, was the *Etoile Nord Africaine* . The leader of this movement was Hadj Abdelkader, a member of the French Communist Party. But his place was soon taken by Messali Hadj, who also joined the PCF.

The ENA pursued a nationalist and radical program calling for the independence of Algeria, the creation of a national army and the nationalization of large estates.[13] It, therefore, wanted complete independence from France for Algeria, something never voiced before by Algerian nationalists. In 1936 , Messali Hadj was converted to pan-Arab ideas , following his meeting with Chekib Arslan, the father of 'pan-Arabism '.

In January 1937, the ENA was dissolved by the French authorities, but by March Messali Hadj had transformed it into the *parti du peuple Algerian* [party of the Algerian people] , the PPA . Basically, only the name had changed .

The PPA had a strong working class following, both in France and in Algeria. On the outbreak of World War II, the PPA was, as were other nationalist parties, suppressed. It went underground and most of its leaders were detained After the 8th May 1945 riots, in which 45,000 Muslims lost

surrendering their personal status as Muslims , and the eventual integration of Algeria as a full province of France .This political movement was composed almost entirely of French-educated intellectuals and former Muslim officers in French Army units. It never , however , gained mass Muslim support. [8]

To the members of the party , the future of Algeria lay with France , with a policy of assimilation whose application they hoped would be generous and egalitarian. They rejected the idea of Algerian independence and they even denied there had been an Algerian nation to revive. The title of their leading journal indicated their aspirations – it was Abbas' *L'Entente Franco-Musulman.* This appeared in French from 1935 to 1936, little information was given with relation to the Arab World. It was only from 1938 that an Oriental Bulletin section regularly represented some news on the Middle East [9]. In rare cases, an extended article could be published on Palestine. The following extracts from a special study on Palestine published on 13th October 1938 represent the view of the Federation of Elected Muslims on the problem of Palestine as follows "Islam has always been kind and favored the Israelites. Under all latitudes and different times, Muslims and Jews lived in peace. In north Africa, before the conquest, Jews and Muslims experienced together the same anguish and happy moments... It is therefore natural that having been tracked down and driven away by certain states, [the Jews] thought... about establishing a Jewish state. Choosing Palestine, however, could not be without its problems. Moreover, if we add to this that Zionism may have a racist form, we would understand that the clash between [different] religious was inevitable..... we are not going to discuss Zionism nor to plead for or against the Jewish state. We believe that if Jews and Muslims were left alone and between themselves, a solution could have been found and everything could have been arranged... we believe that Jews and Muslims could understand each other.... The evidence lies in the so kind and so fraternal welcome President Leon Blum reserved to Dr. Bendjelloul and to the Muslim and Algerian delegations in 1936 and 1937.... The Jews have the complete right to live and Islam, better than anything else, is ready to protect and welcome them according to its nobility and tradition ." [10]

The views of party with relation to the Palestine question were extremely moderate and did not allude to Arabism. The author of the previous article did not consider himself as a member of the Arab community. Indeed nothing related to pan-Arabism or pan –Islamism can be found in the party's general ideology.

In effect, this position of the *federation des Elus* was consistent with their internal policies. They did not seem to be convinced of Algerian dispossession. Moreover , the party's global policies were closer to those of

published. In the same year he published another newspaper "*Al'Haq*" (the truth). In its first article the author described the Jews' behaviour which changed the prosperity of the Palestinian Arabs to hell, their wealth to poverty and made them strangers in their country because " the Jews did not leave anything for the Arabs to possess".[1]

With this, Omar Racim became the first Algerian writer to mention the Jews in Palestine and their plan to corrupt it. He raised the issue of the danger facing the Palestinians even before the Balfour Declaration and argued that this danger would face all the Arabs and not the Palestinians alone.

In 1912 Omar Racim published another newspaper, entitled "*Thu El-Fikar*", giving himself a new name "El Manssour Assanhaji". This newspaper "was the first in the world", argues tawfik El Madani, "to raise the danger of the Zionists"[2]. In one of the articles in the issue of 18th June 1914 we find a reply to the proposition made by Rachid Ridha in *El Manar* when the latter said that "the Arab leaders and the Palestinians should either agree with the Zionist leaders to make an agreement and live together and this is possible, or to fight the Zionists by all means "[3]. In his reply, Omar Racim argued that there was only one alternative to the Arab people of Palestine and that was to fight Zionism. He emphasized that " Any agreement between the Arab leaders and Jewish leaders is impossible since it is a recognition of Jewish leadership.There are no rights in Palestine except for the Arabs who are the owners of that land. There should be no other flag to be raised in Palestine other than that of Islam as long as there is a single living vein in Arabs' and Muslims' bodies " [4].

Mohamed Said Al-Zahidi was among those Algerians who paid early attention to the activities of the Jews in Algeria and their support for the Jews in Palestine. Abu El Kacem Ibrahim also showed early concern about the situation in Palestine. In his newspaper "W*adi Mizab*" published in the 1930's, Abu El Kacem argued that "the heart of the question lies in the Jewish activities which desire to take over Palestine, the land of Islam and God's Messengers" [5].

In 1931, Sheikh Ibrahim Itfiche attended the Jerusalem congress together with other Maghribi nationalists. Unity was advocated as the major solution against Arab defeats [6].

Until world war two, four political movements dominated the Algerian political scene [7].

1. FERERATION OF ELECTED MUSLIMS

Formed in 1930 , and headed by Dr. Mohamed Saleh Bendjelloul and Ferhat Abbas , this movement had as its objectives the assimilation of the *évolues* into the French community , including full citizenship , without

ALGERIAN NATIONALISTS AND THE PALESTINIAN QUESTION BEFORE 1948

(*) **Prof. Abdelmadjid BENNAMIA**

The sources of a state's foreign policy are first to be found in her past.. In this sense, one could argue, that the Algerian government's foreign policy attitudes were developed in the period when Algeria was still not recognized in international politics as a state. It is necessary therefore to look at the Algerian nationalists' position toward the issue of Palestine in order to better understand the Algerian government's foreign policy in the Arab-Israeli conflict after 1962.

Before doing so, one should emphasize that ideologically the Algerian nationalists identified themselves with Arabism. In their search for identity, the Algerians affirmed themselves as Arabs and Muslims and, in this sense, the Palestine question was considered as a part of this search. Moreover, the Algerian nationalists understood the "Zionist aggression" in three ways: as a religious aggression against the Muslim community, as an aggression against the Arab nation, and sometimes, as an imperialist aggression. The three points may be combined, but the order of importance depended on the socio-political status of the party which adopted them.

The Algerian Nationalists and the Palestinian problem Before 1948:

Algerian newspapers since the turn of the century registered an early understanding of the danger of Zionism. Omar Racim was among the early Arab thinkers who explained the Zionist aim in Palestine.

In 1908 Omar Racim issued "*L'Algérie*" newspaper in which he analyzed the situation in his country and the Arab world. Only two issues were

* professeur de sciences politiques et de civilisation islamique et directeur du laboratoire de recherche 'manuscrits de la civilisation islamique' à l'université d'Oran.

Après l'occupation d'Oran et de Bône en 1830 et 1832, il ne faisait plus aucun doute que la France n'avait nullement l'intention de se retirer d'Algérie, bien au contraire. Quand à l'Angleterre, sortie humiliée de cette crise, elle se résigna à un rôle d'opposition passive préférant suivre les péripéties de l'aventure militaire française tout en priant pour l'enlisement de la France [24] dans le bourbier algérien.

Sa diplomatie s'attela, à partir de 1835, à une autre mission : Prémunir et préserver le royaume chérifien des visées colonialistes françaises .

Mais ceci est une autre histoire.

Notes :

1- LEMARCHAND, E. L'Europe et la conquête d'Alger. Paris, 1913, p-121.
2- SWAIN, James Edgar. The struggle for the control of the Mediterranean Prior to 1848. A study in Anglo-French relations. Boston, 1933, p-83.
3- VALENSI, Lucette. Le Maghreb avant la prise d'Alger 1790-1830. Paris, 1969, p-63.
4- FLOURNOY, Francis Rosebro. British policy toward Morocco in the age Of Palmerston 1830-1865. London, 1935, p-111.
5- SWAIN. Op.cit. p-97.
6- Sydney Smith (1771-1845) fit ses études à Oxford avant d'enseigner la philosophie au Royal college de Londres en 1803. Une année auparavant, il créa le journal 'Edinburgh Review'. Il fit partie de l'armée Anglaise qui combattit Napoléon en Egypte en 1798. Il rédigea un mémorandum qu'il envoya au congrès de Vienne en date du 31 Aout 1814 ; exposant les moyens à mettre en oeuvre pour combattre la 'piraterie des états barbaresques'.
7- LEMARCHAND. Op.cit. p-136.
8- JULIEN, Ch-André. Histoire de l'Algérie contemporaine. PUF, Paris, pp-34-35. Tome 1 : La conquete et les débuts de la colonisation 1827-1871. Ibid.,p-41.
9- BELHAMISSI, Moulay. Histoire de la marine Algérienne. SNED, Alger, 1986, p-96.
10- FISHER, Sir Godfrey. Légende Barbaresque. Trad. Farida HALLEL, Alger, s.d., p-78.
12- AZAN, Paul. L'expédition d'Alger 1830. Plon, Paris, 1924, p-27.
13- JULIEN. Op.cit., p-41.
14- DOUIN, G. Mohamed Ali et l'expédition d'Alger 1829-1830. Le Caire, 1830, pp-38-43.
15- LEMARCHAND. Op.cit., p-142.
16- SWAIN. Op.cit., p-100.
17- Ibid., p-102.
18- FLOURNAY. Op.cit., p-124.
19- SWAIN. Op.cit., p-113.
20- Ibid., p-115.
21- FLOURNAY. Op.cit., p-126.
22- SWAIN Op.cit., p-119.
23- FLOURNAY. Op.cit., p-151.
24- AZAN. Op.cit., p-67.

empêcher Paris de mener son expédition en toute liberté et d'occuper Alger le 5 Juillet 1830.

La diplomatie britannique venait de subir un échec complet, car le salut du Dey ne valait pas une guerre contre la France que ne favorisait pas la situation intérieure. Le poids de la dette contraignait le cabinet de Saint James à pratiquer une politique de non-intervention. L'état de santé du roi George IV qui faisait craindre à bref délai un changement de souverain, augmentait les hésitations. Quand guillaume IV monta sur le trône le 26 Juin 1830, il lui était difficile en dépit de son hostilité à l'entreprise française d'inaugurer son règne par une guerre qui ne trouverait pas dans l'opinion publique un véritable soutien [19].

<u>La Quatrième étape</u> : La politique de l'opposition passive.

Elle commence après la chute d'Alger en 1830.

De toutes les nations hostiles à l'occupation, seule l'Angleterre était en mesure d'intervenir avec efficacité. L'opinion Britannique redoutait l'établissement des français dans une nouvelle colonie et y voyait la source d'une nouvelle période de troubles pour toute l'Europe. On s'inquiétait à Londres d'une occupation future [20] de toute la côte méridionale de la Méditerranée. Le problème de l'équilibre en Afrique du Nord hantait le gouvernement Anglais.

S'il eut suivi le conseil et les avis de son consul à Alger, le gouvernement anglais eut même aidé les Algériens à chasser les Français bien qu'il jugeât que, sous aucun autre régime, la France n'avait «donné à l'Angleterre des sujets de plainte aussi graves» [21]. Il se contenta de rappeler les assurances françaises que l'expédition était entreprise dans le seul dessein de venger l'honneur national et non des vues d'expansion et de conquête. La grande Bretagne espérait que la France évacuerait le plus vite possible le territoire conquis. Louis-Philippe, qui présidait aux destinées de la France après la révolution de juillet, était encombré du legs de la restauration. La situation Européenne et la nécessite de ménager l'Angleterre l'empêchaient de prendre nettement position [22], bien qu'il tint à garder la conquête des Bourbons.

Les Anglais demeurèrent persuadés, jusqu'à mi-septembre 1830, que le nouveau régime, dont les partisans avaient combattu l'expédition, ne manquerait pas d'évacuer Alger. Pour sa part la diplomatie Française se borna à gagner du temps, dans l'espoir qu'à la faveur du silence, les anglais s'accommoderaient à l'occupation. Seul le Consul Saint-John, resté à Alger, montrait moins de modérations [23]. Il était d'ailleurs suspecté d'avoir répandu le bruit que les anglais ne toléreraient pas le maintien de l'autorité française, à laquelle il ne se résigna jamais . Il était le seul à garder cette opposition.

Pendant ce temps, la France ; en quête d'alliés dans le monde musulman et voulant minimiser les risques en cas d'expédition, négociait secrètement avec Mohamed Ali, Pasha d'Egypte[14]. L'Angleterre, alertée par la presse Française, s'opposa farouchement à ce projet d'alliance Franco-Egyptien qui consistait en l'envoi de forces Egyptiennes pour l'occupation d'Alger. Le gouvernement Britannique demanda des informations officielles à la fin de décembre 1829, mais Polignac assura qu'il n'avait jamais entendu parler d'un projet Egyptien dont il démentit officiellement l'existence. Bientôt, les nouvelles venues de Constantinople en confirmèrent la réalité [15].

Le cabinet Tory du Duc de Wellington se montrait irréductiblement opposé à toute initiative visant à "associer les questions d'Orient à la question d'Alger " et qui entraînerait la rupture de "l'équilibre oriental" et "le démembrement de l'Empire Ottoman". [16]

La réaction Britannique fait apparaître le souci de Londres de faire saborder tout axe Paris - Le Caire considéré comme un danger pour l'équilibre des forces dans la Méditerranée et une menace aux intérêts Britanniques et à la présence Anglaise à Gibraltar, Corfou et Malte.

Pour faire face à toute éventualité et pour apaiser l'opinion publique Anglaise inquiète des développements de la crise en Méditerranée, l'Angleterre procéda à l'envoi de deux navires de guerre pour surveiller les mouvements de la flotte Française chargée du Blocus d'Alger. Devant son incapacité à forcer Paris à faire marche arrière, surtout après l'annonce par le Roi Charles X de la l'envoi d'une expédition contre Alger devant les deux assemblées le 2 mars 1830 ; l'Angleterre misa sur une autre option : **Obtenir des garanties Françaises quant aux limites de l'expédition punitive.**[17]

Pour cela, Lord Aberdeen le ministre Anglais des affaires étrangères, instruira son ambassadeur à Paris de demander des engagements écrits du Gouvernement français quant aux limites de l'aventure militaire. Ce que ne put arracher l'Angleterre en l'absence de pressions Européennes combinées. La plupart des états Européens, y compris le Vatican, avaient soutenu farouchement la France dans cette crise. Seule l'Angleterre, et à un degré moindre le gouvernement de Metternich, critiquait ouvertement la politique agressive de la France. La plus grande puissance européenne en ce début de siècle se trouvait ainsi seule face à la résurgence de l'hégémonisme français en Méditerranée.

Face à la pression de l'opinion publique anglaise qui suivait l'évolution de la crise par le biais de la presse, la diplomatie britannique s'efforça de s'adapter une nouvelle fois aux événements pour pouvoir, le cas échéant, influer sur leur évolution. Aussi, prit-elle attache avec le Dey d'Alger par l'intermédiaire du consul Saint-John pour l'avertir des intentions françaises et l'encourager à résister aux visées de la France [18]. Elle ne put néanmoins

intérêt à presser les autres puissance de s'unir contre eux" [9]. Par contre le mémoire Français insistait sur les démarches à faire auprès de la **Porte sublime** dont dépendaient les régences. La France accepta néanmoins de s'associer à une action collective limitée. Une flotte navale Franco-Anglaise fut envoyée à Alger en 1819 pour présenter au Dey Hussein les décisions du congrès et ses exigences, mais le Dey ne céda pas à la pression européenne.

La reprise du **Djihad** maritime algérien, en dépit du bombardement de 1816 et de la destruction de la moitié de la flotte, ne résultait pas seulement d'une position de principe afin que le symbole marquât la perpétuation de la flotte Algérienne, mais signifiait aussi que le **Djihad** est un refus de restreindre l'espace maritime algérien par les puissances coloniales.[10]

Cette résurgence s'inscrit, après 1820, dans un double contexte :

- National avec l'avènement du Dey Hussein qui réussit à asseoir son autorité sur les différentes castes du pouvoir à Alger ;
- International avec le mouvement général de reprise de la course en Méditerranée.

En 1824, une grave crise allait survenir entre l'Angleterre et l'Algérie, provoquant la rupture des relations diplomatiques et le renvoi du consul Britannique Mac Donell par le Dey. L'Angleterre envoya aussitôt l'Amiral

•
deux pays se termineront à plusieurs reprises par la suspensions des liens diplomatiques et souvent par des attaques navales contre Alger. [3]

Il demeure néanmoins prouvé que l'Angleterre ne voyait pas toujours d'un mauvais œil la persistance du **Djihad** maritime des Algériens contre les navires Européens, surtout ceux battant pavillon Français. Toute action qui devait gêner l'empereur Français et constituer une menace à sa force militaire, bénéficiait du soutien tacite et complice des Anglais[4] .

Occupés à combattre en Europe et en Egypte, les Anglais tentèrent de se rapprocher du gouvernement du Dey à maintes reprises, dans un jeu diplomatique **d'alliances non déclarées,** qui se faisaient et se défaisaient au fil des événements.

La deuxième Etape : La politique de la Canonnière

Elle commence avec la chute de Napoléon et se termine avec le début du blocus d'Alger 1827.

La fin des guerres Napoléoniennes va pousser les puissances Européennes, à leur tête l'Angleterre, à se concerter pour "mettre de l'ordre dans la Méditerranée" [5] et annihiler la menace représentée par la Régence d'Alger, sous le motif de combattre la piraterie maritime et l'esclavage des chrétiens prisonniers.

Lors du congrès de Vienne de 1814, l'Angleterre mena une campagne diplomatique soutenue pour organiser un blocus contre Alger suite au mémorandum de Sir Sydney Smith, envoyé aux congressistes. Le projet anglais consistait en la mise en place, à l'aide des contingents fournis par "les nations les plus intéressées", d'une force maritime qui "aurait constamment la garde des côtes de la Méditerranée et le soin important d'arrêter et de poursuivre tous les pirates de la terre et de la mer".[6]

Bien qu'appuyés par Polignac, alors ambassadeur à Londres, les propositions anglaises se heurtèrent à l'hostilité du Roi et de Talleyrand[7]. La France ne s'associa pas à l'action militaire décidée par le congrès de Vienne contre l'Algérie. L'Angleterre entama de bombarder la ville d'Alger le 27 Août 1816, et de détruire une partie de la flotte Algérienne après le refus du Dey Omar d'accepter les termes du traité que venaient de lui soumettre les généraux Anglais Lord Exmouth et le Hollandais Von Capellan au nom de l'Europe.[8]

La France profita de l'irritation du Dey contre les Anglais après cette expédition pour le combler de présents afin de récupérer les comptoirs commerciaux concédés aux Anglais (Bône , La Calle). Ce qui fut acquis le 17 mars 1817. L'idée du blocus Européen contre Alger fut relancée par l'Angleterre en 1818 à l'occasion du congrès d'Aix-la chapelle. Le Duc de Richelieu président du conseil, s'opposa à toute action collective car " la France n'ayant rien à craindre des barbaresques, n'avait réellement aucun

L'Angleterre et la crise Franco-Algérienne du début du 19éme siècle

 (*) Prof. Boualem BELKACEMI

Je voudrais évoquer dans cet article l'évolution de la politique Britannique vis-à-vis des rapports Franco-Algériens durant la première moitié du 19éme siècle.

De prime abord, à un moment où l'Angleterre est sortie grand vainqueur des guerres napoléoniennes et se devait de profiter de cette position de force pour imposer sa suprématie en Europe et sur les mers, particulièrement la Méditerranée; l'on constate que le gouvernement de sa majesté se montre impuissant à repousser les attaques des autres nations Européennes contre **"l'espace vital Britannique"** [1] lors de la crise qui devait opposer l'Algérie à la France au début du 19éme siècle,

Cette situation paradoxale est due à notre avis à plusieurs facteurs, tels l'état des relations internationales en Europe et en Méditerranée et l'évolution des rapports Franco-britanniques devant la montée en puissance des hégémonies coloniales françaises visant l'Afrique du Nord.

Pour comprendre ces bouleversements historiques, il convient d'analyser le processus d'évolution de la politique étrangère anglaise vis-à-vis des rapports Algéro-Français depuis la fin du 18éme siècle. Nous distinguons quatre étapes distinctes dans l'évolution de cette politique :

<u>La première étape</u> : La politique de complicité

Elle commence à la fin du XVIII siècle et se termine avec la défaite de Napoléon Bonaparte et son exil.

A l'instar des relations avec les autres états Européens, les relations Algéro-Anglaise n'avaient pas échappé à l'instabilité qui caractérisa les rapports Nord-Sud dans la Méditerranée durant cette période [2].

Le **Djihad** maritime des Algériens (appelé course par les Européens) dans le bassin occidental de la Méditerranée et jusqu'aux côtes sud des îles Britanniques, n'était pas étranger à cet état de fait. Les relations entre les

---

- **Professeur d'histoire contemporaine et directeur du laboratoire de recherche ' Sources et Biographies' à l'université d'Oran .**

- **Cette communication a été présentée lors du colloque sur les relations culturelles entre le Maghreb et la Grande-Bretagne organisé en Mai 2001 à Zaghouan , Tunisie**

SOMMAIRE

LES CONDITIONS DE PUBLICATION :

La revue oùssour accepte pour publication tous travaux et études répondant aux critères académiques suivants :

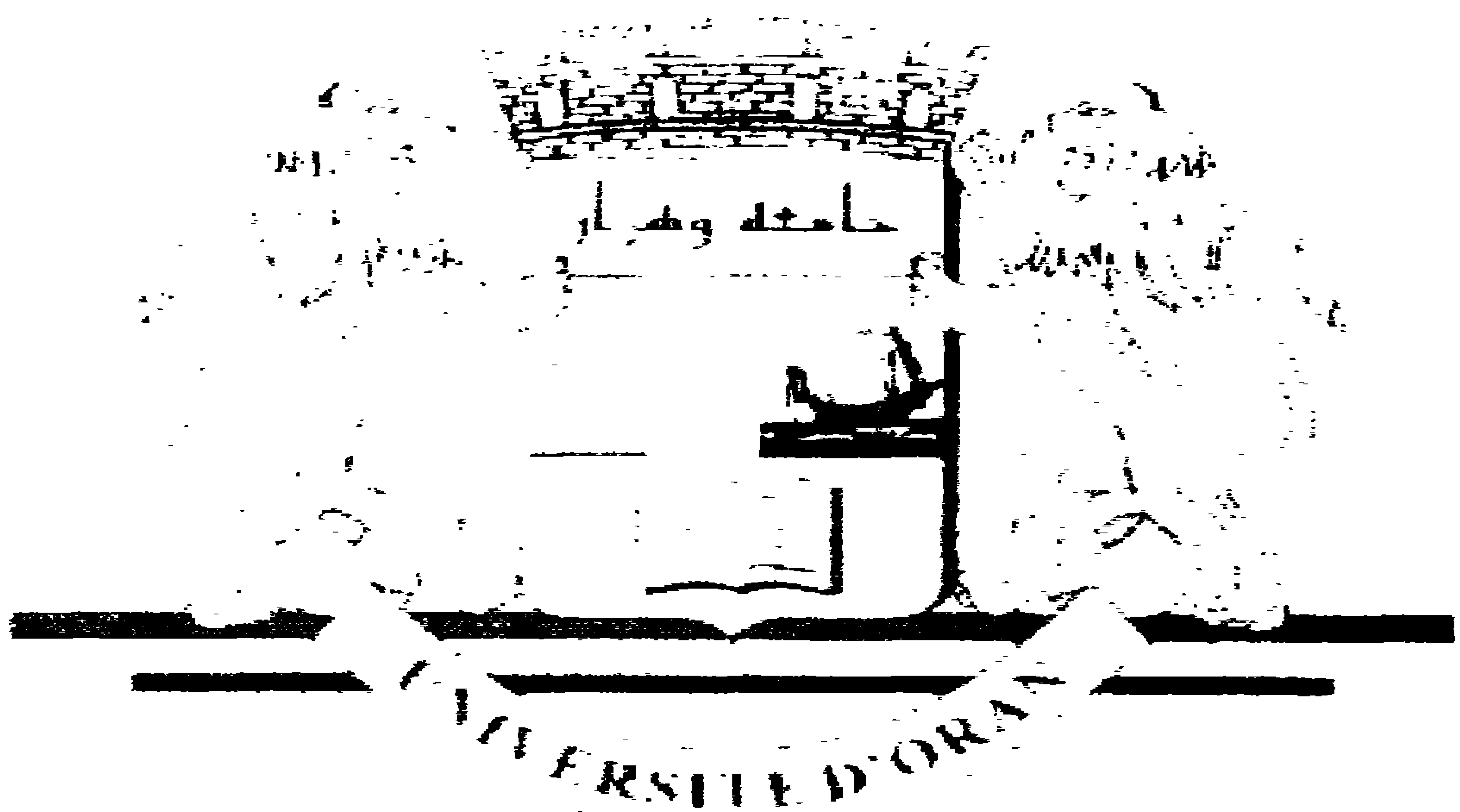
1- **L'article doit être inédit et n'a pas fait l'objet d'une publication totale ou partielle.**
2- **L'auteur de l'article doit respecter les critères scientifiques et méthodologiques en vigueur, notamment les notes bibliographiques dont la liste doit être jointe à la fin de l'article .**
3- **Les articles doivent être écrits utilisant le word 2000 et enregistrés sous RTF. Ils doivent être présentés sur disquette en plus d'un exemplaire tiré.**
4- **L'article (entre 10 et 15 pages) doit être écrit utilisant la police 'Times new Roman' - caractère 16 et espacement 1,5 . Pour Les notes bibliographiques il est préférable d'utiliser le caractère 12 avec espacement simple.**
5- **Les articles ne seront pas restitués à leurs auteurs qu'ils soient publiés ou non.**
6- **Les articles publiés ne reflètent en aucun cas l'opinion de la revue oùssour.**

ADRESSE POUR CORRESPONDANCE :

Prof. Boualem BELKACEMI
Laboratoire ' SOURCES ET BIOGRAPHIES'
Département d'histoire et d'archéologie
Université d'Oran. ALGERIE
Tel : 213 – (0)41- 353306
Fax : 213 – (0)41-419184
E-mail: oussour @ yahoo.com

oùssour

revue semestrielle publiée par le laboratoire de recherche
sources et biographies



Numéro 1 - Juin 2002

Oussour

Revue scientifique publiée par le Laboratoire de recherche en Histoire - SOURCES ET BIOGRAHIES - Université d'Oran

N° 01 - Juin 2002

■ L'Angleterre et la crise Franco Algérienne du début du 19 siècle

.Prof: Boualem BELKACEMI

■ Algerian Nationalists and the Palestinian question

.Prof: Abdelmajid BENNAMIA

